

دكتور / إبراهيم محمد حسن

المسلمون فى الحبشة

القرن العاشر الهجرى / السادس عشر الميلادى

المسلمون فى الحبشة

(الإمام أحمد بن إبراهيم الصومالي وفتوح الحبشة)

القرن العاشر الهجري / السادس عشر الميلادي

تأليف

دكتور إبراهيم محمد حسن

بسم الله الرحمن الرحيم

تقديم

العلاقات بين الحبشة والمناطق الإسلامية فى القرن الأفريقى علاقات قديمة ومتشابكة ترجع إلى وقت ظهور الإسلام ؛ وقصة هجرة المسلمين الأولى إلى الحبشة مشهورة ومعروفة . كما أن العلاقات بين الحبشة والمناطق الإسلامية فى منطقة القرن الأفريقى، التى كانت تعرف قديمًا باسم «دول الطراز الإسلامى» احتلت صفحات كثيرة من صفحات المصادر التاريخية. وفضلاً عن هذا وذاك فإن مؤرخًا كبيرًا فى وزن «تقى الدين أحمد بن على المقريزى» ألف كتابًا خصَّ به المسلمين فى الحبشة وأعطاه عنوان «الإلمام بأخبار من بأرض الحبشة من ملوك الإسلام» ، كشف فيه عن جوانب مهمة فى هذه العلاقات .

وتدور هذه العلاقات بشكل أساسى حول حقيقة من حقائق الجغرافيا السياسية مؤداها أن الحبشة دولة برية داخلية ليست لها موانئ على البحر الأحمر الذى كان وما يزال ، أحد الشرايين الحيوية فى التجارة الدولية ، على حين أن دول الطراز الإسلامى كانت دولاً بحرية تتماس حدودها مع الحبشة . ومن ناحية ثانية دارت هذه العلاقات حول حقيقة من حقائق التاريخ مؤداها أن الحبشة كانت المركز الوحيد تقريبًا الذى بقى للمسيحية فى القارة الأفريقية بعد الفتوح الإسلامية . وقد أدى هذا إلى امتداد علاقات الحبشة الخارجية إلى مصر؛ فقد كانت كنيسة الحبشة تابعة لكنيسة الاسكندرية حتى القرن العشرين ؛ ومن هنا اتخذت علاقات الحبشة بمصر مسارين أحدهما لصالح مسيحيى الحبشة والثانى لصالح مسلمى دول الطراز الإسلامى . ومن ناحية ثالثة، دخلت القوى الأوربية الاستعمارية فى نسيج هذه العلاقات منذ وقت باكر ؛ فقد انتهز البرتغاليون فرصة هذا النزاع، وعرضوا على الحبشة مساعداتهم ، وقد أدى هذا الموقف إلى اتساع دائرة الصراع . وكان الموقف البرتغالى امتدادًا للموقف الأوربى القائم على وهم وجود ملك مسيحى عند نهاية العالم المعروف (كان مكانه فى الأسطورة الأوربية فى الهند أو فى الحبشة) سوف يهاجم المسلمين ويقضى عليهم.

هذه المحاور الثلاثة أثرت بشكل كبير على العلاقات بين الأحباش النصارى ومسلمى دول الطراز الإسلامى، كما أنها حكمت العلاقات الثنائية فى هذه المنطقة طوال تاريخ هذه المنطقة .

وما حدث فى سبعينيات القرن العشرين ، ثم استقلال إرتيريا عن الحبشة ، وما يجرى الآن فى الصومال المذبوح بسيف المنازعات ، وشوكة التدخل الحبشى، وأصابع الأمريكيين والغرب، إن هو إلا أحد التجليات المعاصرة لمشكلة تاريخية قديمة.

وفى هذه الدراسة المهمة يقدم الدكتور ابراهيم محمد حسن فترة مهمة وحيوية من فترات الصراع المستمر بين الحبشة وإمارات الطراز الإسلامى؛ وتتناول هذه الدراسة قصة الصراع القديم / الجديد من خلال سيرة الإمام أحمد بن ابراهيم الصومالى الذى قام بغزو الحبشة نفسها واستولى على مناطق كبيرة من أراضيها ، وتوضح كيف أن هذا الصراع اتخذ بعداً دوليًا بعد دخول الأتراك العثمانيين (الذين حلوا محل دولة سلاطين المماليك منذ مطلع القرن السادس عشر) إلى جانب الإمام أحمد بن إبراهيم الصومالى، ودخول البرتغاليين إلى جانب الأحباش . وقد كانت عوامل الصراع الدولى والرغبة فى السيطرة على طرق التجارة البحرية بين الهند والشرق الأقصى من ناحية وأوربا من ناحية أخرى، حاضرة فى هذا التدخل لأن البحر الأحمر كان محط أطماع البرتغاليين، كما كانت حمايته مسئولية العثمانيين . وعلى الرغم من أن كلا من الجانبين المحليين أدركا مطامع كل من الجانبين الدوليين، فإن اختلاف توقيت الاكتشاف جاء فى صالح الأحباش على حساب الصوماليين . فقد قطع الإمام أحمد بن إبراهيم علاقاته بالأتراك العثمانيين فى مرحلة حاسمة من مراحل النزاع، على حين قطع الملك الحبشى علاقاته بالبرتغاليين بعد أن حقق النصر بمساعدتهم وتخلص من الإمام وقواته .

كانت قصة الإمام أحمد بن إبراهيم الصومالى، التى يرويها هذا الكتاب ، قصة زعيم فى زمن عصفت الرياح السياسية بموازين القوى فى عالم البحر الأحمر، وكان لابد لهذه القصة أن تتأثر بهذه الرياح . وهذا ما كشفه الدكتور ابراهيم محمد حسن فى هذا الكتاب الذى نسعد بتقديمه فى دار عين للدراسات والبحوث الانسانية والاجتماعية.

والله الموفق والمستعان

د. قاسم عبده قاسم

المقدمـــة

كان الإمام أحمد بن إبراهيم الصومالى من أشد الناس تدينا وإيمانا برسالته فى الدعوة إلى دين الإسلام مكرساً حياته وماله فى سبيل هذه الرسالة. أما عن صفاته الشخصية فقد كان واسع الأفق ملما بالخطط الحربية التى أجاد وضعها قبل الدخول فى أية معركة ، كما اهتم اهتماما بالغا بالإعداد الفنى والعسكرى لجيوشه والعمل على تجديد معداتها وتدريبها .

وفى فترات السلم كان الإمام أحمد يقسم جيشه إلى مجموعات لكل منها وظائف خاصة بها لاتشاركها فيها غيرها . كما حرص على أن يكون الجيش مزوداً بأحدث الأسلحة والذخائر.

ولم يكن هدف الإمام أحمد من ذلك أن يتوج ملكاً أو سلطاناً بل كان هدفه صالح شعبه والوطن ، ومن ثم كان طبيعيا أن يهتم بتوحيد الجبهة الداخلية للمسلمين الذين حرص على تطبيق مبدأ المساواة بينهم محاربا بذلك روح الفردية والقبلية.

ومن ناحية أخرى ناشد الإمام أحمد المسلمين أن يعملوا بجد ونشاط لبناء الاقتصاد الوطنى فى سبيل نهضة بلادهم وزيادة الانتاج- كما بنى المساجد والمدارس لتكون مركزا تقام فيه الشعائر الدينية من ناحية ولتكون مركزا لبث الوعى القومى بين مواطنيه من ناحية أخرى- كذلك أرسل الإمام أحمد الوفود وعلى رأسها الفقهاء إلى مختلف المناطق للدعوة إلى الإسلام وتفقيه المسلمين وإرشادهم إلى أمور دينهم.

وفى سبيل تأمين بلاده الإسلامية قام الإمام بعدة حروب شنها على التجمعات المسيحية الحبشية كما شن الحملات ضد المقاطعات التى كثيرا ما كانت تقوم بمهاجمة الأراضى الإسلامية- ونتيجة لكل ذلك شهدت الحبشة فى ذلك العصر أكبر غزو إسلامى فى تاريخها القديم والحديث على حد سواء قاده هذا البطل . وذلك فيما بين عام ١٥٢٧- ١٥٤٢م، وبذلك أصبح الصوماليون سادة على نحو ثلثى أراضى الحبشة.

وطبيعى أن ما أوردناه فى السطور السابقة عن هذا الإمام البطل لايفيه حقه كمجاهد بدأ من الصغر تابعا لملك الحبشة ليصبح فى نهاية الأمر الحاكم الحقيقى لهذه البلاد . ولعل فى

استعراضنا للصفحات فى هذا البحث ما يفيدنا فى إلقاء المزيد من الضوء على سيرة هذا الرجل الفذ .. وأرجو أن أكون قد وفقت فى إعطاء هذا المجاهد حقه فيما كتبت .. وإذا كنت مقصرا فى هذا الصدد فالحقيقة أن قلة المراجع العربية والإفرنجية كانت عقبة فى سبيل تحقيق أكبر قدر من الوضوح لهذه الدراسة .

وقد ظل تاريخ الحبشة والصومال غامضا ومجهولا حتى القرن السادس عشر الميلادى حين بدأت البعثات التركية والبرتغالية ترتاد شواطئ المحيط الهندى والبحر الأحمر حيث بدأ الصراع فى سبيل توطيد نفوذ كل منهما فى هذه المناطق التى تتحكم فى طرق التجارة العالمية... ولذلك فإن الكتابات العربية التى عاصرت هذا الصراع قليلة وأهمها كتاب عرب فقيه «فتوح الحبشة» وقد شهد بنفسه بعض المعارك وروى تفاصيلها والظروف التى مر بها هذا الصراع .

أما المراجع الأوربية فهى قليلة ونادرة ولم تكتب بأمانة إذ حملت وجهة نظر كتابها الأوربيين الذين جاءوا يستعمرون هذه المناطق.

أما المراجع الحديثة فعلى الرغم من قلتها ، فإنها فى تناولها لهذا الموضوع بالذات تتأثر بالمصادر الأوربية القليلة التى عاصرت هذه الأحداث والتى تحمل وجهة نظر متميزة إلى الجانب الأوربى الاستعمارى .

ولست فى حاجة إلى التنويه عن مدى الجهد الذى استغرقه منى هذا البحث إذ أردت إبراز أهمية الصومال كبلد إسلامى له فضل السبق باعتناق الإسلام ثم أصبح مركزا لنشر الدين الإسلامى فى البلاد المجاورة . وما حركة الإمام أحمد وفتوحاته إلا امتداداً للثورات التى حدثت من قبل بقيادة أجداده الأمراء للتخلص من سيطرة الأحباش .. يجدر بنا أن نشير إلى أن هذه الثورات لم تنته بهزيمة الإمام أحمد ومقتله بل استمرت بعد ذلك لتؤكد أنها حركة أمة وليست ترتبط بفرد ما .

واستمرت سلسلة الثورات حتى العصر الحديث الذى شهد ظهور السيد محمد عبدالله الحسن الذى قاد حربا مقدسة ضد المستعمرين، واستطاع تحرير أغلب الأراضى الصومالية، ولكن تفوق أعدائه فى العدد والعدة وضع النهاية المحتومة لحركته الثورية.

وهكذا فقد كان لهذه الثورات وشعاراتها الوطنية أكبر الأثر فيما وصلت إليه وحدة الصومال فى هذه الأيام وروحها الثورية ضد الإستعمار والتدخل الأجنبى ومساندة حركات

التحرر فى أريتريا التى تحاول بكل طاقاتها الثورية التحرر من ربقة النفوذ الحبشى .. وسيظل الصراع ضد الاستعمار قائما كما كان أبداً حتى يتحقق للصومال الإسلامى وحدته الكبرى.

وستكون خطة البحث كما يلى:

الباب الأول :

ويتناول دول «الطراز الإسلامى» وهو تعبير أطلقه المعاصرون على الدول الإسلامية الصغيرة التى أحاطت بالحبشة المسيحية- وأهمها الامارات السبع التى سنتناول كلاً منها بالحديث تفصيلا ما أمكن ذلك - كما سنعرض لتفاصيل الحروب التى دارت بين مسلمى الصومال وملوك الحبشة وأهم معارك هذه الحروب ؛ وبالتالى أهم نتائجها ثم نتحدث بعد ذلك عن بداية وصول الأتراك والعرب والبرتغاليين إلى هذه المناطق وظهورهم على مسرح الأحداث.

الباب الثانى:

يتناول نشأة الإمام أحمد بن إبراهيم وعرض لسيرة حياته- ولكن ذلك لن يكون ترجمة شخصية بالمعنى المألوف ، وإنما سنتحدث عن دوره فى توحيد جهود المسلمين بعد ظهوره على مسرح الأحداث ثم محاولات اتصاله بالأتراك طلبا لتأييدهم- ونعرض لكيفية إمدادهم له بالسلاح ، كما سنتحدث عن دوره الكبير فى تحرير الأراضى الصومالية، وكيفية أثر هذه الحركة فى انتشار الإسلام فى ربوع الحبشة المسيحية .

الباب الثالث:

وسنتناول فى هذا الباب حروب الإمام أحمد بن إبراهيم ضد الأحباش والمراحل والأدوار التى مر بها هذا الصراع . وكيف سارعت الجيوش الحبشية للتصدى له ثم قتل كبار القادة الأحباش - ونتناول أيضا بالبحث دور الإمام فى إدارة الصراع من عاصمته هرر؛ ثم حروبه ضد المرتدين عن الإسلام ومدى نجاحه فى ذلك ؛ ونبحث فى هذا الباب أيضا الزحف الثانى للإمام نحو الحبشة حتى وصلت جيوشه إلى النوبة شمالا .

الباب الرابع :

وسنعرض بقدر الإمكان لسياسة الإمام أحمد الداخلية ، وكيف عمل على توطيد أركان الأمن فى نواحى البلاد، كما شجع تطوير الزراعة وازدياد حجم التبادل التجارى الداخلى.

ومن ناحية أخرى سنبحث محاولاته فى تشجيع بناء المدن واهتمامه بنشر الإسلام والتعليم عن طريق بناء المدارس والمساجد . وفى النهاية اهتمامه ببناء جيش قوى باعتبار ذلك ضمانا لاستمرار كل الإصلاحات الداخلية .

الباب الخامس :

وسنتناول فى هذا الباب بالتحليل مساعدة البرتغاليين للأحباش ضد المسلمين ، وكيف أن الأسطول البرتغالى وصل إلى المنطقة ليساهم فعلا فى القتال بين الفريقين بطريقة متزايدة . كما سنعرض لمراحل هذا الدور من أدوار الصراع وكيف انتهى بعودة الإمارات الإسلامية إلى حظيرة النفوذ الحبشى وما نتج عن ذلك من ازدياد نفوذ البرتغاليين فى الحبشة ثم الحركة الإحيائية للجهاد بقيادة الأمير نور الدين بن مجاهد .

هذا وسيضم البحث خاتمة تضم أهم ما أظن أننى وفقت إلى استخلاصه من نتائج.

وأخيرا، فإننى أرجو أن أكون قد وفقت فى عرض سيرة هذا المجاهد وإلقاء الضوء على بلاد الصومال فى هذه الفترة التى قادها الإمام أحمد بن إبراهيم الصومالى، وأن أكن اخطأت فعذرى أننى ما زلت مبتدئا على طريق طويل وشاق للبحث عن الحقيقة والمعرفة..

الباب الأول

دول الطـراز الاسلامــى

الأمـارات السـبـع (أوفـات دوارو - أرابينى - هدية - بالى- دارة) الحروب بين الصومال وملوك الحبشة - أهم وقائع وأحداث الحرب- ظهور الأتراك والبرتغاليين على مسرح الأحداث فى البـحـر الأحمر والمحيط الهندى .

دول الطراز الإسلامى

تتسم الأخبار المباشرة عن الصومال بالقلة والندرة، وتنسحب تلك الحقيقة أيضا على ما يتعلق بشرق أفريقيا ، ويرجع السبب فى ذلك إلى أن المسلمين اتجهوا باهتمامهم إلى حوض البحر المتوسط والهند والشرق الأقصى باعتبار هذه المناطق مراكز التجارة العالمية ، ومن ثم أصبح ساحل الصومال فى شبه عزلة مما أدى إلى قلة ما كتب عنه فى كتب المؤرخين والجغرافيين العرب والأوربيين على حد سواء.

وهكذا فإن المتأخرين من هؤلاء المؤرخين والجغرافيين لم يكن أمامهم بديلا سوى النقل من كتابات الأقدمين الذين اعتمدوا بدورهم – فيما كتبوه- على ما نقلوه من أفواه الرعاة، والقليل منهم من قام بزيارة هذه المناطق مثل ابن بطوطه والمسعودى، ويبدو أن المسعودى لم يزر ساحل الصومال بنفسه بل زار ساحل موزمبيق وبخاصة سوفالة. وقد أطلق على ساحل الصومال «بلاد حنونى» لعلها نسبة إلى حنون، وأطلق على البحر الذى يحيط بسواحل الصومال «بحر بربرى»(١) .

وقد شهدت أثيوبيا – أثر قيام حكومة الرسول محمد صلى الله عليه وسلم فى المدينة – هجرات يمنية تقصدها للاستيطان والتجارة، كما كانت كثرة المال فى أيدى المسلمين نتيجة لما وقع فى أيديهم من الغنائم فى حروبهم الأولى داعيا لهم إلى اقتناء الرقيق والثراء (٢).

وذكر المؤرخون كذلك أن الإسلام انتشر فى أفريقيا الشرقية سلما وكانت بداية ذلك الانتشار بواسطة التجار العرب والهنود الذين كانوا يفدون على تلك الديار فى جماعات كبيرة، توصلوا إلى رأس جردفوى Guardafui والى جنوب كابريكورن Capricorne (٣).

وتواجد المسلمون منذ القرن العاشر الميلادى فى كيلوان على أكثر من ٢٠ درجة من خط العرض الجنوبى أو فى زامباره Zampare . كما أنه فى أواخر القرن الحادى عشر الميلادى تضاءل تأثير معظم الكنائس الأرثوذكسية والتى امتد نفوذها على ساحل شرق أفريقيا،

1- Augustus : Modern Abyssinia, London, 1907 , p. 15 , 18 .

أنظر أيضا : عبد المنعم عبد الحليم : صوماليا، ص٣٩٢ .

٢- زاهر رياض : أبحاث من أثيوبيا – تحت رقم ٢ بعنوان «أثيوبيا واليمن خلال العصور الوسطى» ص١٢ .

3- Trimingham : Islam in Ethiopia. London , 1952 . p. 14 .

وكذلك من مصر إلى المغرب إلا بعض الكنائس التى أصبحت أشبه بجزر صغيرة مجهولة وسط المحيط الإسلامى الضخم(١).

وهكذا فقد أدت – بعد ذلك – رحلات العرب وهجراتهم من الجزيرة العربية إلى الساحل الأفريقى المقابل لها إلى معرفتهم بتلك الأماكن جيدا . وكان لقرب المسافة بين ساحل الصومال وساحل الجزيرة العربية أثره الكبير فى حجم هذه الهجرات، فاندفعت جماعات عربية كثيرة على موجات تشق طريقها إلى وطنها الجديد فى أفريقيا، وبمرور الوقت قويت شوكتهم فتمكنوا من تكوين إمارات عربية فى الأماكن الساحلية(٢).

هذا عن وصول العرب إلى الساحل الأفريقى، أما عن دخول القبائل الصومالية بكاملها فى الدين الإسلامى فقد تم ذلك فى أوائل القرن الرابع عشر الميلادى ؛ إذ أنها بعد أن اعتنقت الإسلام انطلقت نحو النهضة الحبشية فى غزوات هدفها الاستيطان فى أراضى جديدة، وكان من نتيجة ذلك أن قامت حركة كان لها نتائج هامة فيما بعد هى حركة الجالا galla والتى كانت تضم شعبا قريبا للصوماليين من الناحية العرقية(٣).

ومنذ القرن السادس عشر نرى شعوب الجالا هذه تجتاح بموجاتها المتتالية الهضاب العالية وتستقطع بعض المناطق بحيث تم لها عزل السكان الأصليين فى بعض الأماكن المتفرقة(٤).

وتحدث القلقشندى فى «صبح الأعشى» عن هذه المنطقة فقال : «إن هذه البلاد تقع على أعلى بحر القلزم (البحر الأحمر) أى عند طرفه الجنوبى وما يتصل به من بحر الهند ». وذكر أيضا هذا الشريط الإسلامى من بلاد الحبشة يعبر عنه بالطراز الإسلامى «لأنه على جانب البحر كالطراز له».

وإذا كانت هذه البلاد قد عرفت فى مصر والشام باسم بلاد الزيلع ، فإن «الزيلع» فى حقيقة الأمر لم تكن إلا قرية من قراها غلب عليها إسمها وبمرو رالوقت ظل اطلاق هذا الاسم ساريا حتى التصق بهذه البلاد(٥).

١– لوثرب ستودارد : حاضر العالم الإسلامى، ج١، ترجمة : شكيب ارسلان ، ص٢٤٩ .

٢– محمد المعتصم سيد: مهدى الصومال بطل الثورة ضد الاستعمار ، ص١١ .

3- Trimingham : op. cit., p. 60 .

٤– دنيس بولم : الحضارات الأفريقية . ترجمة: على شاهين ، ص٤٣ .

٥– سعيد عاشور : «أضواء جديدة على العلاقات بين مصر والحبشة فى العصور الوسطى» المجلة التاريخية، مجلد ١٤ ، ص٤ .

وفى تقسيمنا لظهور الإسلام والدول الإسلامية على الشاطئ الشرقى لأفريقيا فإننا نقسم الزمن الذى استغرقه ذلك إلى أربع فترات :

١- الفترة الأولى :

وهى بدء ظهور الإسلام فى أثيوبيا واشتغال المسلمين بأعمالهم كغيرهم من رعايا الملك دون أن يكون لهم كيان سياسى.

٢- الفترة الثانية :

وهى عصر سيادة إقليم شوا وهو ما نجهل أغلبه ولانقف إلا على حوادث الثمانين سنة الأخيرة منه .

٣- الفترة الثالثة:

وهى عصر سيادة أوفات والذى يبدأ باستيلاء خير الدين على شوا حتى ظهور الإمام أحمد، وهو العصر الذى تخلله خروج حق الدين ونسله فى شوا .

٤- الفترة الرابعة :

عصر سيادة هرر تحت قيادة الإمام أحمد بن ابراهيم(١).

هذا ما تقدم من تاريخ الصومال القديم ودخول الإسلام فيه، أما عن تاريخ الحبشة فإن كتب التاريخ قد ذكرت أن دولة أثوبيا هى دولة أكسوم التى أقامها العرب وأقاموا عليها أول حاكم عربى من قبيلة الحبشات العربية، ثم أصبحت دولة مسيحية فى سنة ٥٣٠ ميلادية وذلك بتأثير الثقافة المسيحية الواردة من مصر وبلاد الشام، وظلت المسيحية دين مملكة أكسوم ولم تتعد الهضاب الشمالية التجيرى حتى القرن التاسع عشر الميلادى(٢).

وقد جاء فى كتب التاريخ أن الجغرافيين العرب الأوائل فى العصور الوسطى مثل ابن خرداذبه ، المقدسى، المسعودى ، الادريسى ، أبى الفداء، الدمشقى وابن العدول ، لم يذكروا شيئا كثيرا من المعلومات عن بلاد الحبشة . والمقريزى هو المؤرخ الوحيد الذى تكلم بالتفصيل عن تاريخ الحبشة فى العصور الوسطى ، عن أخبار ممالك الإسلام فيها وذلك فى رسالته «الإلمام بأخبار من بأرض الحبشة من ملوك الإسلام»(٣).

١-زاهر رياض : الإسلام فى أثيوبيا ، ص٩٤ .

٢- حمدى السيد سالم : الصومال قديما وحديثا . الجزء الثانى، ص١١٧ .

٣- لوثرب ستوراد : مرجع سابق، ص٣٦٢ .

وقد جاء فى كتاب الإلمام هذا، وهو من أصدق الكتب التى وصفت بلاد الحبشة، ما يلى: «اعلم أن بلاد الحبشة أولها من جهة المشرق المائل إلى جهة الشمال بحر الهند المار من باب المندب إلى بلاد اليمن ، وفيها يمر نهر دجلة الذى يقال له سيحون ويتصل بنيل مصر وجهة الحبشة الغربية وينتهى إلى بلاد التكرور مما يلى جهة اليمين، وكانت سحرت مدينة المملكة فى القديم ويقال لها أحشرم، ويقال لها أيضا نهر فرتا وبها كان النجاشى ، ثم اقليم أمحرا وهو عاصمة المملكة، وتسمى أيضا مرعدى ثم اقليم شاوه ثم إقليم عدل والأمراء ثم اقليم حماسا ثم بارما ثم إقليم الطراز الإسلامى الذى يقال له الزيلع »[١].

وليست الحبشة قطرا غامضا فى جغرافيته العرقية فحسب وإنما يمتد هذا الغموض والاختلاط إلى الناحية الدينية، ففى الحبشة يقيم الوثنيون ويمثلهم عدد كبير من الجالا بجانب المسلمين الذين يمثلون عددا كبيرا من الجالا . والصومال فى الجنوب وبنو عامر وساهو Saho وغيرها فى الشمال، وبجانب هؤلاء يقيم المسيحيون . ولايخلو الأمر كذلك من وجود اليهود والذين يسمون بالفلاشا ويدعون بيهود الحبشة السود[٢].

ولقد قضى معظم الجالا على الدين الوثنى فدخل البعض فى الدين الإسلامى وتعصبوا له وبعضهم استمر على مسيحيته يمجد العذراء والمسيح مع البقية الباقية من الآلهة الوثنية[٣].

هذا عن جانب الكنيسة الحبشية ، أما من ناحية ارتباطها بالكنيسة المصرية فى مصر فقد كان منصب البطريرك الأكبر لكنيسة الحبشة وقفا على رجال الكنيسة المصرية، وكان النجاشى يرسل فى طلب البطريرك من سلطان مصر [٤].

ونتطرق بعد سرد الظروف التاريخية والدينية التى مر بها الساحل الأفريقى والهضبة الحبشية وكذلك وصول المسيحية ومن بعدها الإسلام ، وكيف تطور اعتناق الديانتين بواسطة الأحباش الوثنيين .

١- المقريزى : الإلمام بأخبار من بأرض الحبشة من ملوك الإسلام ، ص٢ .

٢- س . ج . سليجمان : السلالات البشرية فى أفريقيا . ترجمة : يوسف خليل، ص١٠٥ .

٣- دنيس بولم : مرجع سابق، أنظر أيضا :

Trimingham: Op. cit ., p. 63 .

٤- عبد المنعم عبد الحليم : مرجع سابق، ص٣٩٠ .

إزاء ذلك سنلقى نظرة مبسطة على نشأة دول الطراز الإسلامى وتطورها، وقد ذكر القلقشندى فى كتابه «صبح الأعشى » الجزء الخامس ، وصفا دقيقا لهذه البلاد جاء فيه تحت عنوان: «من بلاد الحبشة ما بيد مسلمى الحبشة» ما يلى: «وهى البلاد القابلة لبر سعد الدين على أعلى بحر القلزم وما يتصل بها من البحر الهندى، ويعبر عنها بالطراز الإسلامى لأنها على جانب البحر كالطراز له» . قال فى مسالك الأبصار : «وهى البلاد التى يقال لها بمصر والشام بلاد الزيلع، قال والزيلع إنما هى قرية من قراها وجزيرة من جزائرها غلب عليها اسمها . وقال الشيخ عبد المؤمن الزيلعى الفتية وطولها بحرا وبرا خاصا بها نحو شهرين ، وعرضها يمتد أكثر من ذلك، ولكن الغالب فى أرضها إن قفرا ؛ أمّا مقدار العمارة فهو ثلاثة وأربعون يوما طولا وأربعون يوما عرضا » [١].

كما ذكر القلقشندى فى وصف بيوتهم وأحوالهم فى المعيشة نقلا من كتاب «مسالك الأبصار» : «وبيوتهم من طين وأحجار وأخشاب مسقفة بجمالونات وقباب وليست بذات أسوار وبها فخامة فى البناء ومن ذلك فيها الجوامع والمساجد وتقام بها الخطب والجمع والجماعات ، وعند أهلها محافظة على الدين، إلا أنهم لاتعرف عندهم مدرسة ولا خانقاه ولارباط ولا زاوية ، وهى بلاد شديدة الحر وألوان أهلها تميل إلى الإصفرار ، وليست شعورهم كما فى أهل مالى وما يليها من جنوب الغرب، فطنتهم أنبه من غيرهم فى السودان، وفطرهم أزكى . فيهم الزهاد والأبرار والفقهاء والعلماء ويتمذهبون بمذهب أبى حنيفه » [٢]. قد عرفنا من هذا الوصف طرق معيشتهم وديانتهم وظروف حياتهم الاجتماعية والمذاهب الدينية التى انت سائدة بينهم.

إنتشار الإسلام فى السودان :

كانت بلاد الصومال فى استقبال الدعوة الإسلامية أسبق الدول الأفريقية جميعا . ومن المعروف أن الصومال بحكم صلاته القديمة ببلاد العرب وبحكم وجود جاليات عربية على ساحل الصومال منذ انهيار سد مأرب وما تلى ذلك من نتائج اقتصادية [٣]، كان وجهة الهجرات العربية على مر السنين .

١- القلقشندى: صبح الأعشى، ج٥ ، ص٣٢٤ .

٢- نفس المصدر، ص٣٢٥ .

3- Trimingham : op. cit., p. 59 .

هذا عن كيفية وصول الإسلام إلى الصومال ، أما عن طريقة تأسيس مراكز للدعوة فى هذه البلاد فقد قام جعفر بن أبى طالب بإقامة عدة مراكز للدعوة وذلك بمساندة الجاليات العربية المتوطنة فى تلك الجهات والتى سبقته إلى تلك الأماكن قبل ظهور الإسلام ، ومن ثم فلا عجب إذا وجدنا أن الصوماليين أصبحوا فيها بعد من أكبر المتحمسين لنشر الدعوة الإسلامية وأصبحت البلاد ذات طابع إسلامى خالص (١).

وقد ذكرنا فيما سبق من تعريف هذه البلاد أن المؤرخين العرب قالوا أنها كانت تشمل سبع إمارات إسلامية تخضع لملك الحبشة، والواقع أن هذه الامارات كانت فى صراع دائم مع الحبشة وكانت الحرب سجالا بينهم ؛ ولكن فى غالب الأحيان كان النصر النهائى حليف الأحباش الذين كانوا ينتقمون من أعدائهم مماكان يوغر صدور المسلمين ويثير حفيظتهم واستعدادهم مرة أخرى لقتال الأحباش للأخذ بثأرهم (٢).

وفى العصور الوسطى بالذات أسهمت هذه الدويلات فى النشاط التجارى على شواطئ بلاد الحبشة وشواطئ شرق أفريقيا وحضرموت وعمان واليمن وأصبحت أكثر ثراء عن ذى قبل(٣).

ونتيجة لهذا الثراء أخذت هذه الدويلات – وذلك منذ بداية القرن الثامن الميلادى – فى إنشاء المدن التى ازدهرت . ومن صفات هذه المدن أنها كانت تعتبر دولة صغيرة قائمة بذاتها وإن ترابطت فيما بينها بروابط عديدة(٤).

ولكن ما يهمنا من أمر هذه الدويلات هو احتكارها للنشاط التجارى وقبضها على زمام الحركة التجارية من داخل الحبشة فى الساحل والبحر الأحمر إلى مصر بما فى ذلك تجارة المرور الآتية من جنوب آسيا إلى أوربا (٥).

١– حمدى السيد سالم : مرجع سابق، ص٣٤٨ .

٢– عبد المنعم عبد الحليم : مرجع سابق، ص٣٨٩ .

٣– سعيد عاشور : مرجع سابق، ص٤ .

4- Trimingham : op. cit., p. 60 .

٥– جلال يحيى: التنافس الدولى فى شرق أفريقيا ، ص١٢ .

ولكن فى أواخر القرن السابع وأوائل القرن الثامن الميلادى استطاع العرب الانتشار فى أفريقيا الشرقية كلها، وقد أسس مدينة هرر جماعة منهم كانت أصولهم تعود إلى قبائل حضرموت واليمن ، ثم قامت على هذه المدينة دولة عدل الشامخة وكانت زيلع عاصمتها. وكانت بربرة والتى أسسها البطالمة قديما جزء من هذه الدولة . وأصبحت هذه الدولة الصغيرة بفضل مناعتها وثرائها تنافس دولة الحبشة المسيحية فى القرنين الرابع عشر والخامس عشر(١).

ولو عدنا إلى القرون السابقة أى إلى القرن الثامن الميلادى لوجدنا أن تزايد انتشار الإسلام فى هذه المناطق قد أدى إلى عزل الحبشة عن بقية العالم الخارجى فأصبحت أشبه بجزيرة مسيحية معزولة وسط بحر من الإسلام. وكانت النتيجة الطبيعية لذلك أن أخذ نجم مدينة أكسوم فى الأفول وضاعت عظمتها وانتقل مركز السلطة السياسية إلى الجنوب أى إلى إمحارا Amhara لاستا Lasta ، وأخيرا إلى شوا Shoa وبالتالى انتقلت اللغة والثقافة السامية إلى الأجزاء الوسطى والجنوبية من الهضبة الحبشية وكان من الطبيعى أن يمتد نشاط التبادل التجارى ليشمل سودان وادى النيل وربما أوغندا وشمال كينيا وكانت وظيفة هذه الممالك الرئيسية التجارة، وبذلك حلت محل نشاط مروى واكسوم فى النشاط التجارى فى العصور الوسطى(٢).

استمر الحال على هذا المنوال فى تصدير وتبادل المنتجات الأفريقية والآسيوية حتى وقعت سواحل شرق أفريقيا تحت النفوذ البرتغالى وتحت رحمة الأسطول الذى فرض سيطرته الكاملة مما تسبب فى فقر كثير من المدن ؛ وبالتالى التجار العرب نتيجة لتحويل التجارة من أيديهم إلى أيدى الأوربيين من ناحية ، ونتيجة لاهتمام البرتغاليين بتجارة الرقيق من ناحية أخرى(٣).

هذا من ناحية التبادل التجارى ولكن من ناحية أخرى فإن الشواهد التاريخية يستدل منها على موقع هذه الإمارات والمساحات التى كانت تمثلها إذ جاء فيها أن أوفات كانت تحتل المنطقة الهضبية الممتدة من شوا شمال أديس ابابا الحالية إلى وادى نهر هواش ولكن نفوذها كان ممتدا إلى منطقة زيلع حول خليج عدن (٤).

١- سعيد عاشور : مرجع سابق، ص٤ .

2- Trimingham : Op. cit. p.60.

أنظر أيضا : رولان أوليفر : موجز تاريخ أفريقيا، ص١٠٦ .

٣- جلال يحيى: مرجع سابق، ص١٢ .

٤- عبد المنعم عبد الحليم : مرجع سابق، ص٣٨٣ .

وقد جاء على لسان المقريزى فى كتابه «الإلمام» فى وصف هذه المنطقة : «اعلم أن هذه الدولة قام بها قوم من قريش فمنهم من يقول هم من بنى عبد الدار ومنهم من يقول أنهم من بنى هاشم ولد عقيل بن أبى طالب، قدم أولهم من الحجاز ونزلوا أرض جبرت وهى من أراضى زيلع واستوطنوها وأقاموا بمدينة أوفات»[١].

وكانت تسمى أيضا جبره أو جبرت وهى أوسع هذه الامارات . أما الأمارة الثانية فهى داوارو ثم أرابيتى ثم هديه ، شرخا، يالى، دارا وكانت هذه الامارات كلها تخضع خضوعا مطلقا لملك الحبشة.

وجدير بالذكر أن إمارة أوفات هذه ذكرت جميع المصادر التى تكلمت عنها أنها كانت أقوى الامارات كلها وكانت قوتها هذه مرجعها إلى أنها كانت تسيطر على الطرق التجارية المتجهة من الداخل إلى الساحل وبالعكس ؛ فكانت تضم إلى جانب ذلك عددا ليس بالقليل من القرى التجارية المزدهرة واتخذت من ميناء زيلع عاصمة لها [٢].

وقد وصف المقريزى تلك البلاد أصدق وصف إذ قال : «وهذه الممالك السبع كلها ضعيفة قليلة التحصل وفيها المساجد والجوامع التى تقام بها الجمع والجماعة وعند أهلها المحافظة على الدين ويقال لها الجبرت وهى بلاد حارة وبيوتهم من طين وحجر وخشب وليس بها أسواق ولافخامة لدورهم وهذه السبع ممالك تنقسم إلى: ايفات ، داوارو ، ارايتى، هديه، شرخا ، يالى، دارا، ولكل مملكة من هذه الممالك السبع ملك يتسلط عليهم جميعهم هو الحطى ملك الحبشة يأخذ منهم القطيعة من المال كل سنة وهى قماش وغيره»[٣].

ومما يؤكد هذه الكتابات أن هناك كثيراً من هذه البقاع بها مدائن وكتابات عربية منقوشة تشير إلى ظروف العرب والمسلمين الذين عاشوا فى هذه الأماكن فى تلك الفترة[٤].

١- المقريزى : مصدر سابق، ص٩ .

2- Trimingham: Op. cit., p. 62 .

٣- المقريزى : مصدر سابق، ص٦ . أنظر أيضا : بولس سعد: الحبشة ، ص٨ .

4- A Lvares: Narrative of the Portugeuse. p. 347 .

أنظر أيضا : سعيد عاشور: مرجع سابق، ص١٤ .

ثم ما لبث العرب أن توغلوا فى الداخل حيث تقيم قبائل الصومال الكثيرة العدد وكونوا هناك إمارة إسلامية عربية كبيرة عرفت بإمارة هرر أو العدال وأصبح السلطان الفعلى لها على هذه الإمارات الصغيرة وأصبحت تتكلم باسمها (١).

وهكذا فإنه بهذه النظرة المبسطة لتاريخ نشأة هذه الممالك عرفنا كيف أنها بدأت أولا على الساحل الشرقى وتطور نموها بعد ذلك حتى أصبحت إمارات لها ثقل ووزن وبدأت تؤثر فى مجريات الأمور فى الهضبة الحبشية وبدأت تنافس مملكة الحبشة فى سلطانها وقوتها(٢) وتطور هذا الصراع إلى التشاحن والحرب التى استمرت لمدة قرنين من الزمان حتى ظهور الإمام أحمد والذى كان له أثره الكبير على هذا الصراع والذى سنعرفه فيما بعد .

ومن هذا كله يتضح لنا أن هذا الفتح السلمى الكبير للإسلام على الساحل الشرقى لبلاد الحبشة قد غير من طبيعته كلية دينيا وعرقيا وثقافيا وحضاريا .

ومع ازدهار الدولة الإسلامية زاد النشاط البحرى من شبه الجزيرة العربية وساحل الصومال فتوافدت عليه المجموعات الضخمة من المسلمين العرب والفرس وغيرهم لإنشاء مراكز ثابتة ونشر الإسلام وبث دعوته وذلك استغلالا للتجارة والتجار على أثر تنقلهم من هذه الأقاليم(٣).

وهكذا فإنه بانتهاء هذا التبسيط لتاريخ ونشأة هذه الإمارات نستطيع أن نحدد المعالم الرئيسية التى كانت عليها هذه الإمارات والظروف التى أحاطت بنشأتها وتطورها حتى أصبحت فى مركز القوة الذى يسمح لها بمقاومة سلطان ملك الحبشة والتأثير على الأمور الداخلية للبلاد .

أما فى الصفحات المقبلة فإننى سأستعرض الحروب التى نشبت بين هذه الإمارات وملوك الحبشة وأهم هذه المعارك التى تركت نتائج وآثاراً كبيرة على الطرفين .

1- Trimingham : op. cit., p. 67 .

Cammarer : La mer Rauge. p. 13 .

2- A Lvares: op. cit., p. 340 .

أنظر أيضا : عبد المنعم سيد : مرجع سابق، ص ص١١– ١٢ .

3- Angustus op. cit. p. 14 .

الحرب بين مسلمى الصومال وملوك الحبشة ووقائعها :

قبل أن أمضى فى سرد أحداث الحرب بين مسلمى الصومال وملوك الحبشة سألقى ضوءا بسيطا على الأحوال الدينية التى كانت عليها الحبشة خلال القرنين الرابع والخامس عشر الميلادى.

وإلقاء الضوء على الناحية الدينية يستتبع بالضرورة معرفة نظام الحكم وظروف الشعب، وكل الدراسات تشير إلى أن الحبشة لم يكن لها حكومة مركزية وإنما كانت عبارة عن إمارات يتولى شئون كل إمارة حاكم مسيحى، ولكن كان أكثر هؤلاء الحكام من المسلمين الذين لم يجهروا بإسلامهم لأن القوانين فى البلاد تحتم أن يتولى كل إمارة حاكم مسيحى ، بالإضافة إلى السلطان الأعظم ، أى ملك الملوك والذى كان يتصف عادة بالتعصب الشديد للمسيحية.

ولكن رغم كل ذلك كان أكثر هؤلاء الحكام المسلمين يستخدمون نفوذهم فى نشر الإسلام دون الجهر بذلك [١].

وكان الذى ساعد المسلمين على الوصول إلى هذه المراكز أن العلاقات التجارية التى كان يقوم بها المسلمون وطدت صلاتهم بالأحباش على مدار الزمن وكان طبيعيا أن تكون هناك آثار اجتماعية لتلك العلاقات مثل أن يصهر أهل الحبشة إلى المسلمين أو يصهر العرب إليهم [٣].

هذا عن الأوضاع الدينية والاجتماعية، أما بالنسبة لعلاقات الحبشة الخارجية فقد حازت مصر على أكبر قدر من هذه العلاقات وذلك راجع إلى أهمية الدين فى الربط بينهما منذ القدم[٤]، إذ كانت الصلات الدينية بالكنيسة القبطية تقتضى من الحبشة توثيق العلاقات مع مصر إلا فى الفترات التى كان يحدث فيها اضطهاد لرعايا الجانبين نتيجة الظروف السياسية[٥].

1- Augustus : op. cit. , p. 14 .

٢- حمدى السيد سالم : مرجع سابق، ص٣٦٣ .

3- Trimingham : op. cit. , p. 65 .

أنظر أيضا : حسن إبراهيم حسن : انتشار الإسلام والعروبة فيما يلى الصحراء الكبرى، ص١٣ .

4- Trimingham : op. cit ., p. 63 .

5- A Lvares : op. cit., p. 350 .

ولكن كثيرا ما قامت الحرب بين المسلمين والأحباش فى الحبشة، بل إن هذه الحرب قد اتصلت نحوا من ثلاثة قرون وذلك من القرن الثالث عشر حتى السادس عشر وبالذات فى هذا القرن الأخير حيث ظهر الإمام أحمد وحارب لبنى دنجل وقضى عليه وعلى ملكه (١).

هذا عن نظام الحكم والظروف الاجتماعية والاقتصادية التى كانت سائدة بين الطرفين، أما عن العلاقات الخارجية فقد ذكرت العلاقة الرئيسية بين مصر والحبشة ودور البطريركية فى ذلك ، أما عن جهاد الإمارات الإسلامية ونضالها من أجل نشر الإسلام ضد الجهود المسيحية الحبشية ، فقد مر هذا الجهاد بأدوار ثلاثة يحسن أن نلقى عليها ضوءاً بسيطاً لنعرف الظروف التى أحاطت بذلك الجهاد : (١) دور اوفات ، (٢) دور عدل ، (٣) دور هرر أو الجهاد الإسلامى الأعظم .

ونحن عند ذكر دور أوفات فى هذا الجهاد يجب أن نذكر قول القلقشندى عن تلك الحروب فقد ذكر ما يلى : « وقد أتى ملك الحبشة والنصارى على معظم هذه البلدان والممالك بعد الثمانمائة وضربها وقتل أهلها وحرق ما بها من المصاحف وأكره الكثير منهم على الدخول فى النصرانية، ولم يبق من ملوكها سوى عدد قليل تحت طاعة ملوك الحبشة وله عليهم أتاوة مقررة، والسلطان سعد الدين صاحب زيلع وما معها وهو عاص له، خارج عن طاعته والحروب بينهما لاتنقطع، وللسلطان سعد الدين فى كثير من الأوقات النصرة والغلبة عليه ولكن الله يؤيد بنصره من يشاء»(٢).

وهكذا استمرت الحرب بينهما متصلة لمدة ثلاثة قرون حتى القرن العاشر الهجرى (٣)، ولكن هذه الإمارات رغم صدق إيمانها بالجهاد لم تكن قادرة على مواجهة الأحباش الذين كانت قوتهم عظيمة وتوحدت صفوفهم فى حركة دينية دافقة ومن ثم خضعت هذه الإمارات كلها لنفوذ الحبشة خضوعا مطلقا ، وظهر كأن روح المقاومة الأولى قد انتهت تماما (٤).

١- بولس سعد: مرجع سابق، ص٨٥ .

٢- القلقشندى : مصدر سابق، ص٣٣٦ .

٣- يوسف أحمد : الإسلام فى الحبشة، القاهرة ، ص٣٤ .

٤- حسن أحمد محمود: انتشار الإسلام والثقافة العربية فى أفريقيا، ص٤٥٤ .

أنظر أيضاً : راشد البراوى : الحبشة بين الاقطاع والعصر الحديث، ص٥٤ .

وكان من الممكن أن تكون هذه الحرب هى القاضية لولا تدخل سلاطين المماليك فى مصر والذين هددوا بقطع العلاقات وعدم الموافقة على تعيين المطران الذى طلبه الأحباش واستمر هذا التدخل فكان الأحباش يعقدون الهدنة مع أوفات واعادة فتح بلادهم للتجار المسلمين وبالتالى كان يتم تعيين مطرانهم الجديد واستعادة مراكزهم للبلاد المقدسة (١).

ولم تكن هذه الحركات الإسلامية لتهدأ بوفاة ملك أو أمير وقد عادت الإمارات الإسلامية لكى تلتف حول السلطان سعد الدين أحد سلاطين أوفات ووقفت بجانبه كل من إمارتى هديه، دوارو ونشبت الحروب بينهما. والأهم من ذلك كله أن صاحب هذه الحركة فى القرن السادس عشر دخول قبائل كثيرة من البدو فى حركة الجهاد الإسلامى وكان دخولها هذا يشبه إلى حدّ كبير ظهور شعب الملثمين وتبينهم حركة الجهاد فى عهد عبدالله بن ياسين أو تأييد قبائل الفولانى لعثمان بن فودى . وقد كان إسلام الاعفار الصومالى يمثل نصرا للحركة الإسلامية فى شرق أفريقيا كلها(٢).

وبانتقال عاصمة دولة العدال إلى مدينة هرر بدأ عهد جديد من التطور فى سياسة الإمارة الخارجية وأهدافها التوسعية بالنسبة للحبشة . وكان أول عمل اتخذ فى هذا السبيل هو توحيد الإمارات الصغيرة الواقعة على الحدود الشرقية للحبشة . وسكانها خليط من الأحباش والمسلمين لكى يكونوا جبهة قوية متحدة لتكون على أهبة الاستعداد للمرحلة المقبلة من نضالهم ضد الأحباش (٣).

ونخرج من هذا بنتيجة مؤداها أن بلاد الحبشة عانت من الحروب منذ أقدم العصور سواء ضد المسلمين أو نتيجة للمنازعات بين الأمراء الأحباش أنفسهم (٤).

ولكن حدثت بعد ذلك تطورات جديدة لم تبدأ الحروب فى الداخل وسيطرة وانتصارات على المسلمين كالعادة بل كانت ذات وجه آخر وهو انفتاح الحبشة على الخارج واتصالها بالعالم

1- Trimingham : op. cit., p. 63 .

٢- حسن أحمد محمود: مرجع سابق، ص٤٥٤ .

٣- محمد المعتصم سيد : دول إسلامية فى شرق أفريقيا، ص٣٣ . أنظر أيضا : حسن محمد جوهر : أثيوبيا، ص٦٢ .

4- Trimingham : op. cit., p. 65 .

الخارجي بعد هذه العزلة الطويلة عنهم ؛ إذ إنهم في عهد الامبراطور درء يعقوب أطلت الحبشة على العالم الخارجي وعلى علاقاتها مع العرب المسلمين بمصر والبلاد الإسلامية في الشام وكان لذلك تأثيره على علاقتها بدولة عدل المجاورة[1].

والجدير بالذكر أن دولة عدل- كما ذكرنا سابقا- كانت تخضع للنفوذ الحبشي سابقا في بعض الفترات ، وكانت تثور بينهما الخلافات والحرب وتارة أخرى يكون هناك سلام بينهم .

وبعد وفاة الملك درء يعقوب كانت هناك فترة سلام نسبية وذلك في المدة التي تلت وفاته حتى تولى الملك «عمدا صهيون» وبوفاته هو كذلك جاء بعده الملك «دبرا برهان» الذي وطد علاقاته مع أمراء المسلمين والذي أصبحت أغلب فترات حكمه تتسم بالسلام[٢].

على أنه لاينبغي بأي حال أن نعتقد في استمرار العلاقات الطيبة بين سلاطين المماليك في مصر وملوك الحبشة وخاصة في عصر الحروب الصليبية عندما استحكم العداء بين المسلمين والمسيحيين ؛ وهو العداء الذي كثيرا ما انعكست صورته واضحة في العلاقات بين سلطنة المماليك في مصر بوصفها أكبر قوة إسلامية في الشرق الأوسط حتى أواخر القرن الخامس عشر وبين غيرها من الدول المسيحية المجاورة والأوربية[٣].

وهناك حقيقة أخرى ظهرت في العصور الوسطى بعد هزيمة الصليبيين في الشرق الإسلامي على يد الناصر صلاح الدين بمصر إذ زادت مشكلات النصارى في مصر حتى أصبحت الحبشة ملجأ للهاربين من القبط وكان أن تزعمت الحركة المسيحية في شرق أفريقيا بغية تكوين امبراطورية مسيحية على يد الملك الذي قال عنه الأوربيون إنه القسيس يوحنا [٤].

١- أحمد دراج : المماليك والفرنج في القرن التاسع الهجري- الخامس عشر الميلادي، ص٤٨ . أنظر أيضا:

Cornwallis Harris: High lands of Ethiopia: Nall . 11 .p. 231 .

٢- أحمد دراج : مرجع سابق، ص٥٠ أنظر أيضا:

Cornwallis Harris : op. coit ., p. 233 .

٣- سعيد عاشور: مرجع سابق، ص٢٥ .

٤- حمدي السيد سالم : مرجع سابق، ص٣٦٦ .

وجدير بالذكر فى هذا المقام أن ذلك الملك الحبشى يستر الغموض سيرته خاصة فيما يتعلق بتاريخ حكمه ، وقد شاب الغموض كل ما جاء عن هذا الملك المسيحى فى كتب التاريخ ودائما ما قيل إنه فى مكان ما فى أفريقيا (وعلى أية حال ، فإن شخصية هذا الملك الأسطورى كانت من وحى خيال المسيحية الأوربية ولم يوجد أبداً فى الحقيقة)، ويظهر هذا الدافع إلى الانتقام واضحا لدى حكام الحبشة فى أعمالهم وحروبهم واضطهادهم للصوماليين.

ورغم الفترات الكثيرة التى ساءت فيها العلاقات مع مسلمى الشرق، إلا أنه كان طبيعيا فى ظل وجود الصلات السياسية أن تيسر السبيل إلى حضور القسس والأساقفة من الاسكندرية ومصر إلى الحبشة وكذلك تيسر سفر الحجاج من الحبشة إلى بيت المقدس فى فلسطين لأداء الحج، كما تمتع الرعايا الأحباش بالأمان وأداء طقوس الحج دون أن يضايقهم أحد سواء فى وجودهم هناك أو عند عودتهم إلى بلادهم البعيدة[١].

كما كانت وفود الحجاج عند توافدهم على بيت المقدس تحمل معها الهدايا القيمة التى كانت تحتوى على نفائس وكنوز كثيرة ؛ مثل الهدية التى أرسلها ملك الحبشة للملك الناصر محمد بن قلاوون وقد جاء وصفها على لسان ابن إياس فى كتابه «بدائع الزهور» بقوله : «وقد أرسل بعض ملوك الحبشة تقدمة للناصر محمد بن قلاوون وقد قومت هذه الهدية بمائة ألف دينار أو أكثر من ذلك حتى غدت من النوادر فى ذلك الوقت وأن قاصد ملك الحبشة هو الذى حضر بالهدية وأقام فى الميدان ثلاثة أيام وسافر وهو من ومعه إلى القدس ليزور كنيسة القيامة وسافروا فعلا إلى بيت المقدس»[٢].

ويهمنا فى هذا المقام أن نؤكد الحقيقة الخاصة بأن مطران الحبشة كان دائما من القبط حتى الآن وتتم قداسته فى الكاتدرائية المرقسية فى مصر .

وبناء على هذا الدور الكبير الذى قام به المطارنة المصريون فى بلاد الحبشة فى العصور الوسطى ازداد حرص ملوك الحبشة فى تلك العصور على استحضار مطارنة من مصر كلما تعرض هذا المنصب للفراغ لأنه كان فى الحقيقة من الضرورات العاجلة لسد فراغ دينى وسياسى واجتماعى فى البلاد[٣].

١- أحمد دراج : مرجع سابق، ص٥٣ . وأنظر أيضا : ornwallis Harris : op. cit., p. p. 233 .

٢- ابن إياس : بدائع الزهور فى وقائع الدهور . ص٩ . أنظر أيضاً :

القنائي الأزهرى : الجواهر الحسام فى تاريخ الحبشان . ص١٦ .

3- Trimingham : op. cit., p. 63 .

وهنا يجب الإشارة إلى أن الأحباش في تلك العصور ألفوا المطارنة المصريين واعتادوا أساليبهم وارتاحوا إلى سلوكهم وأصبحوا لهم من الضروريات .

هذا موجز بسيط عن علاقة الأحباش بجيرانهم المسلمين وأسباب العداء بينهما والعوامل والصلات الخارجية بين مسلمى الحبشة والمسلمين فى المشرق العربى وخاصة مصر التى أدت إلى توثيق الروابط بينهما ؛ مما زاد فى عداء الأحباش لمسلمى الصومال وأدت إلى الصراع بينهم والمتمثل فى الحروب التى قامت بينهم.

أشهر معارك الصراع بين الصومال والحبشة :

أفاضت مؤلفات المؤرخين العرب والأوربيين على حد سواء فى وصف مراحل الصراع بين الحبشة ومسلمى الصومال ، وغصت الكتب بوصف أحداث المعارك والوقائع التى دارت بين أمراء المسلمين فى هرر وملوك الحبشة [١].

والجدير بالذكر أن كل المعلومات التى وصلتنا عن معارك جيوش المسلمين والأحباش القديمة كانت عن طريق الفاريز المبعوث البرتغالى إلى ملك الحبشة عند وصوله إلى تلك البلاد فى سفارته المعروفة، وقد سمع بتلك المعارك وكتب عنها ما سمعه .

كما يهمنا كذلك أن نعرف أن تلك المعارك استمرت متفرقة بينهما نتيجة لاختلاف الظروف الاجتماعية والدينية والاقتصادية حتى جاء الأتراك إلى الشرق واستطاعوا السيطرة على مصر ووصلوا إلى المدخل الجنوبى للبحر الأحمر وبدءوا فى التوغل إلى المحيط الهندى[٢].

وهكذا نستطيع أن نقول إن مسلمى الصومال فى نزاعهم هذا مع الأحباش وجدوا لهم حليفا مسلما هم الأتراك الذين وصلوا إلى شواطئ المحيط الهندى وزاد ذلك من حماسهم لشعورهم بأن هناك من سيساعدهم على أعدائهم فى معاركهم المقبلة [٣]. ونستطيع أن نلقى الضوء علي هذه المعارك والنتائج التى تمخضت عنها بالنسبة للأحباش والمسلمون على السواء.

وبدأت هذه المعارك التى اتسمت بالشدة والنتائج الكبيرة التى ترتبت عليها ، حينما ثار الأمير حق الدين بن أحمد حرب أرعد أحد أمراء أوفات فى وجه عمه السلطان ملا اصفح ، وجده على بن عمرو الشمع.

١- لوثرب ستودارد : مرجع سابق، ص٣٤١ .

2- Trimingham : op. cit., p. 77 .

3- Ludelphus : A new history of Ethiopia . p. 220 .

وكانت هذه الثورة من القوة والتنظيم بحيث استمرت دون اخمادها لمدة ثلاثين سنة وتبع ذلك سلسلة من الثورات التى قام بها الأمراء الآخرون مثل الأمير سعد الدين ضد أخيه الملقب بأبى البركات ثم أولاده بعد ذلك.

كما حدث فى خلال القرن الرابع عشر الميلادى أن ثارت عدة حروب ومعارك طاحنة أدت إلى محنة كبيرة قاسى منها المسيحيون والمسلمون على السواء ؛ وذلك حين دفع تجار الرقيق من اليمنيين السلاطين المسلمين إلى الثورة فى وجه الملوك الأحباش حين صمم هؤلاء على منع تجارة الرقيق التى كانت مصدر رزقهم وثرائهم[١].

وكانت نتيجة هذه المعارك التى أحرز فى بعض منها تجار الرقيق النصر على الأحباش أن هجم هؤلاء بتشجيع من السلاطين على الأهالى لاسترقاقهم فى أعداد هائلة، كان من نتيجتها أن امتلأت بلاد الهند واليمن والحجاز ومصر وبلاد الشام والروم والعراق وفارس من هؤلاء الرقيق[٢].

ويستدل كذلك من الكتابات التاريخية أن هذه المعارك استمرت متصلة لمدد طويلة إلا فى فترات بسيطة كان يتخللها السلم لضعف أحد الطرفين وعدم قدرته على مهاجمة الآخر لشعوره بأنه أقوى منه وإن لن يستطيع أن ينال منه [٢].

والمعارك التى جاءتنا أخبارها واضحة كانت فى الفترة من ١٢٦٨م- ١٦٣٢م وأعقب تلك الفترة سلام متقطع حتى سنة ١٥١٧م عندما بدأت المعارك تأخذ طابعًا آخر مختلفًا كل الاختلاف عن تلك الحروب السابقة لدرجة أن نتائجها أصبحت تؤثر على مدى بعيد فى مملكة الحبشة كلها وهى التى سيأتى ذكرها فى الفصول القادمة[٤].

وقد تكلم المقريزى فى كتابه الإلمام عن هذه الحروب ، وذكر أنه قد نشبت عدة حروب بين أمراء المسلمين وملوك الحبشة وخاصة فى عهد (ايكوتو املاك) من ١٢٧٠-١٢٨٥م وكذلك

١- زاهر رياض : كنيسة الاسكندرية فى أفريقيا ، ص١١١ .

2- Trimingham : op. cit ., p. 60 .

٣- زاهر رياض : مرجع سابق، ص١١٢ .

٤- زاهر رياض : أبحاث من أثيوبيا . بحث رقم (٢) ، ص٢٦٩ .

استمرت هذه الحروب أيام الملك عمدا صهيون والذى انتصر على الأمراء المسلمين ومنهم الأمير خير الدين وجمال الدين وذلك فيما بين سنة ١٣١٤ حتى ١٣٤٤م[١].

وقد استمرت هذه الحروب بعد الملك عمدا صهيون حتى تولى ملك الحبشة (نوايا كرستوس) والذى حكم من سنة ١٣٤٤ حتى سنة ١٣٧٢م، ثم الملك نوايا مريم والذى حكم من سنة ١٣٧٢ حتى سنة ١٣٨٢م ثم الملك داود والذى حكم من سنة ١٣٨٢-١٤١١م، ثم ثيودولاوس من سنة ١٤١٣- ١٤١٤م، ثم اندراوس من سنة ١٤١٤- ١٤٣٠م ، ثم زرعا يعقوب من سنة ١٤٣١-١٤٦٨ حتى استطاع هذا الأخير القضاء على قوة الأمراء المسلمين نهائيا فى نهاية حكمه (٢).

أما فى أواخر القرن الرابع عشر الميلادى فقد خاضت قبائل الجالا المسلمة الحرب ضد الأحباش ولكنها هزمت فى المعارك التى دخلتها ، وكان من نتيجة ذلك أن غزيت مناطق هذه القبائل بعد ذلك بواسطة الأحباش أنفسهم بالاشتراك مع بعض القبائل المسلمة الموالية لهم، ورغم تلك الهزيمة فقد استمرت قبائل الجالا فى القتال حتى سنة ١٥٣٠م[٣].

وهكذا فإن النتائج الطبيعية لهزيمة المسلمين فى تلك المعارك كانت استرداد الحبشة لسلطتها على المسلمين وذلك بفرض الجزية عليهم والخضوع الكامل لسلطانها ، وترتب على ذلك ازدياد قوة الحبشة واتخذ القتال بين الطرفين شكل ثورات متفرقة من السكان المسلمين بقصد الانتصار أو الاستشهاد (٤).

وهناك معلومات أخرى وصلت لنا عن طريق كتب التاريخ تمثل ذلك الخضوع وما يترتب عليه فقد جاء على لسان الرواة والمؤرخين أن الآتاوات التى كان يفرضها الزعماء الأحباش على المسلمين كانت تقدم كل عام وتتضمن الهدايا امرأة صومالية مسلمة تتحول إلى المسيحية ويتخذها الملك زوجة له (٥).

وكانت أهم نتائج ذلك الانتصار الحبشى على مسلمى الصومال هى ما تقرر من تجريد جيوش الصومال من السلاح، وعدم السماح للجنود الصوماليين بركوب الخيل، ولم يتبق من

١- لوثرب ستودارد : مرجع سابق، ص٣٦٢ .

٢- زاهر رياض : كنيسة الاسكندرية فى أفريقيا . مرجع سابق، ص١١٢ .

3- Ency . Brit : Somal land . vol . 20 , p. 968 .

٤- رولاند أوليفر : مرجع سابق، ص١٠٦ .

٥- حمدى السيد سالم : مرجع سابق، ص٣٧٦ .

قوات جيش المسلمين إلا ما هو ضرورى للمحافظة على الأمن الداخلى فقط، أى أن هذه القوات كانت من الصغر حيث تشمل أعدادا صغيرة للمحافظة على المدن والقرى من اللصوص وليس للدفاع عنها أو القيام بهجوم فى حالة الحرب.

ونستطيع هنا أن نقرر أنه برغم تلك الهزائم المتوالية فإن التاريخ يذكرنا أن المسلمين لم يستسلموا لهذه الهزائم القاسية (اطلاقا ، فقد قام الأمير جمال الدين بن سعد الدين بتجهيز قواته سرا وفاجأ بها الأحباش وأوقع بهم هزائم كثيرة واستطاع أن يستعيد نفوذه على الامارات الإسلامية مرة أخرى.

وعلى الرغم من ذلك الانتصار الساحق فإن قوة الأحباش المتزايدة وإعدادهم الضخمة مواردهم العظيمة أدت فى النهاية إلى الانتصار على المسلمين مرة أخرى وبالتالى ازداد تفكك الإمارات الإسلامية وضعف جيوشها المحاربة والعودة مرة أخرى إلى حظيرة التبعية الحبشية[١].

واستمرت الحال على ذلك من نصر إلى هزيمة مع تلك الوقائع متفرقة وعدم اتصالها حتى أوائل القرن السادس عشر وذلك حينما استطاع سلطان عدل الأمير أبوبكر بن محمد فى سنة ١٥٢١م أن ينقل مقر سلطنته، إلى هرر فازداد الاحتكاك بينه وبين الأحباش ودخل الصراع بينهما فى دور جديد يختلف كل الاختلاف عن مظاهر الصراع السابق بين المسلمين والأحباش كان من نتيجته ظهور الإمام أحمد موضوع بحثنا هذا [٢].

وهكذا يتضح مما سبق أن الإسلام فى أوائل القرن السادس عشر وشعوبه الصومالية كانت قد أحرزت تقدما كبيرا فى مختلف نواحى حياتها وازداد اتصال الإمارات الإسلامية ببعضها وشعورها بالوحدة ازاء العدو المشترك وأدى كل ذلك إلى شعور مشترك من الجانبين بخطورة كل منهما وخوفه من الآخر .

واستمر ذلك الصراع مذبذبا حتى تولى الملك الحبشى لبنى دنجا Lebena Dengel من ١٥٠٨-١٥٤٠م وهذا الملك كان له دور بارز وخطير فى إذكاء هذا الصراع كما سنرى فى الصفحات التالية[٣].

١- المقريزى : مصدر سابق ، ص٥ .

٢- لوثرب ستودارد : مرجع سابق ، ص٣٦٣ . أنظر أيضا : حمدى السيد سالم : مرجع سابق ، ص٣٦٨ .

3- Gammerer : op. cit., p. 5 .

وأنظر أيضا : راشد البراوى : الصومال الكبير حقيقته وهدفه . ص٢١ .

ويجدر بنا أن نشير إلى النتائج الأخرى الخارجية التى ترتبت على ذلك الصراع فى تلك الفترة إذ أن أنباء الحروب بين المسلمين والأحباش أثارت أكبر الاهتمام فى أوربا ؛ وذلك أن البرتغاليين عندما بدأت حركتهم الاستعمارية نحو الشرق أدركوا أن التعاون مع الأحباش يساعدهم على إدراك غايتهم، فما كان منهم إلا أن أرسلوا بعثة إلى عاصمة ملك الحبشة والتى مكانها أديس أبابا الحالية فى سنة ١٥٢٠ وظلت هناك إلى أن غادرتها فى سنة ١٥٢٧م(١).

وهكذا كان الموقف فى أوائل القرن السادس عشر الميلادى، فى سنة ١٥١٦م قتل الأمير محفوظ أمير عدل الذى هاجم الأحباش فما كان من الملك لبنى دنجل أن اجتاح السلطنة وأعمل فيها النهب والسلب والقتل وخيل إليه أن الخطر من ناحية المسلمين قد زال نهائيا (٢).

وتجدر بنا الإشارة إلى حقيقة أخرى مهمة وهى أن هذه الهزيمة لم تكن قاضية مثل الهزائم السابقة إذ سرعان ما استعادت السلطنة قوتها وأخذ دور هرر فى الظهور على مسرح الأحداث بصورة أكبر وأوضح وأعمق أثرا على الحبشة كلها .

ولكى نستطيع أن نتبين طبيعة هذا الدور واتجاهاته يحسن بنا أن نستعرض القوى الإسلامية والأجنبية فى مستهل هذا القرن والتى كان لها دور بارز فى هذا الصراع المقبل، *وأول ما يطالعنا فى استعراض هذه القوى هو أن التوسع الإسلامى الصومالى صوب المناطق* الداخلية قد بلغ الذروة وأوغل كثيرا صوب الغرب فى الهضبة الحبشية .

أما القوى الخارجية فقد تمثلت فى ظهور الأتراك المسلمين على مسرح الأحداث لمساندة الجيوش الإسلامية وظهور البرتغاليين على شواطئ المحيط الهندى لمساعدة الأحباش فى أدوار الصراع المقبل .

ظهور الأتراك والبرتغاليين على مسرح الأحداث فى البحر الأحمر والمحيط الهندى :

استمرت العلاقات بين مملكة الحبشة والدولة المملوكية فى مصر يتخللها فترات من التوتر بينهما نتيجة للحروب التى كان يشنها ملوك الأحباش على مسلمى الصومال حتى عام ١٥١٧م عندما أغار الأتراك العثمانيون على مصر واستولوا عليها .

1- Trimingham : op. cit ., p. 77 .

راشد البراوى: الصومال الكبير حقيقته وهدفه، ص٢١ .

٣- حسن أحمد محمود : مرجع سابق، ص٤٥٠ .

وإذا نظرنا إلى ظروف الدولة المملوكية قبل وصول الأتراك وصراعها مع البرتغاليين عند وصولهم إلى المحيط الهندى لعرفنا كيف بدأ الصراع على تجارة الشرق ؛ إذ بوصول البرتغاليين إلى المحيط الهندى اضطرت الودلة المملوكية للدفاع عن مصالحها ضد تحويل تجارة الهند والشرق الأقصى إلى رأس الرجاء الصالح وأوروبا الغربية (١).

ولم يلبث البرتغاليون أن أغاروا على الأسطول المصرى فى المحيط الهندى ودمروه وعندما خلا لهم المسرح من القوة الإسلامية أغاروا على البحر الأحمر وهددوا المقدسات الإسلامية ، ولذلك اضطر السلطان الغورى لمواصلة الحرب ضدهم رغم تدمير الأسطول المصرى والعمل على إنشاء أسطول جديد يواجه به أسطول البرتغاليين .

واستمر الصراع بينهما بأن أرسل الأسطول المصرى الثانى بعد إنشائه متوجها إلى الهند حتى سقطت الدولة المملوكية فى يد الأتراك وآلت إلى الأتراك مسئولية حماية المقدسات الإسلامية ومحاولة منع البرتغاليين من تحويل طريق التجارة . .

وهنا يجدر بنا أن نشير إلى أنه أصبحت هناك قوتان كبيرتان تواجه كل منهما الأخرى فى محاولة السيطرة على طريق التجارة على الشواطئ التى تقع على البحر الأحمر والمحيط الهندى لتكون لأسطولها قواعد يخرج منها إلى عرض البحر وهم الأتراك العثمانيون والبرتغاليون الأوربيون (٢).

ونتيجة لسياسة الأتراك التوسعية سيطرت قواتهم على باب المندب وجزيرة هرمز فى المحيط الهندى، وبدأ الاحتكاك بدولة الحبشة والأمراء المسلمين فى الصومال وبدأت الدولة الحبشية تشعر بالخوف من قوة الأتراك وأطماعهم فى السيطرة على مدخل البحر الأحمر والمحيط الهندى وتغلغل نفوذها فى الإمارات الإسلامية وخوفها من إثارتها ونشوب الحرب مرة أخرى بعد الهدوء الذى كان يسود العلاقات معها (٣).

وعمل الأتراك على تنفيذ مخططهم فعززوا أسطولهم فى البحر الأحمر والمحيط الهندى واستطاعوا الاستيلاء على زيلع وأصبحت ميناء وقاعدة لأسطولهم وتطلعت أبصارهم إلى القضاء على النفوذ البرتغالى وعلاقتهم بالأحباش ، فما كان منهم إلا أن يبحثوا هم الآخرين

1- Cornwallis : op. cit., p. 233 .

٢- محمد صبرى: مصر فى أفريقيا الشرقية ، ص٢٣ .

3- Cornwallis : op. cit ., p. 233 .

على حليف آخر يساعدهم على تحقيق أغراضهم فلم يجدوا خيرا من إخوانهم فى الدين من مسلمى الصومال (١).

هذا عن دور الأتراك وظهورهم على مسرح الحوادث بين الصوماليين والأحباش أما البرتغاليين فلهم قصة أخرى يحسن بنا أن نسردها هنا لمتابعة دورهم الذى سيأتى بعد ذلك فى الصراع الكبير بينهم متضامنين مع الأحباش ضد الإمام أحمد.

إذا استعرضنا الظروف التى ظهر فيها البرتغاليون كمستعمرين جدد نجد أنهم أول من فكر فى الرحلات والاستكشاف من الأوربيين وخاصة بالنسبة للشرق . إذ كان المحيط الهندى مجهولا بالنسبة لهم وكان النشاط التجارى فى المحيط الهندى والبحر الأحمر يكاد يكون حكرا على العرب والهنود (٢).

هذا عن الأوربيين عموما والبرتغاليين خاصة، أما بالنسبة للأحباش فقد كانت الحبشة على صلة دائمة بالشرق الأقصى والشرق الإسلامى من ناحية أخرى، وكانت أخبارها ومواردها وموقعها معروفا لدى العرب من ناحية أخرى، أما الأوربيين فلم يكونوا على علم بموقعها تماما إلا بعض المعلومات البسيطة المشوهة الخالية من الصحة (٣).

ومن هذه الأنباء المتواترة من أفواه التجار العرب الذين كانوا يتجاورون مع الأوربيين فى البحر المتوسط، تألفت قصة القس حنا الذى ذكرت أساطير العصور الوسطى أنه كان المسيطر على الشرق ويتخذ عاصمته فى الهند وما زالت هذه الأساطير تروى ويدخلها التحوير والتطوير إلى أن انتهت إلى أنه هو الملك المسيحى الذى يحكم بلاد الحبشة الواقعة جنوب مصر(٤).

كما وصلت بعثة المستكشفين الذين أوفدهم هنري الملاح ملك البرتغال إلى ساحل أفريقيا الشرقى للكشف عن طريق بحرى مأمون بين لشبونه وسواحل الهند الشرقية، ترامى

١- حسن ابراهيم حسن : مرجع سابق، ص١٢١ .

2- Trimingham: op. cit., p. 77 .

أنظر أيضا : جلال يحيى : مرجع سابق، ص١١ .

3- Augustus : op. cit., p. 18 .

٤- زاهر رياض : تاريخ أثيوبيا ، ص٩٣ . وأنظر أيضا : أثيوبيا ، ص١٦ .

إلى أسماعهم خبر وجود ملك مسيحى عظيم يسيطر على الأراضى الواقعة جنوب مصر ، ويدعى القس يوحنا ، فبدى لملك البرتغال أن يعقد معاهدة مع هذا الملك المسيحى.

وكان أن أرسل ملك البرتغال بعثة إلى ملك الحبشة على رأسها الرحالة بارتلمبو دياز لعقد اتصال بحرى مباشر بين البرتغال والهند عن طريق الساحل الشرقى لأفريقيا وكان من أعضاء هذه البعثة رحالة يدعى بدرو دى كوبلهام والذى تمكن من الدخول إلى الأراضى الحبشية والمثول بين يدى الملك، فلما قابله الملك وعرف عن بلاده كل شئ أصر الملك على عدم عودته إلى بلاده مرة أخرى حتى يستطيع الاستفادة بخبرته الكبيرة وقضى ثلاثين عاما فى الحبشة ومات فيها(١).

ويبدو بعد ذلك من الأخبار التى وردت فى كتب التاريخ أن البرتغاليين بعد أن نجحوا فى الوصول إلى الطريق البحرى إلى الهند، قل اهتمامهم بالقس يوحنا لعدة سنوات ، ثم عادوا فتحالفوا معه كى يأمنوا شر الدول الإسلامية التى كانت تطل على خليج عدن والخليج الفارسى والتى كان أهلها يشنون الغارات على السفن البرتغالية التجارية(٢).

وحينما اشتدت المعارك بين المسلمين والأحباش على عهد الملكة الأم هيلانه ، والتى كانت تربى ابنها الملك الصغير لبنى دنجل لحين استطاعته تولى الحكم ، ازداد ضغط المسلمين على الأحباش وأصبحت انتصاراتهم تمثل خطورة على المملكة أدركت هذه الملكة أن الصوماليين بدأت تزداد قوتهم ويزداد اتحادهم وأنهم بهذا الاتحاد وبايمانهم العميق لابد وأن يجروا الخراب على الحبشة ويحولوا أهلها إلى الإسلام إن أمكنهم ذلك(٣).

ومما ساعد على تلك الانتصارات أن بعض قواد الجيش الحبشى بدأوا فى التنافس والانقسام الداخلى (٤)، ولما أدركت الملكة بثاقب بصرها عواقب تلك الأمور وما يمكن أن تؤدى إليه من نتائج سيئة ، أسرعت بكتابة رسالة إلى الملك عمانويل ملك البرتغال تطلب فيه المعونة(٥).

1- Trimingham : op. cit., p. 78 .

٢- أمين شاكر : أضواء على أثيوبيا ، ص٦٣ .

3- Cammerer : op. cit., p. 8 .

4- Trimingham : op. cit ., p. 82 , 83 .

5- A Lvares : op. cit., p. 270 .

وجاء فى نص الرسالة إلى ملك البرتغال ما يلى : « بسم الله والسلام على عمانويل سيد البحر وقاهر المسلمين القساه الكفرة ، تحياتى إليكم ودعواتى لكم . لقد وصل إلى أسماعنا أن سلطان مصر جهز جيشا ضخما ليضرب قواتكم متأثرا من الهزائم التى ألحقها به قوادكم فى الهند، ونحن على استعداد لمتابعة الكرة بارسال أكبر عدد من جنودنا إلى البحر الأحمر . وإلى مكة وإلى جزيرة باب المندب إذا أردتم تسييرها[٢] إلى جدة أو الطور وذلك لتقضى قضاء تاما على جرثومة الكفرة، ولعله قد آن الوقت لتحقيق النبوءة القائلة بظهور ملك مسيحى يستطيع فى وقت قصير أن يبدد الأمم الإسلامية المتبربرة ، ولما كانت مملكتنا فى الداخل وبعيدة عن البحر الذى ليس فيه قوة أو سلطان ، فإن الاتفاق معكم ضرورى إذ أنكم أهل بأس شديد فى الحروب البحرية »[٣].

وهكذا فإننا نجد فى رسالة هذه الملكة وبين سطورها اعتراف صريح بأن الحبشة دولة داخلية ليست لها حدود بحرية ، وأنها تسعى للسيطرة على الحدود البحرية وضمها إليها بفضل المساعدة التى سيقدمها لها مسيحيو أوربا، ولكن الملكة هيلانه ماتت متأثرة بالهزائم التى حققها القواد المسلمون على قواتها دون أن تصلها المساعدة المطلوبة من البرتغاليين.

ولكن موت الملكة الأم لم يمنع المساعى من الوصول مع البرتغاليين إلى اتفاق حول المساعدات المطلوبة إذ أن هذه المساعى نجحت بعد ذلك فى عقد معاهدة بعد أن أرسل الملك الشاب لبنى دنجل إلى بلاد البرتغال سنة ١٥٢٠م، وحضر إليه على رأس السفارة البرتغالية الرحالة فرانشكو دياز الذى انتهز فرصة وجوده بين الأحباش ووضع كتابا ضخما فى وصف بلادهم وعاداتهم وتقاليدهم . يعتبر أول مرجع للباحث فى ظروف البلد فى تلك الفترة الهامة[٣].

وكان من النتائج المتوقعة لهذا التحالف الجديد، أن بدأ البرتغاليون فى تنفيذ ما نص عليه الاتفاق بتقديم المساعدة للأحباش ، وذلك أن بدأوا بالإغارة على سواحل البحر الأحمر ومنها السويس، ثم نزلوا فى ميناء مصوع بأربعمائة جندى بقيادة كريستوف ابن الرحالة المشهور

1- Cammerer : op. cit., p. 8 .

2- A Lvares : op. cit., p. 266 .

وأنظر أيضا : أمين شاكر : مرجع سابق، ص٦٤ .

٣- أمين شاكر : مرجع سابق، ص٨١ .

فاسكو دى جاما ، ولكن الملك الحبشى لبنى دنجل وافاه الأجل فى تلك الأثناء وخلفه على عرش الحبشة ابنه جلاوديوس الذى استقر فى ملكه فى الأجزاء الجنوبية بعيدا عن متناول الجيوش الإسلامية .

وإلى هنا نكون قد استعرضنا ظروف العلاقات بين الأحباش والدولة المملوكية وكذلك ظهور البرتغاليين واحتكاكهم بالأتراك وبالإمارات الإسلامية .. ومساعدتهم للأحباش وأصبح المحيط الهندى والبحر الأحمر مسرحا للأحداث التى شارك فى صنعها الأتراك ومن ورائهم مسلمو الصومال من ناحية، والبرتغاليون ومن ورائهم مسيحيو الحبشة من ناحية أخرى . وبذلك أصبح ظهور الإمام أحمد آنذاك عاملا مهما فى تغيير صورة الصراع إلى دور جديد يختلف كل الاختلاف من الصراع السابق فى نتائجه وظروفه .

١- أمين شاكر : مرجع سابق، ص٨١ .

الباب الثانى

- نشأة الامام أحمد بن ابراهيم .
- جهاده فى سبيل الله والوطن .
- ظهور الإمام أحمد على مسرح الأحداث .
- العمل على توحيد الجبهة الداخلية للمسلمين .
- تحرير الأراضى الصومالية :

غزو التجمعات والمقاطعات المسيحية .

الاتصال بالأتراك وإمداده بالأسلحة .

انتصاراته والنتائج التى ترتبت على ذلك مع ظهور البرتغاليين

حركة الإمام وأثرها فى انتشار الإسلام بين جموع الشعب المسيحى

الإمام أحمد بن إبراهيم وجهاده

بعد أن استعرضنا في الباب الأول ظروف نشأة الإمارات الإسلامية وتطور نموها الاجتماعي والاقتصادي والعسكري وعلاقاتها بالحبشة والدول الإسلامية خاصة في عهد المماليك والأتراك من بعدهم ، وبعد أن اتضحت أمامنا معالم مسرح الأحداث كاملة، فإننا نتعرض لظروف نشأة الإمام وعمله على توحيد الجبهة الداخلية واتصالاته بالأتراك ، والنتائج التي ترتبت على ذلك مع المعارك التي خاضها ضد الأحباش وأثرها المباشر على المسلمين وعليهم .

وقبل أن نبدأ في استعراض ظروف نشأة الإمام أحمد يجدر بنا أن نوضح أن الفترة التي كانت تمر بها الإمارات العربية في أوائل القرن السادس عشر تميزت بظواهر ثلاث هي :

أولا : انتقال الزمام من أيدي سلاطين إمارة عدل التقليديين الذين جنحوا إلى السلم إلى طائفة جديدة من الأمراء كانت تحب الجهاد واتخذت لقب الإمام مع محاولة نشر الإسلام على نطاق واسع .

ثانيا : سيطرة الدعاة والفقهاء على حياة الناس مما يعني غلبة الطابع الديني على الحياة آنذاك .

ثالثا : دخول الشعوب البدوية ميدان المعركة الإسلامية بعد أن اعتنقت الإسلام في النصف الأول من القرن السادس عشر وذلك بإسلام الدناقل والصوماليين[١].

هذه العناصر الثلاث ستخرج الجهاد من سلبيته القديمة إلى حركة دافقه ضخمة تندفع كالسيل الجارف نحو قلب الحبشة . ولم يعد الجهاد وقفا على السلاطين مرتهنا بإشارتهم محققا لمطامعهم وأهدافهم ، فقد أثبتت الأحداث السابقة أن سلاطين المسلمين لم يكونوا أمناء على هذا الجهاد .

ويبدو من الكتابات التاريخية أن السلطان انتقل إلى طائفة من رجال الدين علت كلمتهم وارتفع شأنهم في الفترة الأخيرة من تاريخ عدل، فقد ظهرت طائفة جديدة من الأمراء المسلمين متخذة لقب إمام وتفرغت للحرب والجهاد مما يدل على أن حركة دينية عميقة الجذور أخذت في الظهور آنذاك وأصبح هؤلاء الأئمة يشرفون على سياسة الجهاد ويجندون لها الأنصار من القبائل الصومالية [٢].

١– حسن أحمد محمود : انتشار الإسلام والثقافة العربية في أفريقيا . الجزء الأول، ص٤٦٠ .

٢– حسن أحمد محمود : مرجع سابق، ص٤٦١ .

وكان هذا الطراز من الأمراء الدينيين أكثر ملاءمة لروح العصر وأقدر على إلهاب مشاعر الجماهير ، إذ كان هؤلاء يمثلون الحركة الإسلامية الشعبية الدافقة.

وثمة حقيقة أخرى أكثر وضوحا وهى أن سلاطين عدل كانوا يمثلون السلطة الإسمية التى تستمد وجودها من ملك قديم يؤيدهم طائفة من الأرستقراطيين تهتم بالتجارة أكثر من اهتمامها بالجهاد وتدفع السلاطين دفعا نحو مسالمة الأحباش والتفاهم معهم .

هذا التطور فى نظام الحكم فى الإمارات الإسلامية يصوره عرب فقيه فى كتابه بقوله : «إنه لم يكن هؤلاء الأئمة ينصاعون لرغبة السلاطين إنما كان بيدهم إعلان الجهاد عندما يريدون ، فقد كانت بأيديهم القوة الحقيقية فى البلاد منذ أواخر القرن الخامس عشر[١].

والجدير بالذكر أن الإمام أحمد بن إبراهيم موضوع بحثنا هذا كان أعظم هؤلاء الأئمة وأبقاهم أثرا وهو صاحب الفتح العظيم لبلاد الحبشة .

وبالتالى فإن دور الأئمة هذا يمثل نمو الحركة الإسلامية نموا عظيما بعد نحو أربعة قرون من التطور نحو الحركة العلمية إلى أبعد الحدود، واتصال هذه الإمارات الإسلامية بالأوطان الإسلامية الأخرى [٢].

ولانستطيع أن ننسى أو ننكر أن الفضل يرجع لهؤلاء الفقهاء فى إسلام قبائل البدو وانضمامهم إلى الحركة الإسلامية.

وكان هؤلاء الأئمة كذلك وراء الناس والجماهير الإسلامية يؤيدونهم فى مطالبهم الاجتماعية ويشدون أزرهم ويدفعون الناس إلى الجهاد دفعا وقد شاركوا جهاد الإمام أحمد يحرضون على القتال ويشدون ازر المجاهدين فى المعارك[٣].

هذا عن المسلمين فى الصومال وأمرائهم وسلاطينهم ، أما عن الأحباش أنفسهم فقد كانوا يعملون بكل قوتهم على ألا تظهر أى قوة إسلامية تهدد المملكة وتقضى على سيطرتهم على هذه الإمارات المتفرقة ، وكانوا يعملون دائما على اخضاع هذه الإمارات المتفرقة، وكانوا

١- المقريزى : مصدر سابق، ص٦ .

٢- حسن أحمد محمود: مرجع سابق، ص٤٦٠ .

3- Trimingham : op. cit., p. 66 .

يعملون دائما على اخضاع هذه الإمارات وأخذ الجزية والسيطرة على أمرائها وجيوشها حتى لاتزيد قوتهم ويهاجمونهم [1].

والحقيقة التى نستطيع أن نؤكدها هنا أن أغلب الإمارات كانت تؤدى الجزية لملك الحبشة ، ولقد كان على مسلمى هديه أن يدفعوا جزية أخرى للملك وهى أن يعطوه فى كل سنة بنتًا مسلمة ينصرها ويتزوجها وكانت هذه العادة تحكمها معاهدة كانت تحكم معاملاتهم ، إذ أنه كما ذكرنا سابقا كان أقوى منهم بكثير ثم إنه كان يحكم عليهم ألا يلبسوا عدة الحرب وينظموا القوات وإنما كانت هذه القوات البسيطة لحماية الأمن فقط[2].

هذا عن الظروف التى كانت سائدة فى أوائل القرن السادس عشر والتى عاصرها الإمام أحمد وأثرت فيه الأحداث التى مرت بها الإمارات الإسلامية.

وعن حياة الإمام أحمد بن ابراهيم الشخصية فلم يحدثنا التاريخ عنها بشئ إذ أن نشأته المبكرة مجهولة ولايعرف عنه إلا ما رواه هو عن نفسه من أنه كان ابنا لأحد قساوسة بلدة ايجو المسيحية الحبشية ، وكان قد ترك موطنه إلى بلدة عدل إحدى بلاد أوفات .

ومن المعروف عن الإمام أحمد براعته فى الفنون العسكرية وشجاعته ، ولابد أنه دخل فى خدمة أحد الأمراء المسلمين فتعلم فنون الحرب والفروسية وأجادهما وبرز بين صفوف المحاربين المسلمين [3].

وجاء كذلك فى أقوال الرواة الذين عاصروا الإمام أحمد أنه روى عن نفسه أنه كان إبنًا لأحد القساوسة المسيحيين فى بلدة ايجو . وكان قد ترك موطنه واعتنق الإسلام فى عدل .

ولما قام الإمام أحمد بعد ذلك بحروبه الكبرى انضم إلى جيشه كثير من زعماء الحبشة مع أتباعهم الذين أتيحت لهم الفرصة لإعلان إسلامهم ، كما رضى كثير من سكان الأقاليم التى فتحها الإمام أحمد بدفع الجزية والبقاء على دينهم، وقد استغل زعماء المسيحيين الذين أسلموا نفوذهم فى تحويل جيوشهم إلى الإسلام[4].

١- حسن أحمد محمود : مرجع سابق، ص٤٦٢ .

٢- توماس ارنولد : الدعوة إلى الإسلام، ص١٠٢ .

3- Cammerer : La mer Rouge. Paris, 1947, p. 14 .

أنظر أيضا : زاهر رياض : الإسلام فى أثوبيا ، ص١٩٥ .

٤- عبد الرحمن زكى: الاسلام والمسلمون فى شرق أفريقيا، ص٤٩ ، وأنظر أيضا : عبد المجيد عابدين : بين الحبشة والعرب، ص١٩٢ .

أما الإقليم الذى نشأ فيه أحمد فهو اقليم هوبت شمال هرر وقد تزوج دولنبره بنت الأمير محفوظ حاكم زيلع، وبعد ذلك دانت له دولة عدل وكان أتباعه يسمونه الإمام لأنهم كانوا ينظرون لحروبهم مع الحبشة على أنها جهاد دينى [٢].

وقد ولد الإمام أحمد بن إبراهيم والملقب بأحمد جرى أي الأعسر فى مدينة هوبت لعام ٩٠٨هـ / ١٥٠٠م من أب وأم صوماليين من كرام العائلات بمقاطعة هرر . وعندما شب عن الطوق اختار له والده صديقا ليرافقه فى حياته هو صديق الطفولة عدولى الذى نشأ معه كأخ شقيق ، فأصبح الصديق الوفى له ثم زميله فى الكفاح فيما بعد ومن كبار دعاة الإسلام ومن قواده البارزين فى شرق أفريقيا[٣].

هذا ما ذكره المؤرخين عن حياة الإمام أحمد وقد لقب بالقرين أو الأشول لعسر يده وقد جاء على لسان المؤرخين أنه قضى جزءاً من حياته متنقلا بين قلديس وهرر [٤].

وقد سجل المؤرخ العربى شهاب الدين عبد القادر والملقب بعرب فقيه سيرة الإمام أحمد منذ نشأته إلى أن وافته المنية فى آخر معاركه فى كتاب عظيم من جزئين باسم «فتوح الحبشة» .. وهذا الكتاب يمثل فى حد ذاته ثروة كبيرة فى التاريخ الصومالى والحبشى على حد سواء وقد استعنت به فى هذا البحث وخاصة فى سير أحداث المعارك والحروب بين الإمام أحمد والأحباش.

هذا عن المكان الذى ولد فيه الإمام أحمد وعاش فيه طفولته ، أما فترة الشباب فقد تميزت بالفروسية والبراعة فى القتال وفنونه، فقد شب الإمام فأحس بما يعانيه إخوانه المسلمون من الاضطهاد وتفتت وحدتهم الإسلامية التى نادى بها الرسول صلى الله عليه وسلم وتفشى الفساد متمثلا فى البعد عن أحكام الدين وانتشار الرشوة والظلم[٤].

١- عبد المنعم عبد الحليم : الجمهورية الصومالية ، ص١٣ . وأنظر أيضا : حسن محمد جوهر : أثيوبيا ، ص٦٣ .

٢- حمدى السيد سالم : الصومال قديما وحديثا ، ج١ ، ص٣٧٥ .

3- Cammerer : op. cit., p. 14 .

أنظر أيضا حمدى السيد سالم : مرجع سابق، ص٣٧٦ .

4- Cammerer : op. cit., p. 15 .

وقد بدأ الإمام أحمد حياته العملية بالانتساب إلى أسرة الإمام محفوظ فتزوج ابنته فكسب تأييد أنصار الأمير ، ولما نشبت المعارك بين السلطان أبى بكر والمجاهد ابون نزح الإمام إلى مسقط رأسه هوبت يجمع الأنصار ويرتب المجاهدين [1].

ويجدر بنا أن نشير هنا إلى أن السلطان أبا بكر هذا كان سلطانا فاسدا ويريد أن يفرض سيطرته على باقى الإمارات الإسلامية الصغيرة ، لابقصد توحيدها وإنما طمعا فى السلطان وطمعا فى إذلال شعوبها ؛ فكان أن تصدى له القائد الشجاع أبون ونشبت المعارك وعلى أثر ذلك انضم الإمام أحمد إلى القائد أبون واشترك فى القتال .

ومن الحقائق المعروفة عن الإمام أحمد أنه فى بدء حياته العسكرية كان قد تلقى دروسًا فى الفروسية والرياضة من أبناء عمومته ؛ فشب مكتمل الصحة بارعا فى قذف السهام، فارسا لاينافسه أحد جريئًا فى الحق، متفانيا فى خدمته ، كذلك كان من صفاته التفوق على زملائه بذكائه الخارق وادراكه السريع وحيويته الدافقة .

غير أن الإمام أحمد لم يستقر به المقام بعد ذلك فى زيلع طويلا بسبب المشاحنات على خلافة الحكم، وانتشار روح التعصب فى بعض نواحيها ولذلك آثر أن يعود إلى موطنه هرر وهى موطن آبائه وأجداده حيث الفقهاء والعلماء فى كل العلوم الإسلامية من تشريع وتفسير، وحيث تكتظ المكتبة العربية بالكتب العلمية والأدبية والمخطوطات النادرة ، فما كان منه إلا أن عاد إلى هرر ليشبع فى نفسه الرغبة فى الاستزادة من العلم والدين [2].

وهكذا فإنه بعد سنوات قليلة من التحصيل والدراسة صار شيخا عالما رغم صغر سنه وحداثته .

وكان الإمام أحمد فى الفترة القصيرة التى قضاها فى هرر قد قام بدراسة العلوم الإنسانية على يد علمائها ، واتصل بكثير من العلماء ورجال الدين البارزين الذين سافروا ودرسوا فى الخارج فى البلاد الإسلامية الأخرى، ولذلك فإنه سمع الكثير عن ظروف المسلمين خارج وداخل أرض الصومال فكان هذا راجعا إلى استزادته من قراءة كتب السيرة والتفسير وحفظ ما شاء من القرآن وأحاديث الرسول عليه الصلاة والسلام.

1- Ibid. p. 15 .

أنظر أيضا : حسن أحمد محمود: مرجع سابق، ص٤٦٣ .

٢- حمدى السيد سالم: مرجع سابق، ص٣٧٦ .

وهذا كله يرينا أن الإمام أحمد قد تثقف فى شبابه ثقافة دينية غزيرة وكان يضيق بما يراه من ضعف المسلمين وتفرق كلمتهم واستشراء داء الظلم وعدوان الأحباش عليهم باستمرار ، فتاقت نفسه إلى الجهاد وتزعمه وكأنما ادخرته العناية الإلهية واستجابت لدعائه بجمع كلمة المسلمين لإنقاذ المجتمع الإسلامى مما أصابه من ضعف وتخاذل .

وفى ذلك الوقت الذى بدأ فيه نشاطه فى الظهور كان يعمل تحت قيادة القائد (الجراد أبون) وكان هذا القائد ذا رأى وعقل ومشورة ويحب الإمام أحمد كثيرا لما رآه من تقواه وصلاحه وشجاعته فى الحرب (١).

وكان الجراد أبون بدوره يعمل تحت أمر ملك الحبشة وطاعته ، وكان الملك الحبشى لينى دنجل قد أصدر تعليماته إليه لمحاربة السلطان أبى بكر محمد ابن آذر سلطان أوفات وذلك حينما جمع حوله عدداً كبيراً من الصوماليين وقطّاع الطرق وعاث فى شرق البلاد فسادا ، وكان أن نجح الجيش فى القضاء على هؤلاء المفسدين ، وسلم السلطان أبوبكر محمد بن آذر نفسه، وبعد قتل اجراد أبون فى المعارك التى دارت بينهما نصّب الإمام أحمد قائدا مكانه مكافأة له على ولائه وشجاعته وأصبح بالتالى حاكما على هرر لأول مرة .

عرف الإمام أحمد بن ابراهيم دائماً بشدة تدينه وتقواه حتى لقد لقب بالإمام فأحبه الشعب على اختلاف طبقاته وأصبح بالتالى قبلة الأمراء المسلمين فى الإمارات وكذلك الحكام المسلمين فى الجزيرة العربية ومصر . كذلك رحب به الأتراك الذين كانت أساطيلهم فى ذلك الوقت تغزو المحيط الهندى وسيطرت على سواحل البحر الأحمر(٢).

وكان لهذا الاتصال بعد ذلك أثره الكبير فى قيام الحرب بين الإمام أحمد والأحباش والتى سيرد ذكرها فى الأبواب التالية التى تتناول هذه الحرب من الناحية العسكرية وما صاحبها من ظروف .

وسبب إطلاق لقب الإمام على أحمد بن إبراهيم هو ما جاء على لسان عرب فقيه فى كتابه فتوح الحبشة بقوله : «حدثنى من أثق به على بن صلاح الجبلى وأحمد بن ظاهر الرعوى أنهما سمعا رجلا يسمى سعد بن يونس العرجى يقول:

١- زاهر رياض : تاريخ أثيوبيا ، ص٩٣ .

2- Cammerer : op. cit ., p. 16 .

«بينما أنا راقد ذات ليلة رأيت النبى صلى الله عليه وسلم وعن يمينه أبا بكر الصديق وعلى يساره عمر بن الخطاب وبين يديه على بن أبى طالب كرم الله وجهه– الإمام أحمد بن ابراهيم – فقلت يا رسول الله من هذا الرجل ؟ فقال صلى الله عليه وسلم: هذا رجل يصلح الله به بلاد الحبشة»(١).

وقد اتفقت كل المراجع القديمة والحديثة على تلك الرواية . وكان الإمام حينئذ جنديًا ولم يكن الرائى يعرفه من قبل ، وكان هذا الرائي قد وصل إلى هرر زمن الجراد أبون فقص رؤياه على أهل البلد . فقالوا له هذا الذى رأيته فى منامك ؟ فقال لا . فلم يزل يتولى أمر البلاد أميرًا إلى أن جاء الرائى فى زمن الإمام أحمد بن ابراهيم فلما رآه عرفه ، وقال هذا الذى رأيته فى الرؤيا– وهو بين يدى الإمام على بن أبى طالب فسماه الناس بالإمام.

وقيل كذلك إن بعض المشايخ رأى فى المنام الولى الصالح أحمد بن محمد ابن عبد الواحد القرشى التونسى والشريف الولى أبابكر العيدروسى وهما يقولان لاتسموه السلطان ولا الأمير ولكن سموه إمام المسلمين (٢). وقد تحدث الشيخ ابن أحمد الدهانى المغربى أنه قال : «بينما أنا راقد ذات ليلة من الليالى رأيت رجلين من أولياء الله أحدهما الشيخ أحمد بن محمد بن عبد الواحد القرشى ، والشريف أبوبكر بن الشيخ بن عبدالله العيروسى نفع الله بهما وهما يقولان لاتسموه السلطان ولا الأمير ، ولكن سموه إمام المسلمين . فقال قلت لهم إمام آخر الزمان . فقالا لى نعم ومن كراماته أيضا الكثير»(٣).

أما عن تسمية الإمام أحمد بالجرين أى الأشول أو الأعسر بمعنى آخر ؛ فمن الرواة من يقول أنه كان أعسر اليد، والبعض يقول ذلك عنه لأنه كان يجيد الطعن باليد اليسرى والبعض يرجح أن التسمية جاءت لأنه كان يختار خيرة جنوده من الصوماليين ، وأنهم كانوا فى الميسرة دائما من جيش المسلمين، وإن كان عددهم قليلاً، إلا أنهم صناديد وفرسان بارعون فى فنون القتال.

١– حسن أحمد محمود : مرجع سابق، ص٤٦٤ .

أنظر أيضا : لوثرب ستودارد : حاضر العالم الإسلامى ، ج١ ، ص٣٤٣ .

٢–لوثرب ستودارد : مرجع سابق، ص٣٤٤ .

٣– عرب فقيه : مرجع سابق ، ص١٤ . أنظر أيضا : حمدى السيد سالم : مرجع سابق، ص٣٧٩ .

وهناك صفات أخرى كانت فى شخصية الإمام أحمد وقد جاءت على لسان من عاصره من المسلمين. وكذلك على لسان المؤرخين القدامى وكل كتبهم التى كتبت عن سيرة حياته ، إذ أنه كان من أشد الناس تديّنا وإيمانا برسالته فى الدعوة إلى دين الاسلام مكرسا حياته وماله فى سبيل نشر الدين الإسلامى .

وليس أدل على ذلك من أنه باع حلى نسائه وأثاث بيته وكل ما يملك لشراء السلاح وأدوات الحرب ولتجهيز الدعاة لنشر الإسلام - ضاربا بذلك المثل الأعلى فى الجهاد فى سبيل الله- كذلك اشتهر الإمام أحمد بتسامحه مع من طلب العفو والأمان ؛ ولكنه كان قوى الشكيمه مع الطغاة والفاسدين (١).

هذا بعض ما رواه المؤرخون من صفات الإمام أحمد وأخلاقه ونشأته فى طفولته وشبابه - وهى روايات قليلة ومحددة - وتفاصيل حياة الإمام أحمد الشخصية لم تعرف كاملة وما عرف عنها لايتعدى ما رواه هو عن نفسه . أما عن صفاته الجسدية وملامحه الشخصية فلم ترد فى روايات المؤرخين ، إلا أنهم اتفقوا على أنه قوى البنية ومحارب شجاع ليس له نظير .

جهاد الإمام أحمد فى سبيل الله والوطن:

ظهور الإمام أحمد بن ابراهيم على مسرح الأحداث :

فى هذا الفصل نتناول بدء تطورات الأحداث التى أدت فيما بعد إلى ظهور شخصية الإمام أحمد على مسرح الأحداث فى كل من بلاد الصومال والحبشة وبدء تحرير الأراضى الصومالية من حكم الأحباش ، ثم بدء الهجوم على الأراضى الحبشية نفسها وسير المعارك كلها لصالحه . ونتيجة ذلك النصر على الشعب الحبشى وتحول جزء كبير منهم إلى الإسلام . كما نتناول أيضا السياسة التى اتبعها الإمام أحمد حيال ذلك.

عندما تولى العرش الملك الحبشى زرء يعقوب وذلك من سنة ١٤٣١-١٤٦٥م ورأى ما عليه حال البلاد من فوضى حتى عجزت قوات الحكومة عن العمل على استتباب الأمن . ابتدع التنظيم الإدارى الأول فى البلاد الذى لم يعرف من قبل لدى الأحباش، وقد عمل على

١- حسن أحمد محمد : مرجع سابق، ص٤٦٣ .

تنفيذه بكل جهوده رغم الصعوبات التى أقامها فى وجهه ابنه ومن يلوذ به من الأمراء . وكان هذا التنظيم ينحصر فى أن يجعل العاصمة المركز الحقيقى لدولة موحدة قوية، منها تصدر الأوامر إلى جميع أنحاء البلاد فيحملها الرسل إلى حكام أقوياء أقامهم فى مقاطعات الدولة تنحصر مهمتهم فى تلقى أوامر الحكومة وتنفيذها [١].

وقد عبر المقريزى عن هذه التنظيمات بقوله : «وكانت نتيجة هذه التنظيمات وإحكام سيطرته أن تحضرت دولته وقويت شوكته ووسوست إليه الشياطين أن يأخذ ممالك الإسلام فأوقع بمن تحت يده من ممالك الحبشة المسلمين وقائع شنيعة طويلة قتل فيها وسبى واسترق عالما لايحصيه إلا خالقه وزالت دولة المسلمين من هناك»[٢].

ورغبة فى إحكام قبضة الحكام الأحباش المسيحيين على الممالك الإسلامية بعد وفاة الملك زرء يعقوب لجأ حكام الحبشة إلى البحث عن دولة قوية تتحالف معهم[٣] وذلك للقضاء على المخاطر التى تتهددهم بظهور القوى الإسلامية فى البحر الأحمر وهم الأتراك، كما لم يكن أفضل من دولة الحبشة لكى يحالفها الأوربيون ويعتمدون على مساعدتها فى إغلاق المدخل الجنوبى للبحر الأحمر ومنع تجارة الشرق من السير فيه إلى موانئ مصر [٤].

على أن عجز ملوك الحبشة عن التعبير عن حماستهم الصليبية عن طريق صدام مباشر مع مصر ، جعلهم يسلكون طريقا آخر هو النيل من الإمارات الإسلامية التى كانت تسيطر على الثغور البحرية وبخاصة ثغر زيلع ، وقاموا لذلك بحرب ضد أميرها سعد الدين بن محمد ؛ فخرَّ قتيلا بعد جهاد طويل وعندئذ استولى الأحباش على زيلع سنة ١٤٤١م[٥].

استمرت الأحداث هكذا- سيطرة من ملوك الحبشة وقوة كبيرة لسحق أى بادرة من الأمراء المسلمين- ومحاولة إخضاعهم فى كل وقت حتى يأمنوا الثورة عليهم ، حتى ظهر الإمام

١- زاهر رياض : أبحاث من أثيوبيا : بحث بعنوان «أثيوبيا واليمن فى العصور الوسطى» ، ص٢٢٣ .

٢- المقريزى : مصدر سابق، ص٥ .

3- Trimingham : op. cit ., p. 76 .

٤- سعيد عاشور : أضواء جديدة على العلاقات بين مصر والحبشة . المجلة التاريخية ، مجلد ١٤ ، ص٣

٥- سعيد عاشور: مرجع سابق، ص٣١ .

أحمد بن ابراهيم على مسرح الأحداث. وكما ذكرنا سابقا فإن الإمام أحمد فى شبابه كان شخصا مغمورا من عامة الناس الذين عاشوا حياتهم فى ظل الظروف القاسية من طغيان الأمراء المسلمين وتسلط ملوك الأحباش على الشعب المسلم وعلى حكام الإمارات المسلمة(١) .

وكان النتيجة الطبيعية لذلك كله أن امتلأت روحه بالجهاد وأمله فى تحرير المسلمين من سيطرة الأمراء، ونستعير فى هذا المقام كلمات عرب فقيه فى وصف الإمام أحمد فى كتابه بقوله : «أما بعد فانظر فى كتابى المسمى فتوح الحبشة على يد الأعظم الأمجد الهمام الأكرم الأسعد الذى لم يسمع بمثاله ، ولا تلا أحد على منواله ، فأعاد الله علينا وعلى المسلمين من بركاته وأفضاله- الملك والشهاب الزاهر شهاب الدين سلالة السادة المجاهدين أحد الأئمة المهدرين، الفاتح بأمر الله الباذل فى مرضاة سيدنا ومولانا العالى والجناب المحترم أمير المؤمنين السلطان الإمام أحمد بن إبراهيم الغازى المجاهد المرابط رحمه الله تعالى رحمة الأبرار وأسكنه بجواره فى دار القرار بحق محمد المصطفى المختار له وأصحابه الأبرار»(٢).

هذه هى الصفات التى وردت على لسان عرب فقيه والذى عاصر الإمام وشارك فى جهاد، وخاض معه المعارك والحروب والذى كان أول إنسان شاهد الإمام شخصيا وكتب عنه بعد ذلك.

عندما تولى حكم إمارة عدل الأمير منصور بن محفوظ بن محمد ، كان الإمام أحمد بن إبراهيم يومئذ فارسا من فرسان القائد الجراد أبون والذى عرف عنه تقديره لكل من يعمل من أجل وطنه وإخوانه المسلمين، وكان الجراد أبون يحب الإمام أحمد حبا شديداً لما فيه من صفات الشجاعة والبراعة فى الحرب والصدق، والأمانة فى معاملاته مع الناس ولشدة غيرته على الإسلام ؛ فاتخذه صديقا لرجاحة عقله ولما اشتهر به من سداد الرأى فى عمله وحكمه(٣).

وكان الإمام أحمد حتى ذلك الوقت يسير فى خدمة الجراد أبون لما وجده فيه من العمل على خير المسلمين وصدقه ومروئته فى شئون الحكم، لكن تغير الحال بعد ذلك عندما تولى حكم الإمارة السلطان أبوبكر بن محمد بن آزر والذى جاء ذكره على لسان عرب فقيه بقوله : « والذى جمع جموع من الصومال من المفسدين وقطاع الطرق وقابل الجراد أبون واقتتلوا

1- Trimingham : op. cit . p. 85 .

٢- عرب فقيه : مصدر سابق، ص١ .

٣- حمدى السيد سالم : مرجع سابق ، ص٣٧٧ ، وأنظر أيضا لوثرب ستوارد. مرجع سابق ، ص٣٤٢ .

قتالا شديدا وقتل الجراد أبون فى وطنه على بلاده وعياله وقتل شهيدا - رحمه الله - وتولى السلطان أبو بكر البلاد بعد مقتل الجراد أبون وأخرب البلاد وظهر قطاع الطرق، وظهرت الخمور وظهر المنكر ولايُنصَفُ أحد فى زمانه من المظالم وأنكر عليه الأشراف والفقهاء والمشايخ أفعاله»[1].

من هذا يستدل على أن جيش الجراد أبون الذى هزم فى معاركه ضد السلطان كان من ضمن جنوده الإمام أحمد بن ابراهيم الذى شعر بهزيمة الجيش وبقدرة السلطان على أن يقضى على أى حركة إصلاحية يريد أحد الأمراء القيام بها أو أى حركة أخرى يراد بها صالح الشعب الصومالى، ولذلك صمم على مواصلة القتال بعد قتل الجراد أبون [2].

كانت النتيجة الطبيعية لهزيمة هذا الجيش أن أخذ السلطان أبو بكر يعبث بالبلاد مستندا إلى قوته كفرد من العائلة المالكة فى أوفات وإلى جيشه القوى وبلغ به الأمر أن استبد وأخذ يفرض سيطرته على الإمارات الإسلامية الأخرى[3].

وإزاء هذه الهزيمة وقتل قائد الإمام أحمد ، فر ومعه عدد من الجند المخلصين من رفاقه واجتمعوا فى محل يسمى (هويت) وكان عددهم نحو مائة فارس ونصّب الإمام أحمد عليهم قائدًا بدلاً من الجراد وعمرو دين ابنى أخى السلطان مع إعلان ولائهم لملك الحبشة [4].

ونتج عن ذلك التكوين الجديد لهذا العدد من الجند أن قام المسلمون بعدة غارات على الأحباش فى مواقعهم التى كانوا يتحصنون فيها لمراقبة تطور الأمور بين السلطان أبى بكر والجراد عمرو دين وانتصر عليهم الإمام أحمد وجنده . ولكن هذا النصر أغضب السلطان غضبا شديدا إذ وجد فيه منافسا له فى السلطة وثائرا قوى الشكيمة ومن ثم عزم السلطان على أن يقضى عليه فى أول فرصة تسنح له .

١- عرب فقيه : مصدر سابق، ص٧ . أنظر أيضا :

Trimingham : op. cit ., p. 86 .

٢- حمد السيد سالم: مرجع سابق، ص٣٧٧ .

3- Trimingham: op. cit ., p. 85 .

أنظر أيضا : زاهر رياض : أبحاث من أثيوبيا ، بحث رقم (١) ، ص٢٢٤ .

٤- لوثرب ستودارد : مرجع سابق، ص٣٤٢ . أنظر أيضا: زاهر رياض :الاسلام فى أثيوبيا ، ص١٩٦ .

وفعلا التقى الجيشان فى مكان يدعى اكوادلى ، وتمكن الإمام أحمد ومن معه من الجند مع قلة اسلحتهم وعددهم البسيط أن يهزموا جيش السلطان ويغنم غنائم كثيرة من السلاح وعدد الحرب والعودة ظافرا [1].

إزاء ذلك طلب السلطان أبو بكر مساعدة الملك الحبشى لبنى دنجل لتحطيم هذا الثائر العنيد بعد أن رفض الخضوع له ، فلم يسع الإمام أحمد إلا أن يحارب السلطان وجيشه وانتصر عليه عدة مرات فى معارك صغيرة متفرقة استطاع أن يغنم منها كثيراً مما ساعده على تزويد رجاله بالسلاح والمال [2].

لكن هذا النصر الذى أحرزه الإمام أحمد لم يمنع السلطان من إرسال جيش آخر لقتال الإمام، يفوق فى العدد والعتاد الجيوش التى حاربها الإمام من قبل، وليس أدل هنا على ذلك المعنى من قول عرب فقيه : «وسمع السلطان أن الإمام فى هوبت فخرج السلطان أبوبكر فى عساكره وفرسانه وساروا إلى قرية الإمام أحمد وأحرق بيوته ونهب أموال المسلمين فسمع الإمام وأصحابه بما يفعل السلطان فى قريته فسار هو وأصحابه بالليل من بلاد هوبت ووصلوا إلى مكان يسمى (جازوا) فهاجمهم السلطان ولكنهم هربوا منه ، وأرسل إليه السلطان بعد ذلك أميرا من أمرائه يسمى (شنيدى) واقتتل هو والإمام أحمد قتالا شديدا وقتل ذلك القائد وأخذ الإمام خيله وأمواله»[3].

ومن الطبيعى بعد ذلك أن لايستريح السلطان إلى وجود الإمام أحمد فى البلاد بعد هذه الانتصارات كلها، لذلك أعاد تكوين جيوشه واستطاع أن يهاجمه وقتل قائد الامام أحمد عمرو دين . وتم على أثر ذلك عقد صلح جديد بين الطرفين رضى فيه الإمام أحمد أن يدخل فى طاعة السلطان ويخضع له كما كان يخضع القائد أبون من قبل[4].

لكن ذلك الصلح لم يدم طويلا إذ اختلف الإمام مع السلطان مرة أخرى وتجددت الحرب بينهما . هذا من ناحية لكن من ناحية أخرى غزا الأحباش بلاد المسلمين وكان عليهم بطريق

١- حمدى السيد سالم : مرجع سابق، ص٣٧٨ .

٢- زاهر رياض : الإسلام فى أثيوبيا ، ص١٩٦ .

٣- عرب فقيه : مصدر سابق، ص١٠ .

٤- زاهر رياض : الإسلام فى أثيوبيا ، ص١٩٦ .

من كبار قوادهم اسمه دلجان وهو صهر الملك وكان ذا بأس شديد فى الحرب فدمر القرى وقتل السكان ، لكن الإمام أحمد تدارك الموقف بسرعة وتوجه إليه بقواته القليلة واستطاع هزيمته ومن معه من الجند الأحباش فى موقعة تسمى (الدير) نسبة إلى البلد التى دارت فيها وانتصر الإمام عليه انتصارا باهرا [1].

ولما علم السلطان أبو بكر بانتصار الإمام أحمد على الأحباش فى موقعة الدير خاف عاقبة ذلك وعول على القضاء على الإمام أحمد نهائيًا . فجمع حوله مرة أخرى جيوشه ليقضى على هذا الثائر قبل أن يقضى عليه .

وقد جاء على لسان عرب فقيه وصف لتلك المعارك بقوله : «فلما علم السلطان أبو بكر بانتصار الإمام أحمد على الأحباش خرج من معسكره من بلده وخلف فى البلاد خمسة من وزرائه – من أهل الرايات– فعلم الإمام أحمد بذلك بخروج السلطان لقتاله فأسرع الإمام بالابتعاد عنه ولكنه التقى بأمير من أمراء السلطان حاملى الرايات ودارت بينهم معركة كبيرة انهزم فيها الأمير الكوشم أبو بكر وأصحابه وعادوا إلى بلدهم هرر ولم يتبعهم أحد من أصحاب الإمام أحمد »[2].

هذا من ناحية السلطان أبو بكر والإمام أحمد، أما من ناحية ملك الحبشة فقد ساءت العلاقات بينه وبين الأمراء المسلمين وذلك نتيجة لعدم قبول الملك الحبشى لبنى دنجل زواج إحدى أميرات البيت المالك من أحد الأمراء المسلمين كما كان العرف يجرى قبل ذلك، وذلك توطيدا للعلاقات بين المملكة والإمارات الإسلامية[2].

والحقيقة أن السبب فى رفض هذا الزواج لم يكن الملك الحبشى بشخصه وإنما أمه التى كانت تحكم المملكة من وراء ابنها الذى تولى العرش وهو صغير، وكانت ذات شخصية قوية متسلطة مكنتها من إدارة دفة أمور البلاد والتأثير عليها [3].

هكذا كانت النتائج التى ترتبت على سوء العلاقات بين الإمارات من ناحية وملك الحبشة من ناحية أخرى . إذ أدى ذلك إلى نشوب الصراع والمعارك بينهما، وبذلك أصبح الإمام أحمد

١- لوثرب ستودارد : مرجع سابق، ص٣٤٤ . انظر أيضا: حسن أحمد محمود: مرجع سابق، ص٤٦٤ .

٢- عرب فقيه : مصدر سابق، ص١١ .

3- Trimingham : op. cit., p. 53 .

بين قوتين متصارعتين وفى نفس الوقت ضده . إذ كانت أمامه قوة السلطان أبو بكر ، وقوة ملك الأحباش الذى دأب على مهاجمة المسلمين وتخريب مدنهم وقراهم كلما سنحت له الفرصة لإضعافها وإضعاف أهلها خوفا من التكتل ضده والثورة عليه بعد ذلك.

هكذا استمر النزاع بالتالى بين الإمام أحمد والسلطان وكثرت المعارك بينهما فسار الإمام إلى مكان يسمى (القرير) واجتمع هناك مع أصحابه وتشاوروا فيما بينهم حول أفضل الخطط لمواجهة جيوش السلطان الكثيرة العدد وأجمعوا على ملاقاته وقتاله، وواصلوا السير إلى المكان الذى عسكر فيه جيش السلطان.

لكن الإمام بنظره الثاقب وجد أن جيوش السلطان متحصنة فى مكان يتيح لها النصر لو اشتبك معهم فى القتال، فطلب من أصحابه عدم الدخول فى المعركة حتى تكون الفرصة أمامهم سانحة للفوز على الجيوش المتحصنة[1].

وبعد ذلك سار الإمام أحمد راجعا إلى فريقه حينما وجد أن الفرصة غير ملائمة لهزيمة جيوش السلطان، فعلم أصحاب السلطان برجوعه وساروا خلفه بعد أن رتبوا جيوشهم لملاحقته، وتم لهم ذلك باللحاق به فى مكان يسمى (شمنجود) حينئذ قفل إليهم الإمام راجعا بجيوشه واقتتل الإثنان قتالا شديدا ، فانهزمت جيوش السلطان وأخذ الأمام أحمد خيولهم وأسلحتهم غنيمة له .

وترتب على ذلك أن عاد الإمام أحمد ومعه جيوشه إلى هرر للراحة بعد ذلك الانتصار الباهر وهناك أقام الحق وأمن الناس على أنفسهم ووفر لهم وسائل العيش الشريف دون خوف من تسلط الحكام عليهم.

وبدأت مرحلة جديدة فى حياة الإمام أحمد ؛ إذ بعد أن استقر فى هرر زاد من نشاطه ، وأصبحت هرر بعد ذلك مركزا لكل غاضب على السلطان، فسار إليه السلطان بجيش قوى مرة أخرى فاضطر الإمام أحمد ازاء ذلك أن يترك هرر مندفعا إلى ابث والتى كانت ذات موقع استراتيجى ممتاز إذ كان بها جبل عظيم، انضم إليه بعد تحصنه فيه الأمير أبو بكر اسماعيل، والأمير حسين الجاترى ومع كل منهما جيشه وسلاحه [2].

١- عرب فقيه : مصدر سابق، ص١٢ .

٢- زاهر رياض : الإسلام فى اثيوبيا ، ص١٩٧ .

أراد الإمام بعد تلك المعارك المتكررة أن يستقر فى بلد تسمى (دعكه) ويتخذها مقرا له يستطيع أن يتحصن فيها وينطلق منها إذا لزم الأمر للقضاء على جيوش السلطان، فوضع عدة تنظيمات تكفل له ولجيوشه الأمان والاستقرار تمهيدا لهزيمة جيوش السلطان ، وطمأن الشعب على أنفسهم وأموالهم فزاد الخير والطمأنينة بين الناس.

لما علم السلطان بذلك ضايقته تلك الإصلاحات التى أمر بها الإمام أحمد والتى عمت البلاد فجمع جيوشه استعدادا للقضاء عليه، وعندما سار إليه وجد الإمام متحصنا فى معاقل حصينة استعد بها من قبل ؛ وخوفا من الهزيمة عاد بدون قتال[1].

لكن الأمير أبا بكر- نسيب السلطان وقائد جيوشه- تحرك للقتال ، فانتصر عليه الإمام أحمد وقرر الهجوم على هرر لاستعادتها ، ووصلته الأخبار بكثرة جيوش السلطان ومناعة تحصيناتها فعاد إلى بلده دون قتال .

وللمرة الثانية يتوسط أهل الخير بين الإمام أحمد والسلطان فيتم إبرام الصلح بينهما، على أن يحكم الإمام أحمد هرر تابعا للسلطان الذى كان بدوره تابعا للإمبراطور الحبشى، إذ أن انتصار الإمام أحمد المتكرر عليه أرغمه على ابرام الصلح معه ما دام ليس قادرا على القضاء عليه[2].

كانت النتيجة الطبيعية لهذه الحروب والمعارك المتواصلة أن عانى الشعب المسلم فى البلاد معاناة عظيمة وضعفت موارد البلاد وكادت تنهار دولة هرر ويقضى عليها، وذلك لأن ملك الحبشة كان يريد انتهاز هذه الفرصة للقضاء عليها كما كان بالتالى يترقب نتيجة هذا الصراع. لكن الإمام أحمد كان منتبها إلى ذلك ومقدرا لعواقب الأمور[3].

ويجدر بنا أن نشير هنا إلى حقيقة واضحة وهى أن رضاء السلطان أبى بكر عن الإمام أحمد بتوليه حكم إمارة هرر يرجع بالضرورة إلى سببين :

السبب الأول : كما ذكرنا سابقا كان هو انتصار جيوش الإمام عليه وعلمه بعدم مقدرته على القضاء عليه .

١- عرب فقيه : مصدر سابق، ص١٣ .

٢- زاهر رياض : الإسلام فى أثيوبيا ، ص١٩٨ .

٣- يوسف أحمد : الإسلام فى الحبشة، ص٣٤ .

السبب الثانى: هو حب الأهالى للإمام أحمد لما لمسوه من شجاعته وإقدامه وأكثر من ذلك ما عرفوه عنه من صلاحه وتقواه وحبه للعدل ورغبته فى الإصلاح- ضربه على أيدى المفسدين - والعمل على استتاب الأمن فى البلاد (١).

لكن هل هذا كله كان مقنعا للسلطان لكى يترك الإمام أحمد يباشر سلطاته وإصلاحاته ؟ لا فقد كان السلطان رغم ذلك ينتهز الفرصة للقضاء على هذا الذى أحبه الناس وجعلوه منافسا له فى سلطانه، غما زال يتصل برجال الإمام أحمد سرا مُمنيًا إياهم بالوعود الكاذبة حتى استطاع أن يستميل الأمير حسين الجاترى أحد قواد الإمام ويشترك فى تدبير مؤامرة مع الأمير عبدالله بن عمرو. ونجح هؤلاء المتآمرون فى القبض على الإمام أحمد تمهيدا لنقله إلى السلطان. لكن الإمام أحمد بذكائه استطاع الفرار منهم وعاد إلى جيوشه وقواده .

عندما حدث ذلك من السلطان أيقن الإمام أحمد أنه لافائدة ترجى من هذا الخائن فصمم على التخلص منه فأرسل له مجموعة من رجاله الأشداء استطاعوا اقتحام مقر حكمه وقتله(٢). وبذلك تخلص الإمام أحمد من الرجل الذى كان يقف حائلا دون استقراره وإصلاحاته التى كان يأمل فى تنفيذها .

هذا عن الظروف التى ظهر فيها الإمام أحمد وسطع فيها اسمه وتعلق الشعب الصومالى به لما قام به من إصلاحات لصالح الشعب ومقاومته للفساد والطغيان الذى كان يمارسه السلطان. بذلك كسب قلوب المسلمين بإخلاصه وتفانيه (٣).

بعد ذلك تأتى المرحلة الثانية التى ميزت القرن السادس عشر وهى مرحلة غزو بلاد الحبشة نفسها . وقد تميزت هذه الحروب بالحماسة البالغة وتجاوزت المنطقة الواقعة على حدود الحبشة إلى الداخل لأول مرة فى التاريخ.

وهنا يجدر بنا أن نشير إلى أنه بعد أن تم للإمام أحمد القضاء على السلطان أعلن الثورة على الملك الحبشى الذى كان يناصر السلطان ضده، كما منع المندوبين من جباية الخراج وأن يحضروا إلى هرر كما منع الناس من أن يدفعوا لهم المطلوب فى الأقاليم . بذلك خرج الإمام

١- زاهر رياض : الإسلام فى أثيوبيا ، ص١٩٨ .

٢- نفس المرجع، ص١٩٩ .

٣- محمد المعتصم : دول إسلاميه فى شرق افريقيا، ص٣٣ .

عن الطاعة وانقلب إلى ثائر عنيد واتخذ له راية مستقلة باسمه وأخذ يتصرف تصرف الحاكم المستقل[1].

بدأ الإمام أحمد بعد ذلك خطوته التالية وهى تحرير باقى الإمارات الإسلامية من حكم الملك الحبشى واستطاع أن يحكم قبضته على الحكم ويمنع الفساد ويقيم العدل ويترفق بالمساكين، ويرحم الصغير ، ويحترم الكبير، ويجتمع بزعماء المسلمين لبحث مشاكلهم [2]، زيادة على ذلك فقد أعطى للفقهاء والعلماء والمشايخ مكانتهم الجديرة بهم .

وقد جاء على لسان عرب فقيه قوله فى ذلك : «.. وأن يكون الناس سواسية فيما بينهم كل منهم على عاداته وأمواله وأولاده وحرم الخمور والمنكر وجعل الحكم شورى بين الناس وقرب الناس إليه من أهل الحل والعقد من الصالحين من أهل البلاد واستعان بهم فى الإدارة والحكم».

وفى تلك الفترة اشتهر الإمام أحمد باسم جرانى أى الأعسر أو الأشول، وقد بدأت حملاته على أراضى الحبشة لتحرير باقى الأراضى الصومالية بعد أن وطد دعائم حكمه، شحذ المسلمون قواهم المادية والمعنوية من ورائه لما لمسوه فيه من الإخلاص وحب الجهاد فى سبيل الله والوطن [3].

إزاء هذا النجاح الذى أحرزه الإمام أحمد فى توليه الحكم فى هرر كانت هناك عقبات كثيرة تعترض طريقه فى توحيد الإمارات الإسلامية ، إذ لم تكن هذه الإمارات منظمة تنظيما دقيقا ولم تكن جيوشها بهذا النظام. كما كان هناك سبب آخر قوى وهو أن حركة المقاومة التى تزعمتها اوفات من قبل ومن بعدها هرر على يد الإمام أحمد منبعثة من شعور إسلامى دافق يغمر الشعب كله ويدفعه إلى القتال عن عقيدة وإيمان .

هذا الشعور العميق بالجهاد لم يتحقق إلا بعد جهد جهيد وذلك بصبر الإمام أحمد وكفاحه من أجل بث الشعور بالعزة والكرامة والغيرة على الدين فى نفوس المسلمين حتى يستطيع الإقدام على غزو بلاد الحبشة ومن ورائه تأييد المسلمين [4].

١- زاهر رياض، الإسلام فى أثوبيا، ص١٩٩ .

٢- لوثرب ستودارد : مرجع سابق، ص٣٤٣ .

٣- عرب فقيه : مصدر سابق، ص١٣ .

4- Cammerer : op. cit., p. 16 .

العمل على توحيد الجبهة الداخلية :

عندما ظهر الإمام أحمد بن إبراهيم على مسرح الأحداث وبدأ الجهاد ضد الأحباش، رأى ضرورة جمع كلمة المسلمين، وقد وجد صعوبة فى ذلك لأن الإمارات لم تكن تجمعها كلمة واحدة ويسودها التفرق والبغضاء والحرب . وقد وصف القلقشندى ضعف الامارات فيما يلى:

«وهذه الممالك السبع ضعيفة البناء، لضعف تركيب أهلها وقلة محصول بلادهم وتسلط الحطى سلطان أمحرا عليهم مع ما بينهم من عداوة الدين بينهم وبين النصارى الأحباش، وهم مع ذلك كلمتهم متفرقة وزادت بينهم بغضاء فاسدة»(١) .

من هذا المنطلق أخذ الإمام أحمد يعمل على جمع شمل الامارات حوله . وكان ببعد نظره يعرف مدى هذا الضعف ، وهذا التفرق الذى كان يجمع حكام هذه الإمارات الذين كانوا يعملون كل لصالحه بغض النظر عن الفائدة التى ستعود على شعوبهم من جمع كلمتهم .

والجدير بالذكر هنا أن هذا الضعف والتفرق كان له أصول بعيدة منذ نشأة الإمارات العربية نفسها إذ كما ذكرت سابقا كان الملك الحبشى يعمل بكل جهده على إضعاف هذه الإمارات حتى لاتكون شوكة فى جانبه .

وكثيرا ما طاف بخيال ملوك الأحباش القضاء على هذه الإمارات نهائيا حتى لاتهددهم فى أي وقت تكون فيه دولتهم على حال من الضعف ، مثال ذلك فى القرن الثانى عشر الميلادى الذى يتفق حدوثه مع الوقت الذى انتكست فيه قوة المسيحيين فى الشرق بعد حملتهم الصليبية الرابعة، طافت بخيال هؤلاء المسيحيين أحلام مجئ ملك الحبشة المسيحى ليعيد إلى المسيحية قوتها فى بيت المقدس(٢).

وهكذا فقد كانت قبضة ملوك الأحباش تشتد على الإمارات أو تضعف حسب ظروف المملكة الحبشية من ضعف أو قوة شخصية الملك المتربع على العرش(٣). أما فى حالة الإمام أحمد وتوليه السلطة فقد كان هذا إيذانا بتطور جديد يطرأ على بلاد الحبشة لأول مرة.

١- القلقشندى: صبح الأعشى ، ج٥ ، ص٣٢٢ .

٢- زاهررياض: أبحاث من أثيوبيا ، بحث رقم (٢)، ص٢٧١ .

٣- محمد المعتصم سيد: مهدى الصومال بطل الثورة ضد الاستعمارة، ص١٢ .

هذا التغيير الجوهرى يتمثل كما ذكرنا سابقا فى ظهور الإمام أحمد ابن إبراهيم على مسرح الأحداث فى إمارة هرر وبدء صراعه على السلطة حتى انتهى بثورته فى نهاية الأمر[1].

وإذا كان الإمام أحمد قد بدأ جهاده قبل أن يتصل به الأتراك كما تذكر كثير من المراجع ، فإن ذلك الجهاد لم يكن موجها فى أول الأمر إلى الملك الحبشى، بل كان موجها فى أول أمره إلى مناهضة فساد السلطان أبو بكر بن محمد بن آزر حيث خرج على الملك وقد وجه إليه الملك جيشا بقيادة الجراد أبون كان من ضمنه الإمام أحمد فارسا من فرسانه [2].

وإذا ما انتهى الأمر بالصلح بين السلطان والملك الحبشى وبدأ النزاع بين الإمام والسلطان نتيجة لالتفاف المسلمين حوله وكان من نتائج ذلك أن حظى الإمام بكثير من التقدير لدى كبار وصغار الشعب . وفى نفس الوقت ، كان الأمير محفوظ يعجب به لشجاعته وتقواه فزوجه ابنته دولتنبره[3] ولقبه الناس فى ذلك الوقت بالإمام، وتشجع الإمام أحمد بعد ذلك وعرفنا ما كان من معارضته للسلطان وانتصاره عليه [4].

توحيد جهود المسلمين :

بانتقال عاصمة دولة عدل إلى مدينة هرر سنة ١٥٢١م، بدأ عهد جديد من التطور فى سياسة الدولة الخارجية وأهدافها بالنسبة للحبشة كان أول عمل اتخذ فى هذا السبيل من قبل الإمام أحمد هو توحيد الدويلات الصغيرة الواقعة على الحدود الشرقية للحبشة . وكان سكانها خليطا من الأحباش ومهاجرى العرب من المسلمين الأوائل .

من هذا استطاع الإمام أحمد أن يكون جبهة قوية متحدة لتكون على أهبة الاستعداد للمرحلة المقبلة فى معاركهم ضد الأحباش، هذه المرحلة التى قاد لواءها ضد الملك وجيوشه الضخمة[5].

١- إبراهيم على طرخان : مصر فى عصر دولة المماليك، ص١٦١ .

٢- زاهر رياض: تاريخ أثيوبيا ، ص٩٤ .

٣- زاهر رياض : أبحاث من أثيوبيا ، بحث رقم (١) ، ص٢٤٤ .

4- Cammerer : La mer Rouge. p. 15 .

٥- محمد المعتصم سيد: مهدى الصومال بطل الثورة ضد الاستعمار، ص١٣ ؛ زاهر رياض : تاريخ أثيوبيا، ص٩٥ .

وفى نفس الوقت الذى حاول الإمام أحمد فيه أن يجمع بقية الأمراء كانت إمارة زيلع قد أصابها الكساد وذلك بعد تحويل طريق التجارة إلى رأس الرجاء الصالح . ومع ذلك ظلت محتفظة بأهميتها كمنتفذ رئيسى لسلع الحبشة وغيرها من السلع الأفريقية، لذلك كانت أول هدف للبرتغاليين عند وصولهم إلى شاطئ الحبشة الشرقى بعد ذلك[1].

وهكذا فإنه بعد هذا النجاح الذى استطاع الإمام أحمد تحقيقه فى جمع شمل الامارات الإسلامية حوله والتفاف قلوب المسلمين فى البلاد لتأييده فى جهاده بدأ الخطوة الثانية فى حربه ضد ملك الحبشة، إذ أخذ فى الاستعداد وتجهيز الجيوش وإنفاق الأموال على السلاح، وقد أخذ فى سبيل ذلك كل ما أخذ إذ قام ببيع حلى نسائه وممتلكاته الخاصة ، وخرج بعد ذلك مع زوجته معلنا الجهاد فى سبيل الله [2].

كانت بداية هذه الأحداث فى عهد الملك لينى دنجل والذى واجه ثورة الإمام الضعيفة فى بدايتها وفى عنفوان قوتها. وتقدم الإمام أحمد محاربا . وكان الملك فى ذلك الوقت من صغر السن بما لم يكن يسمح له بالحرب، وإنما كانت الملكة الأم هيلانه هى القابضة على زمام الأمور وأدركت أن الانتظار لن يكون إلا وبالا على البلاد[3].

هذا عن الملك الحبشى. أما الإمام أحمد فقد اتخذ لنفسه دستورا يطبقه أثناء حربه مع الإمبراطور ألا وهو اتحاد المواطنين بعد أن اطمأن إلى توحيد الجبهات الداخلية نتيجة للجهود التى بذلها من قبل، وأصبح الشعب كله يقف وراءه ويمده بالسلاح والرجال والمال، وأصبحت جيوشه تدخل المعارك بحماسة بالغة ليس لها نظير فى الحروب السابقة ضد الأحباش[4].

بعد ذلك دخل الإمام أحمد فى عدة معارك ضد جيوش الأحباش التى كانت فى مواقع اتخذتها من قبل فى الإمارات الإسلامية كان له فيها النصر عليه وقتل قوادها كما استولى على كمية السلاح التى كانت معهم ، وبذلك تم للإمام السيطرة على معظم الأراضى الإسلامية.

١- عبد المنعم عبد الحليم : صوماليا ، ص٣٤٤ .

٢- لوثرب ستودارد : مرجع سابق، ص٣٩٤ .

٣- زاهر رياض : الإسلام فى أثيوبيا ، ص٢١٤ .

٤- حمدى السيد سالم: مرجع سابق، ص٣٧٦ .

أما وقد غنم الإمام أحمد غنائم كثيرة من المعارك التى خاضها ضد الجيوش الجبشية ، فقد اشتد ساعده بمن كان ينضم إليه من الرجال المسلمين، فقد فكر عندئذ فى تعديل خطته وغزو بلاد الحبشة نفسها ما دام قادرا على ذلك ، وكان أن نفذ خطته فبدأ أولا بمهاجمة أطراف المدن المسيحية فى شوا وجوجام لاختبار رد فعل الملك وأنزل بها الدمار ثم عاد إلى هرر منتصرا[١].

فى ذلك الوقت كانت الدولة العثمانية بعد سقوط دولة المماليك قد وصلت جيوشها وأساطيلها إلى البحر الأحمر وشواطئ الحبشة الشرقية ؛ وبالتالى أطلت الدولة العثمانية على البحر المتوسط والبحر الأحمر معا. هذه المرحلة تعتبر إيذانا ببدء مرحلة جديدة فى التاريخ ولعدة قرون متتالية، ولم تعد لمصر سياسة خارجية مستقلة تتصرف بموجبها تجاه الحبشة أو غير الحبشة من القوى الخارجية، إنما كان عليها أن تتبع فى ذلك اتجاهات السياسة العامة للدولة العثمانية[٢].

كانت النتيجة الطبيعية أن تغيرت موازين القوة فى البحر الأحمر وبدأ احتكاك العثمانيين بالساحل الحبشى[٣]. لذلك ارتفعت الأصوات تنادى بالجهاد ضد الحبشة وبدأت الإستجابة من الأمراء المسلمين فى إماراتهم التى كانت تعانى من ضغط الأحباش عليها .

وقد كان ظهور الأتراك العثمانيين- كما ذكرنا- مشجعا على طلب المساعدة منهم بصفتهم إخوان فى الدين الإسلامى، تم ذلك فعلا من الإمام إلى الأتراك وذلك حينما شرع فعليا فى تطهير الإمارات الإسلامية من حكامها المفسدين، وبعد أن أصبحت هرر قاعدة للإنطلاق نحو الأراضى الحبشية [٤].

ولعلنا نستطيع أن نقرر أن الدولة العثمانية كانت تؤيد ذلك الاتجاه وتشجعه ، ذلك لأنه سيؤدى إلى استمرار الحرب ضد الإمبراطور وإنهاك قواه، ذلك كله ساعد الإمام أحمد بعد ذلك وكان له أكبر الأثر على المعارك التى خاضتها جيوشه فيما بعد [٥].

1- Cammerer: Op. cit., p. 16 .

وأنظر أيضا : زاهر رياض، الاسلام فى زثيوبيا، ص٢٠١ .

2- Cammerer : op. cit., p. 16 .

3- Jones and Monroa : op. cit., p. 81 .

أنظر أيضا : سعيد عاشور : مرجع سابق، ص٤٣ .

٤- سعيد عاشور : مرجع سابق، ص٣٧ .

5- Jones and Monroa : op. cit., p. 82 .

فبتشجيع الأتراك العثمانيين ومساعدتهم تحسنت أوضاع الإمام أحمد العسكرية، كما أن الظروف لعبت دورا كبيرا فى تهيئة الجو أمامه ؛ إذ أنه فى سنة ١٥٢٥ توفيت الملكة هيلانة أم الملك لينى دنجل والتى كانت تشد أزره وتساعده لصغر سنه عندما تولى الحكم[١]. عندما أدرك الأتراك ذلك تخوفوا من البرتغاليين الذين كانوا يلقون فى بلاد الحبشة نجاحا سريعا ، فصمموا على مساعدة الإمام أحمد وأمدوه بالسلاح لوقف سيطرة البرتغاليين المتزايدة فى المحيط الهندى[٢].

كان الإمام أحمد فى ذلك الوقت قد أتم استعداده العسكرى للهجوم وذلك بعد أن أعلن الجهاد بين المسلمين ، وبعد أن اطمأن إلى مركزه فى الداخل بعد انضمام الدناقلة والصوماليين وسائر الامارات الإسلامية المبعثرة.

وهكذا استطاع أن ينزل بالملك الحبشى هزيمة كبرى فى سنة ١٥٢٧ ، وبعد عامين أى فى سنة ١٥٢٩ شن هجومه الكبير، فتم له فتح دوارو، شوا، إقليم الحوارج ، سيدامو من أقاليم الحبشة الأصلية[٣].

وقد وصف عرب فقيه هذه الاستعدادات والمعارك بقوله: «تم تجهيز الإمام إلى الحبشة للجهاد فى سبيل الله وجهز الجيوش والعساكر وسائر القبائل ، ثم سار المسلمون يريدون أرض الحبشة، فاجتمع المسلمون وأبطال الموحدين بالأجمع صغيرهم وكبيرهم هناك»[٤].

ومن هذا كله نرى أن الإمام أحمد لم يترك قبيلة أو أحدا من المسلمين القادرين على الجهاد إلا جمعهم حوله بأخلاقه وحبه للناس وأمانته على الجهاد وصبره على ضروب الحرب. وعندما وجد فى نفسه القوة على ذلك والاستعداد أخذت جيوشه فى الزحف نحو المناطق المسيحية الأصلية بعد أن تم له تحرير البلاد الإسلامية من الحكام الفاسدين والجيوش الحبشية التى كانت ترابط فيها.

١- زاهر رياض : أبحاث من أثيوبيا ، بحث رقم (٣) ، ص٢٦٩ .

٢- عبد المجيد عابدين: مرجع سابق، ص١٩١ .

3- Cannerer : op. cit., P. 16 .

أنظر أيضا : راشد البرادى: الحبشة بين الإقطاع والعصر الحديث ، ص٥٤ .

٤- عرب فقيه: مصدر سابق، ص٣٣- ٥٢ .

وبذلك أصبحت الإمارات الإسلامية قاعدة صلبة لتقدمه وجهاده فى الأراضى الحبشية ومعاركه التى سيأتى ذكرها فى الصفحات المقبلة.

تحرير الأراضى الصومالية:

- غزو التجمعات والمقاطعات الحبشية.
- الاتصال بالأتراك وإمداده بالأسلحة .
- انتصاراته والنتائج التى ترتبت على ذلك مع ظهور البرتغاليين.
- حركة الإمام أحمد وأثرها فى انتشار الإسلام بين جموع الشعب المسيحى.

استنادا إلى الحوادث والتطورات التى حدثت بين الإمام أحمد والملك الحبشى لينى دنجل، نستطيع أن نقول إن الحرب فى هذه الفترة من تاريخ الحبشة قد اتخذت ظاهرة الحرب الدينية، وأنها قد صارت حرباً بين مجموعتين مختلفتين فى الديانة كل منهما تبغى القضاء على الأخرى أو التغلب عليها مؤقتا على الأقل.

والظاهرة الأخرى لهذه الحرب أنها بينما كانت قبل ذلك حربا تدور حول السيادة الاقليمية والسياسية أو بين أمراء يتطلع كل منهم إلى السيادة والظفر بنصيب من الاستقلال ، أو بين الملك وفريق من قطاع الطرق وتجار الرقيق الذين انتهزوا فرصة ضعف سلطة الملك وعاثوا فى الأرض فسادا[1]، هذه المرة كانت حربا منتظمة تستهدف الأرض والشعب والحكم معا .

كما نستطيع أن نذكر أنه بينما استمرت هذه الحروب متفرقة، توجه الإمام أحمد بحربه الشاملة التي تقهقرت أمامها الجيوش الحبشية وفرار الملك مع أولاده وحاشيته أمام الجيوش الإسلامية التى اكتسحت كل ما أمامها[2].

وقد وصلتنا هذه المعلومات عن تلك المعارك بين الإمام أحمد والأحباش من جانب المسلمين أنفسهم ؛ وذلك عن طريق الكتابات التى كتبها المؤرخون المسلمون المعاصرون لحرب الإمام أحمد مثل شهاب الدين أحمد بن عبد القادر فى كتابه والذى وصف تلك المعارك فى أكثرها

١- زاهر رياض : الإسلام فى أثوبيا ، ص٢٠٤ .

2- Mergery Perham: the goverment of Ethiopia . p. 37 .

بالتفصيل وذلك لحضوره بعض منها، ومعارك أخرى عرفت تفاصيلها من أقوال القواد له شخصيا (١).

وقد جاء فعلا فى كتاب فتوح الحبشة وصف للظروف والتطورات التى مرت بها العلاقة بين الإمام والسلطان أبى بكر ، إذ وصف أصدق الوصف المصالحة والتخاصم بين الإمام والسلطان والمساوئ التى كانت تصدر ضد الشعب وضد الفقهاء الذين كثيرا ما تدخلوا لمنع تسلطه على أفراد الشعب. وجاء على صفحات الكتاب فى ذلك ما يلى: «وتوعد السلطان الإمام بالقتل فخرج الإمام هاربا بالليل من البلاد وسار من مكان إلى آخر حتى وصل إلى بلاد هوبت والسلطان يرسل الأشخاص ويتجسس على الإمام يريد قتله»(٢).

من السابق ذكره عرفنا أن الإمام أحمد بعد أن انتهى من هزيمته للسلطان قام بتجميع الصوماليين حوله، وبدأ فى الخطوات التالية التى تكفل له النصر فى جهاده الأكبر ، إذ إنه بعد أن كون لنفسه قاعدة شعبية سليمة بين المسلمين (الدناقلة والصوماليين) استطاع كذلك استمالة الامارات الإسلامية المختلفة بجانبه تمهيدا للصراع المقبل فى تحرير الأراضى الصومالية أولاً، ثم غزو بلاد الحبشة نفسها بعد ذلك ثانيا (٣).

كان الإمام أحمد كما عرفنا من قبل حتى سنة ١٥٢٧ م مخلصا للملك الحبشى وإن كانت العلاقة قد ساءت بعض الشئ نتيجة للمعارك التى دارت بينه وبين السلطان أبى بكر محمد، لكن الإمام أحمد عندما وجد أنه لا فائدة من مهادنة هذا السلطان الفاسد، وجد أن الثورة واجبة عليه . لذلك لم يتردد فى إعلانها ، وبعد أن تم القضاء على السلطان، أعلنها على الملك الحبشى نفسه.

وبعد ذلك اتجه الإمام خطوة أخرى فى ثورته هذه وهى امتناعه عن دفع الجزية لمندوبى الملك والتى كان يدفعها الأمراء قبله، بالتالى انحدر الأحباش من فوق الهضبة من معسكراتهم لقتال الإمام أحمد وهم يعتقدون أنهم سيتفرقون كما تفرق المسلمون من قبل، فهزم الأحباش لأول مرة منذ بداية الثورة.

1- Ibid . p. 47 .

٢- عرب فقيه : مصدر سابق، ص١٠ ، ٤٩ .

٣- راشد البرادى: الصومال الكبير حقيقة وهدفه، ص٢٦ .

٤- زاهر رياض: الإسلام فى أثيوبيا، ص٢٥٣ .

وشجع ذلك الانتصار الإمام على تجاوز نطاق المعارك التقليدى القديم فلم يكتف هذه المرة بالإغارة الخاطفة على الحدود ثم العودة بالغنائم كما كان يفعل أعداؤه ، إنما أراد هذه المرة أن ينفذ إلى قلب الهضبة الحبشية نفسها ويضع حدا لسيرة الأحباش والقضاء على مملكتهم[١].

كانت هذه بداية الحرب من الإمام وتبع ذلك زحف شامل على أعدائه يساعده على ذلك اطمئنانه إلى مركزه فى الداخل والتفاف قلوب المسلمين حوله وعلى مساندة الأتراك العثمانيين العسكرية له، متمثلة فى مساعدة الباشا التركى حاكم زبيد فى اليمن، والذى عهد إليه من قبل الدولة العثمانية بتزويده بالأسلحة والمدافع. وأيضًا تأييد شريف مكة الذى وعده بالجنود والأسلحة كذلك[٢].

وفى نفس الوقت لم يكن المسلمون أنفسهم يتخيلون أن يُقدم قائد مسلم على اقتحام هذا الميدان فقالوا له إن ملك الحبشة لديه قوة عظيمة ولاتستطيع هزيمتها، لأن امكانيات المسلمين محدودة، وأن أجدادنا كانوا يعبرون ثم يعودون بالغنائم بعد إحراز النصر فى هذه المعارك، ولكن الإمام رد عليهم بأن الجهاد فى سبيل الله لن تقف فى سبيله عوائق وأنه مصمم على ذلك[٣].

وعلى هذا النحو قام حلف جديد قوامه المسلمون والأتراك العثمانيون بتشجيعهم المعنوى والمادى ومن خلفه الشعب المسلم فى كل الأمارات [٤].

وهكذا تم الاتفاق بين هذه الأطراف كلها على هدف واحد وقد وحدت بينهم العقيدة الدينية والمصلحة المشتركة، إذ أن الأتراك أدركوا أن الإمام أحمد هو القوة المحركة التى تستطيع أن تقود الجبهة الجديدة .

كانت النتيجة الحتمية لتلك التطورات أن أصبحت الحبشة فى عزلة كاملة عن العالم كما أراد لها الإمام أحمد والأتراك العثمانيون ، وأصبحت بالتالى تحت رحمة الجيوش الصومالية الثائرة من الشمال والجنوب، وانحصر الشعب المسيحى الحبشى فى سفوح الهضبة الحبشية

١- حسن أحمد محمود : مرجع سابق، ص٤٦٤ .

٢- محمد المعتصم سيد: دول اسلامية فى شرق أفريقيا، ص٣١ .

٣- حسن أحمد محمود : مرجع سابق، ص٤٦٥ .

4- Cammerer: op. cit, p. 16 .

العالية، احتماء من هذا الزحف الكبير والذى كان يحدث ضدها لأول مرة بهذا المعدل المنظم الضخم[١].

نتيجة لهذا الحصار الشديد من جانب الصوماليين والأتراك العثمانيين وما صاحبه من غزو مدمر، أصبحت الحبشة فى موقف لاتحسد عليه، وبدأت فى البحث عن مخرج لها، وكان البرتغاليون فى ذلك على صلة أولية معهم بوصول بعثات منهم إلى الحبشة ، فما كان منهم إلا أن طلبوا منهم العون لوقف هذه الكارثة التى ستودى بالبلاد[٢].

هكذا امتازت تلك الحرب بأنها لم تعد حرباً محلية مثل كل الحروب السابقة والتى تمت فى خلال القرن السادس عشر وأوله، بل دخل عليها عنصر جديد بدأ يوجه اهتمامه الشديد بهذه المنطقة من أفريقيا، ربط مصالحه ببقائه فيها وسيطرته عليها[٣].

هذا العنصر الجديد كان متمثلا فى الدولة العثمانية والبرتغال اللتين بدأتا التصارع بينهما على هذه المنطقة كل يبغى السيطرة عليها منفردا[٤].

وقد وجد الأتراك العثمانيون أن الفرصة سانحة لاقتناصها وبسط سيطرتهم على البحر الأحمر والمحيط الهندى خاصة وأن الصدام بينهم وبين البرتغاليين قد بدأ من مدة وانتهى بانتصار البرتغاليين فى المحيط الهندى على الأسطول التركى [٥]. وقد أوعزوا للإمام أحمد والشعب الصومالى إلى الانتقام لما أصاب امارتهم على يد ملك الحبشة لبنى دنجل فى المعارك التى نشبت سنة ١٥٠٨م، والتى دمر فيها معظم بلاد المسلمين وقتل منه الآلاف وغنم ممتلكاتهم.

وهكذا فإنه لم يكن مستغربا أن يتم التجاوب بين الأتراك العثمانيون وبين الصوماليين بهذه الصورة الضخمة . وبمنتهى اليسر أخذ الطرفان يوثقان علاقاتهما كل بالآخر[٦].

وهكذا خلق هذا الجو نوعا من التوتر بين الفريقين أدى فى النهاية إلى الزحف الكبير ونشبت المعارك بينهما والتى كان للإمام أحمد وجيوشه الانتصارات الكثيرة فيها، وأخذ كل منهم يحاول القضاء على الآخر ما وسعته الجهود والجيوش والخطط الحربية.

1- Trimingham : op. cit., p. 66 .

2- Colin legium : Africa. A hand book to the contenintal p. 97 .

3- Trimingham: op. cit., p. 78 .

٤- محمد المعتصم سيد: دول إسلامية فى شرق أفريقيا، ص٣٣ .

5- Drysdale : The Somali dispute. p. 34 .

٦- عبدالمنعم سيد: مهدى الصومال بطل الثورة ضد الاستعمار، ص١٢ .

الاتصال بالأتراك وإمداد الإمام أحمد بالأسلحة :

كما ذكرنا قبلا لم تكن الحروب التى دارت بين الإمام أحمد بن ابراهيم أمير هرر وبين ملك الحبشة أول حرب تدور بين ملك وأمير فى هذه البلاد ، ذلك أن الأمراء ومحاولات الملوك لإخضاعهم تكاد تشمل تاريخ الحبشة كله [١].

وتأتى حروب الإمام أحمد خاتمة لسلسلة الحروب الكثيرة والثورات على سلطة الإمبراطور، ولكنها كما ذكرت من قبل تتميز عما قبلها بأنها كانت قد أتت بعد حالة من الترقب والانتظار والاستعداد من أمير هرر المسلم، وقد بدأ الغزو على مراحل كل مرحلة لها ظروفها .

وهذا دليل على الاستعداد والتفكير الحربى السليم، وأنه بعد أن استعد استعدادا كاملا أخذ ينتهز فرصة ضعف جيش الحبشة للإنقضاض بجيوشه بعد أن اطمأن إلى خطته[٢].

لم يكن الملك فى ذلك الوقت قد وصل إلى سن الحادية عشرة أو يزيد على ذلك قليلا حينما وصل العرش بعد وفاة والده، كذلك فإنه لم يكن أكبر أبناء أبيه الملك ، لكنه كان أكبر أبناء الملكة، لذا لم ينازعه أحد من اخوته الذين كانوا أكبر منه سنا [٣].

والجدير بالذكر أن الملك الحبشى لبنى دنجل فى أول ارتقائه العرش حينما تلقى الصدمة كان عهده أكثر سلامًا وهدوءًا وكانت الثروة كثيرة ومتوفرة ، لكن ذلك العهد شهد انهيار ذلك كله بعد هذا على يد الإمام أحمد بن ابراهيم .

كما شهد الملك الحبشى وأفراد أسرته ، زيادة على انهيار ملكه ، التشرد والفقر والتنقل من مكان إلى آخر هربا من المعارك المحتدمة والهزائم المتوالية لجيوشه باستمرار، رغم تأييد الشعب والكنيسة له فى حربه ضد الإمام أحمد[٤].

فى نفس الوقت لم يكن الملك الحبشى يتوقع هذه الصدمة من الحرب أو نتائجها المترتبة على ذلك، إذ كان يعتقد أنها ثورة من ضمن الثورات التى قامت قبل ذلك، واستطاع

١- زاهر رياض : الإسلام فى أثوبيا، ص٢٣ .

2- Jones and Monroa : op. cit., p. 82 .

3- Trimingham : op. cit., p. 83 .

٤- زاهر رياض : تاريخ أثيوبيا، ص٨٣ .

الأحباش القضاء عليها، ولكنها كانت هذه المرة منظمة تنظيما دقيقا ، استطاعت بذلك اكتساح بلاد الحبشة حتى أتت على معظمها ، بعد أن كانت مسارح الحروب السابقة لاتتجاوز المنطقة الواقعة على حدود الحبشة[1].

والسؤال الذى يثار هنا أو فى ظل ظروف تلك الحروب الطاحنة هذه: ما الذى بدّل علاقة المسلمين بالمسيحيين فى أثيوبيا سوءا بعد حسن ، حتى لقد انضم المسلمون جميعا إلى جانب الإمام أحمد متناسين ولاءهم السابق للملك تاركين مكانهم بين صفوفه ؟

وما الذى طبع حروبهم بهذا الطابع الجديد الذى لم تألفه من قبل، وما الذى منح المسلمين هذه الثورة الجبارة المتدفقة التى لم تستطع قوات الحبشة بأكملها أن تقف أمامها وتصدها طيلة الإثنى عشر عاما مدة الحرب، حتى لقد اضطر الملك إلى طلب المعونة الأجنبية مضحيا فى ذلك تبعية كنسية الحبشة وهو الأمر الذى لم يحدث من قبل ؟ [2].

من هذا كله يصح لنا أن نطلق على الإمام أحمد أنه صلاح الدين يوسف الحبشة، فقد توالت الهزائم على جيش الأحباش مع شدة بأسهم وصعوبة مراسهم ووعورة جبالهم وكون بلادهم لم تطأها قدم فاتح ولاوصلت إليها همة غازى من قبل.

فكان الإمام أحمد بذلك هو أول من أوغل فى قلب بلادهم واستذل كبرياءهم حتى قال المستشرق الفرنسى باسيه: «إن أشهر دور من أدوار التاريخ فى الحبشة التى بقيت أخبارها محفوظة فى أذهان الغربيين هو دور هرر بقيادة أحمد جران الذى كاد أن يسحق النصرانيه من الحبشة ويعيدها إلى بلاد الإسلام»[3].

هذه مقدمة الإجابة عن السؤال الذى أثير من قبل، أما باقى الإجابة فإننا سنجد الرد عليها فى بقية الصفحات المقبلة إذ أن المعارك والنتائج التى ترتبت عليها تعطينا الإجابة الشافية على هذا التساؤل .

١- محمد المعتصم سيد: مهدى الصومال بطل الثورة ضد الاستعمار ، ص١٣ .

٢- انظر أيضا : زاهر رياض: الاسلام فى أثيوبيا، ص٢٣٢ .

Cammerer: op. cit., p. 8 .

٣- لوثرب ستودارد : مرجع سابق، ص٣٤١ .

فى سنة ١٥٢٩ أتم الإمام ما بدأه بالاستيلاء على بقية الجزء الإسلامى فسار إلى أوفات واستولى عليها بعد أن أطبق عليها بجيش من المسلمين يقوده وزيره وصديقه عدولى، ومن اليسار بجيش آخر يقوده وزير آخر هو نور الدين بن إبراهيم، لكن النزير عدولى استطاع وحده دخول المدينة والاستيلاء عليها(١).

وكان قد سبق دخول المدينة معركة حاسمة على أطرافها هى موقعة (صمبر كورى) الشهيرة فى سنة ٩٣٥هـ (مارس سنة ١٥٢٩م) ، والتى كانت أول معركة كبيرة تخوضها جيوش المسلمين فى أراضى الحبشة ويقدر لهم فيها النصر الكبير. وبعد أن تم لهم دخول المدينة وجدوا فيها غنائم كثيرة وعدد وافرة من السلاح. وكانت من بين الأسرى قريبة للإمبراطور افتديت بخمسين أوقية من الذهب وأطلق سراحها(٢).

هكذا توالت انتصارات الإمام أحمد فى معركة تلو الأخرى فى أقاليم الفطجار، تييحى، أبناريه، وتم له تحرير إمارة دوارو المسلمة من الأحباش. كما اتجه إلى المناطق الواقعة فى شمال اوفات وهى المناطق المتطرفة من شمال الصومال، وكان الأحباش يسيطرون عليها بحد السيف رغم أن أهلها من المسلمين إلا القليل من المسيحيين . ودخلت جيوش الإمام هذه المناطق وأعادوا إليها الحكم الإسلامى(٣).

وذكر عرب فقيه تلك الوقائع والأحداث بقوله : «وعندما مسمع الإمام أحمد بن ابراهيم وعساكره خبر هذه الحملة، حينئذ ساروا وشنوا الغارة على الكفرة وحرَّص بعضهم بعضاً فى سبيل الله، والتقوا فى مكان عظيم كثير الماء، واصطفت المسلمون وكذلك الكفرة المخذولون ، صفوا صفوفهم وعبأوا جيوشهم وخيولهم فحمل المسلمون على الكفرة وأتوا كردوسا واحدا واقتتلوا قتالا شديدا وعظم النزال وكثر الغبار والتقى الأبطال فلاتسمع حينئذ إلا وقع السيوف على الدروع . وحمل الإمام وبسط الكفرة فولوا الأدبار واشبعهم المسلمون حربا وطعنا حتى هزموهم وقتلوا منهم المئات وفروا هاربين»(٣).

1- Trimingham : op. cit., p. 87 .

أنظر أيضا: زاهر رياض: الإسلام فى أثيوبيا ، ص٢١ .

٢- حسن أحمد محمود : مرجع سابق، ص٦٢١ . انظر أيضا : حمدى السيد سالم: مرجع سابق، ص٣٢٨ .

٣- عرب فقيه : مصدر سابق، ص٨ .

كان نتيجة لهذا الانتصار الساحق أن تجمع حول الإمام أحمد آلاف الفرسان والمشاة فى هرر من صوماليين وعرب، وكل منهم استقرت فى نفسه الثقة بالإمام والإيمان بأن لهم النصر على أعدائهم الأحباش. وقد وهب الجميع أموالهم وأنفسهم فى سبيل الله، وأرسل الإمام ما تجمع لديه من التبرعات والغنائم مع وفد إلى اليمن لشراء الأسلحة والمعدات الحربية بالإضافة إلى استلام المعدات التى وعد بها مسلمو اليمن والحاكم العثمانى[١].

واستمرت المعارك بينهم متفرقة ولو أنها لم تكن حاسمة قبل موقعة صبركورى السابقة ويذكر عرب فقيه موقعة من تلك المواقع بقوله : «وغنم المسلمون يومئذ ستون فرسا ومن الآلات والبغال شيئا لايحصى وأخذوا ما كان فى أيدى الكفرة من أسارى ومواشيهم وردوها إلى أهلها وانثنى المسلمون راجعين فرحين مستبشرين إلى بلد تسمى (زيفه) قريبة من بلد السلطان السابق أبى بكر بن محمد ولم يقتل منهم أحد »[٢].

زيادة على ذلك ، وفى نفس الوقت الذى بدأ فيه السلاح الجديد المكون من المدافع والبنادق وسائر المعدات الحديثة بالنسبة لذلك العهد يصل إلى أيدى قواد الإمام أحمد ، كان الأحباش فى مقابل تلك المعدات الحديثة لايزالون يعتمدون اعتمادا كليا على القوس والرمح والسهام.

وفى سنة ١٥٣٣م، عاد الإمام إلى غزو منطقة جودهام فهرب الملك أمامه إلى منطقة تسمى (دمبياس) شمال بحيرة تانا الحالية فطارده الإمام أحمد واستطاع أن يكتسح جودجام كلها ويتصل بمسلمى سنار فى الشمال ويعقد معهم حلفا، زودوه بمقتضاه بالأدلاء الرجال إلى مكان الملك الهارب .

عندما عرف الملك بقرب وصول جنود الإمام أحمد هرب مرة أخرى إلى منطقة دارا إلى الجنوب الشرقى من بحيرة تانا فلحقته هناك الجيوش عند مخرج النيل الأزرق، وبالتالى دارت معركة كبيرة انتصرت فيها جيوش الإمام أحمد وتشتت جيش الإمبراطور بعد أن قتل عدد كبير من قواده [٣].

١- حمدى السيد سالم : مرجع سابق، ص٣٢٩ .

٢- محمد المعتصم سيد: مهدى الصومال بطل الثورة ضد الاستعمار، ص١٥ .

3- Cammerer : op. cit., p. 19 .

أنظر أيضا : الاسلام فى أثيوبيا ، ص٢٠٤ .

كانت النتيجة الطبيعية لتلك الهزيمة الساحقة أن خلت البلاد من الجيش المدافع عنها، وأمضى الجيش بعد ذلك أربعة أيام فى اكتساح ما حوله من البلاد بعد هذا النصر، وكان المسلمون يستقبلون الجنود إذا ما حلوا بهم فيكرمونهم ويعينونهم بما يملكون من مال على تجديد أسلحتهم.

ثم عاد الإمام أحمد بعد ذلك إلى هرر ليأخذ جيشه قسطاً بسيطاً من الراحة حيث أحصى الغنائم فوجدها خمسمائة رقيق وألفا رأس من البقر ومن البغال شئ كثير غير المعدات الحربية التى تركها الجنود الأحباش فى فرارهم .

هكذا للمرة الأولى فى تاريخ أثيوبيا أصبحت الثورة والحرب ساحقة إلى حد الانتصار الدائم على مدى سنين متعاقبة بعد ذلك، بلغت اثنى عشر عاما فى نهاية تلك الحرب، اكتسحت فيها بلاد الحبشة موقعا موقعا كلها من شمالها إلى جنوبها ؛ ولم يبق فى البلاد مكان صغير يلجأ إليه الملك ومن معه من أنصاره القليلين .

وقد بلغ من شدة تلك المعارك أن الملك الحبشى طورد هو وعائلته وأتباعه من بلد لآخر يقاسون الجوع والمرض والحرمان دون أن يجدوا عائلا أو نصيرا [1].

كذلك فإن من النتائج المترتبة على تلك الحرب انهيار نظام الحكم الذى كان يرأسه الملك. ويجدر بنا هنا أن نشير إلى أن نظام الحكم فى الحبشة كان يتم بصورة مغايرة لأنظمة الحكم السائدة فى البلاد الأخرى من العالم والتى عرفت فى ذلك القرن، إذ كان الملك على رأس حكام المقاطعات والذين يسمون بالرؤوس.

فى نفس الوقت كان كل رأس من هذه الرؤوس أو الأمير بمعنى أصح على رأس مقاطعة من المقاطعات لكى يحكمها وكان هؤلاء الحكام يخضعون خضوعا تاما للملك ويحكمون بأمره، وإذا استدعى أحدهم إلى عاصمة ملكه من مقر حكمه فإنه أى على الأمير أن يحضر هو وجميع أفراد أسرته مع ممتلكاته الخاصة.

النتيجة بعد حضوره على هذا النحو إما أن يسمح له الملك بالعودة مرة أخرى أو لايعود

١- Cammerer : op. cit. . p. 19 .

وأنظر أيضا : زاهر رياض : الاسلام فى أثيوبيا ، ص٢٠٣ .

إلى مقر حكمه بعد ذلك اطلاقا ، ويتولى بعد ذلك رأس من رؤوس الأسرة المالكة الحكم من بعده. كل ذلك انهار بانهيار الجيوش الحبشية[1].

ونستطيع هنا أن نذكر أن تفوق الإمام أحمد بدأ يظهر عندما وحد جبهته الداخلية واطمأن إليها تمام الإطمئنان بفضل شعورها الدافق نحو الجهاد، وكذلك فإن الأسلحة الحديثة التى وصلته بعد تشجيع الأتراك له كان لها أثرها الضخم فى تفوق المعنويات لجيوش الإمام أحمد واستطاع فى سنين قليلة أن يكتسح أراضى الصومال كله .

بعد أن تم له اكتساح الصومال كله بدأ فى غزو أراضى أثيوبيا نفسها وهزيمة الجيوش الحبشية على الرغم من تفوقها فى العدد والعتاد؛ ولكنهم كانوا يحاربون على الطرق القديمة التقليدية وأسلحتهم بدائية لاتعدو الرمح والسهم والقوس، يقابلها فى الجانب الآخر لدى الإمام أحمد المدافع والبنادق .

إذا عرفنا هذا كله أمكننا أن نعرف سر قوة الإمام أحمد وانتصاره الساحق على الملك الحبشى لبنى دنجل، وأمكننا كذلك أن ندرك سر تفوق هذا المحارب الشجاع، هذا التفوق الساحق الذى لم تر له أثيوبيا سابقة فى تاريخها الطويل .

انتصارات الإمام أحمد والنتائج التى ترتبت على ذلك مع ظهور البرتغاليين:

امتازت المعارك التى قامت بين الأحباش والمسلمين فى القرن السادس عشر وهى التى كانت بين الإمام أحمد والملك الحبشى، بأنها كما ذكرنا من قبل لم تعد حرباً محلية كما كانت من قبل، بل دخلها عنصر جديد بدأ يوجه اهتمامه الشديد لهذه المنطقة من أفريقيا وربط مصالحه ببقائه فيها وسيطرته عليها .

هذا العنصر الجديد كان متمثلا فى الدولة العثمانية والبرتغال واللتين بدأ الصراع بينهما على هذه المنطقة ، كلٌ يبغى السيطرة منفردا عليها للظفر بموقعها التجارى الممتاز.

وإذا استعرضنا قصة ظهور هذين الخصمين فى هذه المنطقة فالعودة إلى الأحداث التى سبقت ذلك ، توضح لنا مدى تطور هذه الحوادث بينهما ، إذ أن بداية ظهور البرتغاليين صاحبها على المسرح وجود القوى الآتية:

١- زاهر رياض: مرجع سابق، ص٢٣١ . أنظر أيضا:

Jones and monroa: op. cit., p. 64 .

المماليك في مصر وسلطانهم قنصوة الغورى. ثم السلطان سليم على رأس الدولة العثمانية وإمبراطوريتها الواسعة. وكان هناك الأمير بركات- شريف مكه- الأمير حامد صاحب عدن ، الأمير سيف الدين حاكم هرمز(١).

كان هذا هو مسرح الحوادث التى ظهر فيها البرتغاليون فى المحيط الهندى، وكان العرب فى المحيط الهندى يتاجرون فى سلع سواحل الهند ، وبسبب ما لحق بهم من ضرر على يد البرتغاليين، فقد أرسلوا إلى سلطان مصر وفدا للاستنجاد به، وأقنعوا حاكم عدن بأن يرسل مع هذا الوفد كثيرا من الهدايا لعل مساعيهم تنجح فى ذلك وانتداب حاكم واحد من الأشراف وكان الكل يرجون من سلطان مصر أن يتدخل فى الأمر وأن يدفع عنهم هذه الكارثة أو يوقفها عند حد (٢).

ولما كان مسعى سلطان مصر لدى البرتغاليون لم يؤد إلى نتيجة حاسمة وذلك بعد ما بذله من مساعى كثيرة، اعتزم الاعتماد على مبدأ القوة فبدأ نتيجة لذلك سفك الدماء فى المحيط الهندى الذى انتهى بفوز البرتغاليين.

ولكن يجب الإشارة إلى أن حالة مصر فى ذلك الوقت لم تكن لتساعدها على تدبير المساعدة المطلوبة، فقد كان على رأسها السلطان قنصوه الغورى والذى كان يستعد بجيوشه لمحاربة السلطان سليم العثمانى، والذى كان قد انتهى لتوه من حرب فارس، وأظهر ما كان ينويه من نيات عدوانية نحو مصر ، زيادة على ذلك فإن هزيمة الأسطول المصرى فى موقعة ديو البحرية والتى هزم فيها أمام البرتغاليين لتفوقهم البحرى الساحق على قطع الأسطول المصرى(٣).

وفى سنة ١٥١٦م سقطت مصر فى يد الأتراك بقيادة السلطان سليم وأخضعت الجيوش العثمانية الحجاز لسيطرتها ، فأحدثت سيطرة العثمانيين على حوض البحر المتوسط تغييرا

١- محمد المعتصم سيد: مهدى الصومال بطل الثورة ضد الاستعمار ، ص١٤ .

٢- جيبان : وثائق تاريخيه وجغرافية وتجارية من أفريقيا الشرقية. ترجمة : يوسف كمال، القاهرة ١٩٢٧، ص٢٢٥ .

٣- زاهر رياض : الاسلام فى أثيوبيا، ص٢١٥ .

جـوهريا فى الموقف السـيـاسى [1]، ولم يدرك فى ذلك الوقت لا الأحـبـاش ولا حلفـاؤهم البرتغاليون حقيقة ذلك الخطر الزاحف الذى يتهدد مصالح كل منهم. حيث أن الأحباش طلبوا من البرتغاليين إمدادهم بعدد من الصناع المهرة لتزويد جيشهم بالقسى والنبال والرماح لزوم تجهيز الجيوش الحبشية، بعد أن تم الاتفاق على منحهم قواعد بحرية فى مقابل ذلك[2].

وهكذا بدأ الأتراك فى تنفيذ خطتهم فى البحر الأحمر، وذلك بعد أن تم لهم كما ذكرنا من قبل تأمين حوض البحر المتوسط ، فبعد أن هزم السلطان قنصوة الغورى آخر سلاطين المماليك فى مصر ، أصبحت بالتالى مصر ولاية عثمانية . أرسل السلطان سليم العثمانى قائده العسكرى سنان باشا فى حملة إلى بلاد العرب فأخضع حكامها وزعماءها ، وعين حكاما أتراكا فى كل المدن . وتم بذلك للأتراك احتلال كل الموانئ الواقعة على الشاطئ الشرقى للبحر الأحمر، وأعقب ذلك الاستيلاء على زيلع لمينائها وموقعها الحيوى على مدخل البحر الأحمر.

كان ميناء زيلع هذا له أهميته الكبيرة إذ أنه يربط ساحل البحر الأحمر بالبلاد فى الداخل وتصدر منه منتجات البلاد الإفريقية ثم إنه فى نفس الوقت كان يستقبل سلع التجارة الواردة من الهند إلى حوض البحر المتوسط، لذلك أقام بها الأتراك جمركا وكونوا بها أسطولا صغيرا لحمايتها وكان ذلك فى سنة ١٥١٩[3].

لم يكن للأتراك إلا هدف السيطرة على البحر الأحمر، ومدخله الجنوبى بعد الإطمئنان إلى المدخل الشمالى . كذلك فإن البرتغاليين أنفسهم كانوا يهدفون إلى نفس الغرض الذى منى الأتراك به أنفسهم . وكان غرض الاثنين السيطرة على المراكز التجارية . وفى نفس الوقت كان غرض الأتراك العثمانيين استمرار التجارة عبر البحر الأحمر . أما البرتغاليون فكان غرضهم تحويل التجارة من الشرق إلى الغرب، والاثنان يهدفان إلى السيطرة على تجارة الشرق ومنبع الثروة الحقيقى لتجارة العالم[4].

1- Cammerer : op. cit., p. 16 .

٢- محمود الشرقاوى: أثيوبيا ، ص٣٢ .

٣- محمد المعتصم سيد: مهدى الصومال بطل الثورة ضد الاستعمار ، ص١٤ .

أنظر أيضا : رولاند أوليفر : موجز تاريخ افريقيا، ص١٠٧ .

4- Trimingham : Op. cit., p. 76 .

أنظر أيضا : محمد المعتصم سيد: مهدى الصومال بطل الثورة ضد الاستعمار. ص١٤ .

وبينما كان الأتراك العثمانيون يعملون على تنفيذ خطتهم كان البرتغاليون عاجزين ومغلولى الأيدى إزاء قوة العثمانيين، بعد أن سيطروا على اليمن وأخضعوا أمراءها ، وأخذوا يقيمون على طول سواحلها حصونا منيعة ولاسيما ميناء عدن الحيوى فأصبح للأسطول العثمانى السيطرة التامة على مياه البحر الأحمر فى ذلك الوقت .

كان هذا موقف الأتراك العثمانيين من السيطرة على البحر الأحمر، لكنّه فى المحيط الهندى اختلف الأمر، إذ أن البرتغاليين بعد أن تم لهم النصر على الأسطول المصرى فى المعركة البحرية المعروفة فى فبراير سنة ١٥٠٩، كان إثر ذلك أن استقرت السيادة البرتغالية وأصبح أسطولها قادرا على حمل الجند البرتغال أينما أرادت .

زيادة على ذلك أصبح فى يدها احتكار تجارة البهار وأصبح التجار البنادقة لايجدون شيئا منها فى أسواق القاهرة، بينما امتلأت بها أسواق لشبونه إلى حد التخمة (١).

هذا وتدارك الأتراك خطر البرتغاليين فى البحر الأحمر وخطر تحالفهم مع إخوانهم الأحباش على مصالحهم فى المحيط الهندى، فعملوا على وجه السرعة على الاتفاق مع الإمام أحمد وذلك لتحطيم الحلف الجديد المعادى لهم والوقوف ضد تحقيق أغراضه.. فأمدوه بالأسلحة النارية المستعملة فى جيوشها ووقفوا من ورائه مؤازرين بالمال والرجال(٢).

ومن هنا بدأ الصراع يأخذ الدور الجدى الخطير، إذ اتصل الأتراك العثمانيون من قاعدتهم فى زيلع بالإمام أحمد، ووضعوا معا أساس خطة محكمة على مواجهة هذا التحالف الجديد على أن يضم الإمام أحمد أولا الأجزاء الإسلامية المتمثلة فى الإمارات الصغرى، ثم بعد ذلك يقوم بغزو أراضى الحبشة نفسها بعد أن يشتد ساعده بفضل ما وعده به الأتراك من أسلحة حديثة العهد هى البنادق والمدافع والتى كانت فى ذلك الوقت اختراعًا حديثًا لم يعرفه الأحباش(٣).

هكذا ، ومن كل ما مر بنا من أحداث كان لهذه الفتوحات والغزوات تأثير الدماء الجديدة والتى تغذى روح الجهاد الدينى الكامنة فى نفوس المسلمين ضد أعدائهم الأحباش. كما أتاحت

١- زاهر رياض: الإسلام فى أثيوبيا ، ص٢٤٣ .

٢- محمد المعتصم سيد: مهدى الصومال بطل الثورة ضد الاستعمار ، ص١٥ .

٣- زاهر رياض: تاريخ أثيوبيا ، ص٨٣ .

الفرصة للإمام أحمد أن يدفع رعاياه إلى ذلك مستفيدين من مساعدات الأتراك المالية والحربية التى ساعدته على النصر فى معاركه التى استمرت بعد ذلك مدة طويلة.

ومن هذا نرى أنه بعد أن تم لهم الاتصال بالإمام أحمد واتفاقهم على الوقوف بجانبه ضد الأحباش والبرتغاليين. من هذا الجزء من الساحل الأفريقى بدأ الأتراك العثمانيون يتطلعون إلى المنطقة كلها. كما أيقنوا أنهم إذا تمكنوا من إقامة دولة تابعة لهم فى الحبشة تسيطر على ساحل البحر الأحمر الغربى، فإن سيادتهم على طريق الهند التجارى تكون قد استكملت أسبابها (١).

وكان أن وجد الإمام أحمد الاستجابة الفورية من الباشا التركى حاكم اليمن، عندما طلب منه الإمام المساعدة لتحرير الأراضى الصومالية التى تدين شعوبها بالإسلام ، أرسل له ٩٠٠ بندقية حديثة وبهذه المساعدة الأولية استطاع الإمام أحمد مهاجمة الجيوش الحبشية وهزيمتها أكثر من مرة ، فرت هذه الجيوش وقوادها وعلى رأسها الملك الحبشى، وتم للإمام أحمد الاستيلاء على ما فى معسكراتها من أسلحة ومعدات زادت من عتاده وجيشه(٢).

هكذا فإنه عندما وصلت أنباء هذا التحالف الجديد إلى مسامع الأحباش أصابهم الذعر الشديد، وأسرعت ملكة الحبشة الأم هيلانه فى سنة ١٥٢٢ فى البحث عن حليف قوى يقف إلى جانبها فى وجه هذا العدو اللدود والذى وصل إلى مرتبة كبيرة وجديرة من الرقى العسكرى لايمكنها أو يمكن جيوشها بوضعها التقليدى الوقوف أمامها (٣).

قابل ذلك فى نفس الوقت رغبة البرتغاليين فى الاستحواذ على مناطق نفوذهم فى هذا الجزء من العالم بعد أن أدركوا أهمية استقرارهم فى الهند، لهذا كانت دعوة ملكة الحبشة للملك عمانويل البرتغالى لها وقع طيب فى نفوس البرتغاليين الذين لم يكونوا أقل اهتماما من الأتراك العثمانيون بهذه المنطقة.

١- محمد المعتصم سيد: مهدى الصومال بطل الثورة ضد الاستعمار ، ص١٤ .

أنظر أيضا : عبد المجيد عابدين: مرجع سابق، ص١٠٩ .

2- Jones and Monroa : Op. cit., p. 84 .

أنظر أيضا : زاهر رياض: الإسلام فى أثيوبيا ، ص ص٢٥٠-٢٥١ .

٣- محمد المعتصم سيد: دول إسلامية فى شرق أفريقيا، ص٣٤ .

وسرعان ما أخذوا يمدون أيديهم بالمساعدة للملكة الحبشية فور الإتفاق على ذلك بصورة جديدة لأن الوقت لم يكن فى صالحهم أو صالح حلفائهم إن هم ابطأوا فى إمدادهم بالأسلحة ولأن انتصارات الإمام أحمد الساحقة كانت تقض مضجعهم [١].

على أن النصف الثانى من عصر الملك الحبشى لبنى دنجل شهد انهيار هذا التحالف ، نتيجة لإنتصارات الإمام أحمد فى معاركه باستمرار ؛ فقد تقدم مكتسحا الجيوش الحبشية وكان أن بسط سلطانه على جزء كبير من الحبشة بجانب الإمارات الإسلامية أصلا، فأرسل الملك مدفوعا بهزيمته هذه إلى البابا فى روما والى ملك البرتغال يطلب المعونة والمساعدة لقاء تبعية كنيسة الحبشة لكنيسة روما بدلا من كنيسة المشرق[٢].

ومن ناحية أخرى اتسمت هذه الحروب بالقسوة والشدة وبلغت أشدها بعد ذلك عندما اكتسح الإمام أحمد معاقل الأحباش واحدا وراء الآخر، وعانى منها الطرفان الأحباش والمسلمون عناء شديدا وكادت دولة الأحباش تنهار ويقضى عليها لولا مساعدة البرتغاليين لهم فى آخر الأمر والذى ساعدهم فى وقت الزحف الإسلامى نحو قلب بلادهم[٣]، وهو الذى سنورد تفاصيله فى الصفحات المقبلة.

أثمر هذا التحالف الجديد بالطبع ، والذى لجأت إليه الملكة هيلانه ومعها ابنها الملك الصغير مع البرتغاليين ، ووجدت الحبشة من يقف معها ويصد هذا الخطر الزاحف نحو قلب بلادها لايوقفه شئ . وهذا بالطبع يعود الفضل فى التفكير فيه إلى الملكة هيلانه والتى كانت أول من فكر فى طلب هذه المساعدة لمواجهة هذا التحالف الجديد.

وهكذا رأينا كيفية ظهور الأتراك على مسرح الأحداث فى الشرق الأدنى كذلك ظهورهم فى البحر الأحمر ، والمحيط الهندى ، والظروف التى أرسلت بالبرتغاليين وجعلت علاقة الأحباش بهم تقوى بمرور الوقت وذلك بعد استنجاد ملوك الأحباش بهم لصد الخطر العثمانى والصومالى الجديد والذى ظهر بقوة لم يعهدها الأحباش من قبل.

1- A lvaris : op. cit., p. 270 ; Cammerer :op. cit., p. 8 .

٢- زاهر رياض : تاريخ الحبشة، ص١٥ أنظر أيضا:

Cornwallis Harris : A high lands of Ethiopia . p. 235 .

٣- عبد الرحمن زكى : مرجع سابق، ص٤٨ .

وقد أراد الأحباش بهذا التحالف الجديد أن يضمنوا لأنفسهم الوقوف أمام هذا الغزو المدمر الذى أخذ يكتسح بلادهم وجيوشهم لايقف فى طريقه أى عائق مهما كان من إعداد الجيوش وسلاحها [١].

على ضوء هذه المعلومات التى أشرنا إليها، يمكننا أن نقول إن هذه الحروب لم تكن صراعا بين ديانتين تريد كل منهما السيطرة على الأخرى والقضاء عليها. بل كانت صراعا بين قوتين اقتصاديتين واستعماريتين تبغى كل منهما احتكار الطرق التجارية التى تهيئ لها السيطرة الاقتصادية.

إن الإمام أحمد ابن ابراهيم لم يقم بدور الزعيم لأن الأتراك أرادوا له ذلك ولكن حركته تصادفت مع ذلك التوسع البرتغالى والتركى فى نفس الوقت عملت الدولة العثمانية على الاستفادة من موقعه الممتاز وحركته الدافقة فى إضعاف الأحباش ومن ورائهم البرتغاليين.

كذلك فإن الامام أحمد لم يكن زعيما قوميا فحسب، بل كان زعيما دينيا. وفى نفس الوقت أراد أن يحرر المسلمين من السيطرة الحبشية ، وعندما وجد الأتراك يعادون أعداءه ويشجعون حركته، أراد أن يستغل مساعدتهم فى تنفيذ أغراضه فى هزيمة الحبشة ونشر الإسلام بين ربوعها.

حركة الإمام أحمد وأثرها فى انتشار الإسلام بين جموع الشعب المسيحى:

نشبت الحروب والمعارك بين الإمام أحمد بن إبراهيم والملك الحبشى لبنى دنجل، وأحرز المسلمون الانتصارات تلو الأخرى ، ولكن هذه الحرب لم تكن وحدها المؤثر على شعوب تلك المناااطق التى غزتها جيوش المسلمين، إذ كان اهتمام الإمام أحمد لايتركز فقط على الأعمال الحربية، ولكنه تركز بالدرجة الأولى على نشر الإسلام فى المناطق المفتوحة وتحرير المسلمين فى المناطق الواقعة تحت سيطرة الأحباش .

ومن تتبعنا لأعمال الإمام أحمد والنتائج التى ترتبت على ذلك من دخول أعداد غفيرة من مسيحيى الحبشة فى الإسلام نستطيع أن نحكم على أنه مجهود ضخم منظم لايقل فى ثورته وقوته عن الجانب العسكرى الذى تميز به الإمام أحمد فى معاركه وانتصاراته [٢].

1- Jones and Monroa : op. cit., p. 63 .

أنظر أيضا : عبد المنعم عبد الحليم: طوماليا، ص٣٩٥ .

٢- حمدى السيد سالم : مرجع سابق، ص٣٨٣ .

عندما خرج الإمام أحمد من هرر قاصداً الأراضى الحبشية، بغية نشر الدعوة الإسلامية بين الوثنيين والمسيحيين ، كان على رأس جيش قوى مدرب على أحسن وجه، ودخل مدينة زيفة الإسلامية، رحب به وين بن آدم، واستقر وتابع بعد ذلك سيره قاصدا ملك الحبشة . وكان من عادة الإمام أحمد أن يصطحب معه فى مؤخرة جنده المجاهدات المسلمات للاستفادة بهن فى رفع الروح المعنوية للجند، وفى نفس الوقت نشر الدعوة بين النساء فى المناطق المفتوحة.

وبعد أن بدأ الإمام أحمد الدخول فى المعارك الضارية ذات التأثير الكبير على الحرب وأحرز الانتصارات المدوية فيها ، ذاع صيته بين المسلمين والأحباش على السواء . وكانت هذه المعارك من ناحية أخرى لها شعارها بين جنوده باسم الهلال ضد الصليب وسلاحه الأول فيها الدعوة إلى الإسلام والمحبة تحقيقا لقول الله تعالى: «لا إكراه فى الدين» [1].

ازاء ذلك لم يلجأ الإمام إلا إلى الطريق المستقيم فى معاملاته مع الأسرى وأهالى المناطق المفتوحة، فلم يلجأ إلى المكر والخديعة كما يحدث عادة فى الحرب، بل سار وفق منهج الدعاة المسلمين، فكان له من طبيعته السمحة، خير سند ومعين لأن يحقق لأمته ما لم يحققه من قبل، فحق علينا أن نسميه صلاح الدين يوسف الحبشة لإنتصاراته ونجاح دعوته فى نشر الإسلام.

هذا من ناحية مجهود الإمام أحمد والذى بذله فى نشر الإسلام أثناء خوضه المعارك ضد جيوش الأحباش.

ومن ناحية أخرى يحسن بنا كذلك أن نلقى نظرة مبسطة على الأديان التى كانت سائدة بين سكان الحبشة فى ذلك الوقت ، فقد كان هناك تعدد فى الأديان، ونظرا لهذا التعدد فإن الإسلام فى الحبشة، وإن لم يكن المذهب السائد هناك ، هو المذهب السنى قد اختلط بمعتقدات دينية قديمة.

هذا الاختلاط كان موجودا لأنه لم تكن توجد مدارس من قبل ملحقة بالمساجد كما أنه لم تكن توجد الجمعيات الدينية (الطرق) والتى أسدت الكثير إلى الإسلام كما فى شمال أفريقيا. من هنا نشأ نوع من عدم الدقة وعدم التحمس وشئ من عدم المعرفة السليمة لتعاليم الإسلام[2].

1- Cammerer : op. cit., p. 17 .

٢- س . ج . سليجمان : السلالات البشرية فى أفريقيا، ص١٠٥ .

أما عن تاريخ المسيحية فى الحبشة فإن تاريخها طويل ومعروف ، ولكن نتيجة للانتصارات التى حققها الإمام أحمد والطريقة التى عامل بها المسلمون مسيحيى الحبشة دخلت أعداد كبيرة من المسيحيين فى الإسلام وازداد انتشاره بازدياد قوته الإسلامية ، بينما انحدرت قوة الأحباش وتدهورت والتزموا خطة الدفاع [1].

نتيجة لذلك كله ومحصلة له فقد سعت الكنيسة الحبشية إلى الاتصال بالكنيسة المصرية والاستنجاد بها، لكن لم تكن هناك فائدة من ذلك لأن الأتراك هم الذين كانوا يسيطرون على مصر وهم الذين شجعوا الإمام أحمد على غزو بلاد الحبشة، لكنهم اعتقدوا أن ذلك سوف يفيدهم إلى حد ما اعتمادا على ما كان لهم من صلات قديمة، بين الكنيسة الحبشية والكنيسة المصرية[2].

لكن هذه الانتصارات التى أحرزها الإمام أحمد أثرت على تلك العلاقات تأثيرا كبيرا بطبيعة الحال. إذ أنها أدت فى نتائجها المتعددة إلى انضمام كثير من أعداء الملك والناقمين على حكمه من أعضاء الأسرة المالكة والأمراء والحكام والذين كانوا فى نفس الوقت يعجبون بالإمام أحمد كقائد، أدى ذلك إلى اعتناقهم الإسلام.

ولابد أن نشير هنا إلى أن اعتناق الإسلام فى تلك الظروف لابد أن يكون دليلا على الإعجاب بهذا القائد عند كثير من الأحباش، وقد استغل هؤلاء الأحباش الذين تحولوا إلى الإسلام نفوذهم الشخصى فى تحريض غيرهم من أفراد الجيش والشعب على الاقتداء بهم واعتناق ديانة المنتصرين ، كذلك نبذ ديانة المنهزمين الذين لايستطيعون حمايتهم في هذه الظروف[3].

وفريق آخر انتهز فرصة هذا الانتصار الساحق الذى أحرزه القائد العظيم ليعلن إسلامه بعد تردده، وهو فريق المسلمين الذين أرغمهم الملك فى حروبه الأولى وانتصاراته السابقة على

١- عبد الرحمن زكى: مرجع سابق، ص٤٧ .

٢- س . ج . سليجمان : مرجع سابق، ص١٠٦ .

٣- زاهر رياض: الاسلام فى أثيوبيا ، ص٢٠٣ .

ترك الإسلام واعتناق المسيحية كما فعل اورعى عثمان وقائده علانية حينما انضم إليه كل منهم ومعه عشرون ألف جندى مقاتل من الجالا [١].

وكان هؤلاء الجالا قد انحدروا بقبائلهم خلف جيوش الإمام أحمد والتى كانت تضم خيرة أبنائهم المقاتلين، وكان هؤلاء قد ظهروا على مسرح الأحداث فى القرن الخامس عشر، حيث اختاروا الشاطئ الجنوبى لخليج عدن، ولم يلبثوا أن اندفعوا غربا وساعدهم على حركتهم هذه معارك الإمام أحمد.

وهكذا فإن قبائل الجالا أسرعت بانتهاز هذه الفرصة فاقتفت أثره واحتلت المناطق التى اكتسبها فى معاركه وكانت النتيجة الطبيعية لذلك أن اعتنق من بقى منهم على الوثنية الإسلام، وساهموا بعد ذلك فى المعارك التى حدثت فى بلاد الحبشة الأصلية[٢].

كذلك كان هناك عامل مهم ألا وهو تصرفات الإمام أحمد الإنسانية مع أعدائه إذ كان لها أثر كبير فى إعجابهم به وبشجاعته ودخولهم فى الإسلام بعد ذلك مما يدل على اتباعه الإنسانية فى معاملاته مثلما حدث منه للقواد الأحباش، وما أروع ما قام به ازاء كبير البطاركة.

وقصة هذا القائد تدل دلالة كبيرة على أصالة وكرم أخلاق الإمام أحمد إذ أن هذا القائد عندما وقع فى أيدى المسلمين أعطاه الإمام الأمان رغم ما قام به هذا القائد من أعمال سيئة للغاية ورغم قسوته فى المعارك مع المسلمين المدنيين بالذات، فقد بر بوعده وأصر على عدم قتله.

من كل ذلك يتضح لنا أن الإمام أحمد كان قويا فى غير عنف رحيما فى غير ضعف[٣] وللجميع عبرة فى إكرامه للقائد الحبشى الذى سبق ذكره، كذلك فى إكرامه للأمير راجح الذى تنصر وسار فى فلك الملك الحبشى . كما أن الإمام كلما ناشده أن يعتدل فى سيرته وتصرفاته، رفض ذلك بعد أن أرسل إليه الإمام رسول للعفو عنه ولكنه فيما بعد عدل عن ذلك وأصبح من أحسن المجاهدين الذين شهدتهم المعارك [٤].

1- Murdock: Africa its peoples and their culture history .p. 184 .

٢- س.ج . سليجمان : مرجع سابق، ص ص١٠٧-١١٠ .

٣- حسن محمد جوهر : مرجع سابق، ص٦٣ .

٤- حمدى السيد سالم : مرجع سابق ، ص٣٨٠ .

واهتم المؤرخون كثيرا بسيرة الإمام أحمد وتحدثوا عنه فى كتبهم ، وقد قال المستشرق الفرنسى (رينيه باسيه) إن أشهر دور من أدوار التاريخ الحبشى التى بقيت أخبارها محفوظة فى أذهان الغربيين، هو دور الإمام أحمد بن ابراهيم الذى كاد أن يسحق المسيحية فى الحبشة، ويعيدها كبلاد النوبة إلى الإسلام مرة أخرى[1].

وبذلك نستطيع أن نقول إنها كانت الحروب الأولى فى تاريخ الحبشة التى ظهر فيها هذا الدافع الدينى الواضح، حتى أننا نستطيع أن نسميها الحروب الصليبية الأولى فى تاريخ الحبشة. فقد عرفنا كيف كان المسلمون ينظرون إلى زعيمهم الإمام أحمد بن ابراهيم كرجل مسلم ورع تقى، بل داعية دينى أرسله الله لنشر الإسلام وتقويض ملك الحبشة.

ومن ثم كان هم المسلمين متجها نحو إدخال غير المسلمين فى دينهم باعتناق الإسلام ودفعهم الجزية إن رفضوا ذلك، وتحويل الكنائس والأديرة إلى مساجد وإعلاء شأن الإسلام[2].

والواقع أن حركة الإمام أحمد ، مع أنها كانت قصيرة الأمد، إلا أن أثرها كان بعيد المدى فى نشر الإسلام . فقد دخل كثير من سكان الحبشة فى الإسلام ، كما أن ضغط الأحباش على الصوماليين بعد هزيمة الإمام أحمد فى نهاية حروبه دفع الصوماليين إلى الهجرة نحو مناطق الأنهار فى الجنوب، حيث اتصلوا بالجماعات التى كانت لاتزال على وثنيتها ، وخاصة بعض قبائل الجالا وفروعها وكذلك بعض قبائل البانتو الأفريقية ونشروا بينهم الإسلام[3].

لذلك كله ما أن أشرقت شمس القرن السابع عشر الميلادى حتى كان الإسلام قد عم جميع أرجاء الصومال .

١- لوثرب ستودارد : مرجع سابق، ص٣٤٢ .

٢- حسن محمد جوهر : مرجع سابق، ص٦٥ .

٣- حسن أحمد محمود : مرجع سابق، ص١٢٥ .

٤- حسن محمد جوهر : مرجع سابق، ص٦٨ .

الباب الثالث

حروب الإمام أحمد بن إبراهيم مع الأحباش

- تصدى جيوش الحبشة للإمام أحمد .
- قتل قواد الأحباش الكبار .
- زحف الإمام أحمد نحو عاصمة الحبشة .
- عودة الإمام بعد انتصاره إلى عاصمته هرر .
- محاربة الإمام أحمد للمرتدين عن الإسلام.
- زحف الإمام أحمد الثانى نحو عاصمة الحبشة ووصول جيوشه إلى بلاد النوبه .

تصدى جيوش الحبشة للإمام أحمد

فى هذه الصفحات سنتناول حروب الإمام أحمد فى بلاد الحبشة ذاتها بعد أن استطاع السيطرة على الأراضى الصومالية نفسها ووجد الإمارات كلها تحت يده ،وأصبح الصومال بالتالى يدين له بالولاء والطاعة. وهكذا نجد الإمام أحمد يغير خطته مرة أخرى بعد أن تم له تأمين جبهته الداخليه وعرف مقدار صلاحيتها ، أخذ يوجه دفة الحرب نحو الأراضى الحبشية الأصلية التى لم يجرؤ أحد من أجداده من قبل على التفكير أو العمل على غزوها .

وقد ساعد الإمام أحمد على تحقيق مشروعاته استعداده الشخصى وإيمانه الدينى العميق، وشجاعته وجرأته المنقطعة النظير، وتفكيره الحربى السليم المتطور حول ظرف ووقت المعارك التى كان يخوضها ضد أعداء يفوقونه فى العدد والقوة.

وكان للإمام أحمد ما أراد من هزيمة الجيوش الملكية الحبشية واستطاع أن يقضى عليها واحدا وراء الآخر فى كل المعارك التى خاضها على مدى اثنى عشر عاما كان كل الوقت الذى استغرقته تلك المعارك وأصبحت مناطق ضخمة من بلاد الحبشة تدين له بالطاعة والولاء مما كان له أثر كبير فى نشر الإسلام بعد ذلك[1].

ويجدر بنا هنا أن نشير إلى أننا ندين للمؤرخ العربى عرب فقيه بالفضل لما كتبه من تاريخ وأحداث معارك الإمام أحمد في ذلك الوقت، وقد ذكر لنا أماكن كثيرة فى بلاد الحبشة قلما نعثر عليها فى المراجع العربية الأخرى.

وقد استطاع الإمام أحمد كما ذكرنا سابقا أن يستفيد من رغبة الأتراك العثمانيين فى تطويق بلاد الحبشة ووقف الزحف الاستعمارى البرتغالى نحو البحر الأحمر والمحيط الهندى، وكان أن وافق على قبول المساعدات العسكرية من الأتراك فى اليمن وجدة لقربها من الساحل الصومالى، وكان لهذه المساعدات القيمة والتى كانت فى ذلك الوقت لها قيمة كبيرة نظرا لبدائية الأسلحة التى كان يستخدمها الطرفان أثر كبير فى إدارة دفة المعارك بعد ذلك.

دارت المعارك بين الإمام أحمد والأحباش فى بادئ الأمر واستطاع الإمام أحمد هزيمة الجيوش الحبشية المتفرقة حتى وصل إلى إقليم الحبشة المسيحى (التيجرى) ثم استمرت بعد

١- عبد الرحمن زكى : الإسلام والمسلمون فى شرق أفريقيا ، ص١٩ .

ذلك متفرقة دون مواقع كبيرة تذكر حتى كانت معركة بادقى، صمبر كورى ١٣٥٠هـ / ١٥٢٨م.

كانت هاتان المعركتان بداية التطور السئ الذى جلب الخراب على بلاد الحبشة بعد ذلك؛ إذ أن النتائج التى ترتبت عليهما كانت من الضخامة بحيث لم يستطع الطرفان المتحاربان تقديره فى بادئ الأمر، ولكن باستمرار المعارك بينهما شعر كل منهما بما استطاع كسبه من وراء الهزيمة والنصر فى هاتين المعركتين.

فالإمام أحمد فى هزيمته للجيوش الحبشية اطمأن إلى صلابة جيشه وحسن استعداده وإيمانه الدينى العميق بالجهاد، مما شجعه أكثر على مواصلة القتال والتوغل فى بلاد الحبشة للاجهاز عليها، ومن ناحية أخرى كان الملك الحبشى يعتقد أنها مجرد هزيمة وأن جيشه سيعوضها بعد ذلك بما لديه من أعداد السلاح والرجال وأنه كذلك لم يسبق فى تاريخ الحبشة غزو اسلامى لأراضيها المسيحية تمكن منه المسلمون[١].

وعندما سارت الأمور فى تطورها الطبيعى ووجد الأحباش أن هذا الغزو لن يعود كما بدأ مثلما كان يحدث من قبل الأمراء المسلمين، وجد الأحباش أنفسهم فى موقف لايحسدون عليه- جيوشهم ممزقة شر ممزق- ليست هناك أسلحة يقاومون بها أسلحة الإمام أحمد الحديثة[٢]. وليس هناك من الأصدقاء من يقف بجانبهم من الدول الأفريقية المجاورة إلا الأوربيين الذين وصلوا إلى شواطئ بلادهم والذين كانوا قد احتلوا المحيط الهندى وسيطروا عليه سيطرة تامة ، فكان أن أمدوهم بالسلاح والمدربين لهذا السلاح الذى لم يألفوه من قبل.

هكذا كان موقف كل من الإمام أحمد والأحباش كل منهم خلفه من يساعده على الحرب، لكن كانت هناك عوامل أخرى تؤثر فى الموقف وهى عوامل داخلية ساعدت على إنجاح خطة الإمام ؛ إذ كان هناك جيش آخر من رجال القبائل الرعوية وهى قبائل الجالا المتنقلة .

كما ذكرنا سابقا فإن جزءا من هذه القبائل كان قد أسلم والجزء الآخر بقى على دينه ، ولعدم استقرارهم فى مكان واحد أخذوا فى التنقل بحثا عن المرعى والمكان الخصب. ولكنها

١- عبد الرحمن زكى: مرجع سابق، ص٤٨ .

٢- حمدى السيد سالم: مرجع سابق، ص٣٨٥ .

استقرت فى الأجزاء المنخفضة الشرقية والجنوبية- والغربية تحيا حياتها العادية حتى إذا هزمت جيوش الحبشة كان هناك تطور آخر فى تلك الأمور[١].

الذى حدث بعد تلك الهزيمة أن الجيوش الحبشية المتمركزة فى تلك المناطق تفرقت، فأحدث تحطيم هذه القوة فراغا انساحت إليه تلك القبائل وأخذت تستوطن الأقاليم القليلة الارتفاع المحصورة بين هرر ووادى نهر هواش، كما أغرتهم تلك الظروف على الاستيطان فى أرض بالى لخصوبة أرضها وكثرة خيراتها .

هذا عن ظروف الحرب والعوامل التى تدخلت فى مقدراتها والعوامل التى ساعدت أو كانت ضد كل من المسيحيين والأحباش.

وإذا نظرنا إلى تلك الحرب من زاوية أخرى جديدة، نجد أنها الحرب الأولى فى تاريخ الحبشة التى دخل فيها إلى أرض هذه البلاد جيش أجنبى لمساعدة أحد الفريقين ضد الآخر ، هذا الأمر لم يحدث من قبل مطلقا فى تاريخ البلاد بالرغم مما حدث فى الحرب السابقة والتى لم تهدأ من قبل .

وإذا كانت هناك فى التاريخ الحبشى سابقة بسيطة تؤثر فى تلك القاعدة عندما ساعد حاكم اليمن أبناء سعد الدين حينما فروا إليه، وجهزهم وأعادهم من اليمن لمواصلة القتال ضد السلطان وضد الملك، إلا أن هذه المساعدة تمت من خارج البلاد ولم يصل الأمر فيها إلى حد إرسال جيش ليطأ أرض الحبشة ويحارب فى صف أحد الفريقين[٢].

هذا عن تقييمنا لهذه الحرب والظروف التى نشبت فيها، أما قائدها الإمام أحمد فقد جاء على لسان المؤرخين عن خوض هذه المعارك الكثير ، وقد وصفه جميعهم بأنه من أمهر القواد الذين شهدتهم الحبشة على عصورها التاريخية المختلفة وهذا يتضح لنا من وصف عرب فقيه له بقوله: «أما الامام أحمد فهو الجدير للأمور، وهو المرتب للحروب شهم إذا كر النزال هو الضروب وهو الآمر للجهاد ولنصرته الجيوش والطاعن القوى برمحه ، هو المقر لشرع الله ودين نبيه، ولربه الخاشع المرهوب على الفرائض لايزال محافظا على الرواتب لازما عنها»[٣].

١- زاهر رياض : الاسلام فى أثيوبيا ، ص٢٢٨ .

٢- زاهر رياض : الإسلام فى أثيوبيا ، ص٢٥٩ .

٣- عرب فقيه : فتوح الحبشة، ص٥٦ .

أما ما يقابل الإمام أحمد على رأس الجيش الحبشى فكان هو الملك لينى دنجل الذى ظل ينهزم على رأس جيوشه مرة وراء الأخرى، إزاء هذا الزحف الساحق من الإمام أحمد وجيوشه المتدفقة حماسة،وقد تمكن الإمام أحمد من الاستيلاء فى نهاية تلك الحرب على معظم أراضى الحبشة[1].

بدأ الإمام أحمد حروبه فى بلاد الحبشة كما جاء فى ذكره من قبل بزحف شامل منظم تنظيما دقيقا من ناحية إعداد الجيوش عسكريا واقتصاديا- يساعده فى ذلك مجموعات من الأسلحة الحديثة التى وصلته هدية من الحاكم التركى لليمن على الساحل الشرقى للبحر الأحمر- وكذلك بعض من هدايا الأسلحة والأموال التى أرسلها له حاكم مكة المسلم والذى وعده بالمزيد من ذلك فى نضاله ضد الأحباش[2].

وعندما نشبت المعارك بينهما واحتد الصراع، اكتسحت الجيوش الصومالية الحبشية وعلى رأسها الملك لينى دنجل ، وفرت هاربه تولى الأدبار دون تنظيم أو انسحاب منظم يعيد لها تنظيم نفسها فيما بعد وإنما تفرقت إلى جماعات وشرائم كل منها تتجه إلى بلدها الذى جاءت منه هاربة من تلك الحرب الضروس.

وكان أن وصلت جيوش الإمام أحمد إقليم فاتيجار وأتمت السيطرة عليه سيطرة كاملة، كذلك تم لها السيطرة على إقليم أوفات بكامله حتى دانت لها القرى والمناطق الريفية البعيدة عن المدن والعمران، ولم يبق فيها جندى حبشى واحد وأصبحت كلها خاضعة للإمام أحمد خضوعا تاما.

وكانت النتيجة الطبيعية لتلك المعارك تدمير هذه المدن والقرى بما فيها من كنائس ومساجد كل من الطرفين، إذ كان الأحباش قبل انسحابهم يعمدون إلى حرق كل ما هو موجود بالقرية أو المدينة حتى لايقع سليما فى أيدى قوات الإمام أحمد ويمكنهم الانتفاع به بعد ذلك[3].

١- عبد المنعم عبد الحليم : الجمهورية الصومالية، ص٢٠٣ .

2- Cammerer : op. cit ., p. 17 .

أنظر أيضا : عبد المنعم سيد: مهدى الصومال بطل الثورة ضد الاستعمار، ص١٦ .

3- Cornwallis Harris : Op. cit., p. 236 .

وليس أدل من وصف عرب فقيه لتلك المعارك والتى جاء وصفها فى كتابه دليلاً على ما اتسمت به من قوة وقسوة فى نفس الوقت بقوله : «تم تجهيز الإمام أحمد للغزو إى بلاد الكفرة، وجهز عساكره من الصناديد والأبطال ، ثم عقد راية حمراء وسلمها للأمير حسين الجابرى وضم إليه مائة فارس، وكانت راية الإمام وقتئذ صفراء، ورتب الإمام عساكره وأوصاهم ألا يولوا الأدبار ، ثم سار الإمام فى عسكر جرار وفرسان أبطال ما منهم إلا من يلقى مائة من الكفرة ويزيد، وشنوا الغارة إلى أن وصلوا إلى موضع يسمى (زحير دين) من بلدان المسلمين ، وبعضها للكفرة وأعدوا خيولهم وعساكرهم وشاوروا بعضهم وأجمعوا الرأى على السير إلى أرض دوارو»[١].

«ثم إن الإمام أحمد رحمه الله تعالى- قامت نيته على الغزو والجهاد ونزل أول بلد يقال لها (زرية) وهى من بلاد الحرله، ثم أرسل إلى زيلع أن يجمعوا له آلات الحرب من السيوف وغيرها، وكذلك أمرهم أن يشتروا له مدافع يريد أن يستعين بها على غزو بلاد الحبشة، فاشتروا له مراده وطلعوا له سبعة مدافع» .

ويستطرد عرب فقيه فى هذا النص لكى يصف لنا كيفية تصرف الإمام وإمداده لجيوشه عسكريا وتعبئة القبائل حوله بقوله : «وطلعت له كذلك نحو سبعين رجلا من المهرة على نية الجهاد كذلك، ثم أرسل كذلك إلى جميع الجهات من الصومال وقبائل الحرله، فقامت القبائل بأسرها واجتمع العساكر والقبائل ، وغزوا ما كان معهم من المواشى واطعموا العساكر وقرأوا القرآن ودعوا الله تعالى، وكان هذا عادة المجاهدين»[٢].

كما وصل إلى معسكر الإمام أحمد نتيجة للدعوة التى وجهها إلى الجهاد عديد من القبائل الصومالية المسلحة مثل قبيلة ٠خبر مقديى) وهى قبيلة الإمام أحمد نفسه وكان على رأسها قائدها (متيان بن عثمان) الصومالى فاظهروا ولاءهم للجهاد . والجدير بالذكر أن أخت الامام أحمد نفسه قد وصلت معهم ملبية لدعوة الجهاد من تلقاء نفسها.

ثم جاءت بعدها قبيلة (زرية) ومعهم قائدهم السلطان محمد ابن عمة الإمام أحمد وكان معه أعداد ضخمة من الرجال الأبطال قدروا بـ ١٦٠٠ رجلا .

١- عرب فقيه : مصدر سابق، ص٢٦ .

٢- نفسه ، ص٩٧ .

كما جاءت بعد ذلك قبيلة أخرى تدعى (ويحان) ولكن قائدها ويدعى (جرابو) لم يحضر لعدم رغبته فى الحرب، فما كان من الإمام أحمد إلا أن عزله فورا وعين بدلا منه قائدا لها ابن أخيه المعروف بحبهم له وشجاعته الفائقة ، وقد قدر من جاء منهم بحوالى ٣٠٠ فارس ومحارب[١].

هذا عن الاستعدادات والتجهيزات التى أتمها الإمام أحمد لبدء القتال . أما عن معاركه نفسها فإن المراجع القديمة لم توفق فى بعض تواريخ حدوثها بالضبط وإن جاء معظمها محددا بالتواريخ ؛ خاصة المعارك الشهيرة والتى كان لها نتائج خطيرة. وقد وقعت المعركة الأولى وهى معركة بادقى والتى جاء ذكرها فى الصفحات السابقة فى سنة ١٥٢٨، وكانت إلى الجنوب من هرر وكان هدف هذه المعركة السوق الحبشية فى دوارو وإقليم بالى المتصل بالسوق المذكورة.

ثم واصل الإمام بعد ذلك زحفه إلى شوا وغندار .

فى أثناء ذلك كان الملك الحبشى يفر هاربا من بلد إلى آخر والإمام أحمد يطارده ويقتل من جيوشه أعداداً كبيرة . وفى العام التالى أى سنة ١٥٢٩م سقطت مدينة بالى وهى أشهر المدن فى تلك المنطقة ودخل كثير من أبناء هذه المدينة فى الإسلام[٢].

لكن الملك لينى دنجل لم يقف ساكنا إزاء ذلك الانتصار الساحق إذ أنه تمكن بسرعة من تجهيز جيش آخر بدلا من الذى هزم فى المعارك السابقة وأصبحت نفسية جنوده فى حالة من السوء لاتسمح له بمواصلة القتال بنفس العزيمة المطلوبة وكان أن حشد هذه الحشود الضخمة على الضفة الشمالية لنهر هواش فى انتظار قدوم الإمام أحمد وجنده .

وما أن وصل جيش المسلمين إلى ضفة نهر هواش حتى توقف عن العبور لأن مياه ذلك النهر كانت مرتفعة فى ذلك الوقت من السنة، وعسكر الطرفان عدة أيام على ضفتى النهر لأن أسلحتهما كانت أضعف من أن يكون لها تأثير متبادل عبر النهر لبعد المسافة بين الصفتين[٣].

١- لوثرب ستودارد : حاضر العالم الإسلامى، ص٣٤٤ .

٢- محمد المعتصم سيد: دول إسلامية فى شرق أفريقيا، ص٣٦ .

٣- محمد المعتصم سيد : مهدى الصومال بطل الثورة ضد الاستعمار ، ص١٢ .

عندما انخفض منسوب المياه فى النهر قليلا اندفع الإمام أحمد على رأس جنده مرة واحدة فعبروا النهر إلى الضفة الأخرى وكان يقال لها أرض جيرجى ، فدهش الملك وجنده لهذا التيار الجارف من المسلمين الذين واجهوهم فجأة ولم يتمكن الملك من صد قوات الإمام أحمد ففر هاربا ومن خلفه جيشه المهزوم إلى منطقة نزارجح من أرض الداموت (١).

كانت نتيجة الهزيمة لملك الحبشة أن اجتاحت جيوش الإمام أحمد الضفة الأخرى للنهر وأخذوا معدات المعسكر غنيمة لهم، وأخذوا يستولون على ما يصادفهم من قرى ومدن دون مقاومة تذكر، وكان أهالى هذه المناطق يخيرون بين دفع الجزية أو القتل أو اعتناق الإسلام وعليهم اختيار إحدى الوسائل الثلاث (٢).

وبينما جيوش الإمام أحمد تطارد الملك الحبشى وجيوشه الهاربة وصل رسول إلى الإمام أحمد بأن أحد بطارقة الحبشة يسمى (فانيل) من أهل دوارو ومعه جماعة من القواد الأحباش، قد استغلوا فرصة اندفاع الإمام أحمد خلف الملك وقصدوا بلاد المسلمين واستطاعوا مهاجمتها وأسر عدد كبير من الأهالى إعتمادا على عدم وجود حاميات مسلحة من الجند تحرس البلاد .

عندما عرف الإمام بذلك ووصلته تفاصيل الهجوم الذى حدث وموقعه ، وكان قد وصل إلى مكان يسمى (عقم) ، أرسل الإمام إلى قواده لاستطلاع رأيهم، وقد استقر الرأى بعد ذلك على إرسال جزء من الجيش لمقاتلة هؤلاء الأحباش وتم ذلك فعلا وتقابل الفريقان وانتصر المسلمون عليهم . وكانت نتيجة هذه المعركة قتل البطريق القائد وعدد كبير من قواده وجنده وغنم المسلمون أسلحتهم وعتادهم وأطلقوا سراح الأسرى المسلمين(٣).

بعد هذه الوقائع الصغيرة المتفرقة جاءت المعركة الفاصلة والتى كانت لها نتائج خطيرة وقد سبق ذكرها فى الصفحات السابقة ألا وهى معركة بادقى والتى انتهت بهزيمة نكراء للملك الحبشى وجيوشه المتفوقة فى العدة والعدد .

١- حمدى السيد سالم : الصومال قديما وحديثا ، ج١ ، ص٣٨٧ .

2- Boxton : Travels in Africa . p. 31 .

٣- لوثرب ستودارد : مرجع سابق، ص٣٤٣ .

والجدير بالذكر أن هذه المعركة تعتبر من أكبر المعارك التى خاضها المسلمون خارج أراضى الصومال والتى كان من نتائجها الأولية ازدياد ثقة الإمام أحمد فى جنوده وتقدمه فى بلاد الحبشة بعد ذلك بروح معنوية مرتفعة واثقا من النصر.

وقد جاء على لسان المؤرخين أن هذه الموقعة كادت أن تدور الدائرة فيها على المسلمين أولا، لولا أن تداركهم الله بطلف من عنده إذ كان المسلمون بقيادة الإمام أحمد قد زحفوا نحو المدينة، لكن الملك الحبشى فكر فى حيلة يهرب بها من جيش المسلمين وأخلى معسكره وانتقل إلى مكان آخر لايعرفه الإمام.

وكان المسلمون كلما سألوا أحدا لكى يدلهم على خط سير الملك وجيوشه ، أنكر وجود أى أثر للأحباش فى تلك المناطق ، وفى نفس الوقت كان الملك الحبشى يضمر المكيدة للإمام أحمد ويعز عليه فى نفس الوقت ترك هذه المدينة ذات الأهمية الكبرى بالنسبة للأحباش ، إذْ كانت فيها بيوت الملك وخزائنه والكنائس الفخمة.

نتيجة لذلك سار إليها الإمام أحمد وفى اعتقاده أنها خالية من الجند الأحباش ، فدخلها الجنود دون تنبيه أو استعداد على أساس أنها غير محصنة وأنها استسلمت لهم بعد هروب الملك الحبشى، ولكن عندما اقتربت طلائعهم من مداخل المدينة، فوجئوا بالجنود الأحباش يخرجون من أبنيتها بأعداد ضخمة بينما كان جزء كبير منهم يتحصن فى مواقع حصينة استعدوا لملاقاة المسلمين عند دخولهم داخلها، وهكذا استطاعوا صد المسلمين عن دخولها(١).

لكن استطاع الإمام أحمد أن يستعيد سيطرته على الموقف بعد تلك المفاجأة وأعاد ترتيب جيوشه واستعد استعدادا أكثر لما لمسه من مناعة وتحصين مواقع الأحباش داخل المدينة نفسها وأراد أن يستثير حمية المسلمين قبل المعركة فوقف فيهم خطيبا قائلا لهم: «أين تفرون ؟ أتفرون من الجنة ؟ وما هو إلا أجل قد كتب . فقال له جنده : اضرب خيمتك هنا ونحن نقاتل دونك، فضرب خيمته . واجتمع المسلمون حوله ، وثبتوا فى أماكنهم بالدعاء وقراءة آيات القرآن، فضج المسلمون بالتكبير والتهليل ، فألقى الله الرعب فى قلوب الأحباش ، وولوا

١- يوسف أحمد : الإسلام فى الحبشة ، ص٣٥ .

الأدبار هاربين وتبعهم المسلمون يقتلون ويأسرون حتى اختلط الظلام وتم النصر للإمام أحمد»[1] .

وهناك وصف آخر لهذه المعركة جاء على لسان عرب فقيه كذلك فى وصف الاستعداد للحرب من جانب الملك الحبشى بقوله : «أما ما كان من الكفرة فإنهم لما عبأوا جيوشهم وزحفوا على المسلمين، وكانوا سبعة صفوف، وكان قائد الحبشة وناج سجد يومئذ فى المقدمة، كانت جنائبه أربعمائة فى اليمين، وأربعمائة فى اليسار . وفى ذلك اليوم فرقهم بالأجمع على عساكره وأخرج خزائنه وعدد الحرب من الدروع والخوذ والسيوف والرماح وفرقها على بطارقته وعساكره ، وأما خيولهم فلاتعد ولاتحصى . فحينئذ تقاربت وزحفت الزحوف ، وكان كل صف من صفوف الكفرة مثل خمسة من صفوف المسلمين مثل الشامة البيضاء فى جلد الثور الأسود. واختلط الجيش بالجيش وجردت السيوف وشرعت الأسنة ، ولم تزل الحرب بين الفريقين حتى انقلبت الحبشة على أعقابها ، قتل منهم ألوف عديدة وولوا الأدبار وهم يقتلون ويأسرون»[2].

وبعد هذا النصر الكبير، وخوفا مما حدث فى أول المعركة، حرص الإمام أحمد على أن يجند كل إمكانياته بعد ذلك فى سبيل القتال. وبعد انتهاء المعركة جمع الإمام أحمد قواده ورؤساء الجند واستعرض معهم سير المعركة : أمن أولها إلى نهايتها وكذلك الأخطار التى حدثت من القواد والجند المسلمين والتى كادت تؤدى بهم إلى الهزيمة واستقر رأيهم بعد ذلك على تجنبها وعدم الوقوع فيها مرة أخرى تجنبا للهزيمة، خاصة وأن جيوش ملك الحبشة منهارة نفسيا وعسكريا ، وهذا يساعدهم فى حربهم ضدها [3].

كذلك فإن الإمام أحمد بعد أن جهز نفسه واستعد للمسير، أمر جنوده بمواصلة السير للبحث عن الملك الحبشى وقواته التى فرت هاربة من أمامه وكانت فى نفس الوقت قد وصلته معلومات عن قوة الملك الحبشى وما تبقى من جيشه الهارب بعد هزيمته المنكره فى بادقى.

١- عرب فقيه : مصدر سابق، ص٥٧ .

٢- نفسه ، ص٥٨ .

٣- ليثرب ستودارد : مرجع سابق، ص٣٤٥ .

وقد قدرت تلك المصادر عدد جنوده بحوالى ستة عشر ألف فارس، وحوالى مائة ألفا من المشاة يستطيع جمعهم من الأقاليم التى سيمر بها أو التى سيرسل فى طلب جنودها .

وعلى ذلك فقد استعد الإمام لذلك استعدادا كبيرا حتى يقابل هذه القوى الضخمة مرة أخرى، فعمل على تنظيم صفوف جنوده على هيئة نصف دائرة أو كما نسميها فى العصر الحديث على صورة كماشة، جناح للميمنة وجناح آخر فى الميسرة وفى مركز القلب للهجوم وضع قواته الرئيسية الضاربة. وأمر الفرسان والقواد المعروفين ببراعتهم فى القتال وذلك لشدة بأسهم[١].

وبعد فترة وجيزة من انتهاء معركة بادقى الشهيرة وقعت معركة أخرى فى مكان يسمى (شيزركوه) ولم يرد فى المراجع التى كتبت عنها تاريخ اليوم أو الشهر الذى وقعت فيه ، لكن المسلمين انتصروا فيها انتصارا ساحقا بعد أن خطب فيهم الإمام أحمد وقوى من عزيمتهم ورأوا الجنود الأحباش يفرون أمامهم [٢].

وكان إجمالى النتائج التى ترتبت على هذه المعركة كما ورد فى كتب التاريخ عشرة آلاف جندى قتلوا من الأحباش من قادة الجيوش والبطارقة مائة وأربعة عشر كذلك غنم المسلمون غنائم كثيرة من السلاح والأموال والخيول[٣].

أما خسائر الصوماليين فكانت كالآتى : خمسة آلاف شهيد من الجنود، غير القواد الذين استشهدوا أثناء المعركة. والجدير بالذكر أن من بين الأسرى الذين تم للمسلمين حصرهم قائد كان صهر للملك لينى دنجل يدعى (تخلى مدخن) وعندما رفض البقاء فى الأسر فدا نفسه بخمسمائة أوقية من الذهب الأحمر فقبل منه الإمام ذلك وأطلق سراحه، لأن فلسفته فى ذلك بأن المال يمكن تجهيز المسلمين به، أما قتله فلن يفيد المسلمين فى شئ [٤].

كذلك كان من النتائج المهمة لهذه المعركة مقتل القائد (روبيل) بطعنة من سيف الإمام أحمد الذى اخترق السيف صدره ومات فى الحال. ويجدر هنا أن نشير إلى أن هذا القائد كان

١- حمدى السيد سالم : مرجع سابق، ص٣٨٣ .

٢- لوثرب ستودارد : مرجع سابق، ص٣٤٥ .

٣- حمدى السيد سالم : مرجع سابق، ص٣٨٣ .

٤- بولس سعد: الحبشة فى منقلب تاريخها ، ص٨٦ .

من أقسى القواد الأحباش على المسلمين سواء فى حالة الحرب أو السلم. وكان لايفرق فى تعذيبه بين الطفل والشيخ والرجل، فكان جزاؤه القتل على يد الإمام أحمد[1].

كان كذلك من ضمن القواد الذين أسروا فى تلك المعركة قائد اسمه عثمان ابن دار على ، وكان هذا الرجل مسلما ووالده كان مسلما كذلك، ولكنه أسر بواسطة الأحباش فى زمن السلطان محمد، فارتد عن الإسلام وصار بطريقا من بطارقة الكنيسة الحبشية وتزوج وولد له أولاد كثيرون على مسيحيته .

وعندما تم أسره بعد تلك المعركة عاد واعتنق الإسلام من جديد وجاهد مع الإمام فى معاركه التى حدثت بعد ذلك ، وكانت النتيجة لإسلامه أن آثر السواد الأعظم من جيشه أن يقتدوا به فأسلموا جميعا وهم فيما يقال نحو ٢٠ ألفا من الرجال والنساء والأطفال [2].

بعد هاتين المعركتين الفاصلتين -بادقى وشيزركوه- استطاع الإمام أحمد الاستيلاء على اقليم بالى كله وهو الغنى بالخيرات، وازدادت ثقته بنفسه وبجيوشه وزاد حماسهم للهجوم أكثر فأكثر . أما الملك الحبشى فقد فر هاربا دون أن يعرف كيف يستطيع مواجهة هذا الزحف المدمر عليه وعلى بلاده.

ويجدر بنا أن نشير إلى أن الامام أحمد كانت لديه عادة حسنة وهى أنه بعد كل معركة كبيرة أو صغيرة كان يعيد ترتيب جنده على حسب ما تصل إليه المعلومات عن عدوه وكبفية استعداده لملاقاته وعدد جنوده ونوع أسلحته والأماكن التى سيلقاه فيها، خاصة وأن الأحباش يعرفون جيدا مسالك أراضيهم والأماكن الخصبة فيها [3].

لذلك كله أعاد الإمام أحمد تجهيز قواته والاستعداد بعد أن وصلته معلومات الأدلاء الذين أرسلهم وراء الملك الحبشى وبعد إبلاغها للقواد جلس الجميع يتدارسون الموقف . واستعرض الإمام أحمد التقرير فكان يتضمن الإعداد لجيوش الحبشة والتى يستعد بها الملك لملاقاة الإمام أحمد وهى: آلاف من الفرسان المدججين بالسلاح ، كذلك آلاف من المشاة المزودين بالسلاح

١- لوثرب ستودارد: مرجع سابق، ص٣٤٥ .

٢- توماس ارنولد : الدعوة إلى الإسلام، ص١٠٣ .

٣- عرب فقيه : مصدر سابق، ص٥٤ .

الكامل ، عدد ضخم من الخيول المدربة على القتال لكى يمتطيها كل قادر على ذلك، ولما لم يبرز التقرير أعداد هذه القوات بالضبط فقد اكتفى الإمام بالإشارة إلى ذلك واستعد القواد على هذا الأساس .

ثم توالت بعد ذلك معارك الإمام أحمد مع الملك الحبشى بعد أن غزا إقليم الفيجار - تيجى- ابنارية- دواردو- أوفات مرة أخرى بعد أن عبرتها جيوش الملك فى هروبها المستمر ، وكانت جيوش الإمام أحمد تتبعها أينما رحلت.

وكانت نتائج هذه المعارك كلها فى صالح الإمام أحمد وغنم فيها المسلمون غنائم كثيرة لاتعد ولاتحصى ، وكذلك يجدر بنا أن نشير إلى أن وقوع أفراد البيت المالك الحبشى فى الأسر كان يتسبب افتدائهم بالأموال وموافقة الإمام أحمد علي ذلك، ورفضه قتلهم مطلقا بناء على نصيحة قواده[1].

استمرت الحال على ذلك من معارك صغيرة متفرقة كان للإمام أحمد النصر فيها باستمرار، مع هروب الملك الحبشي، حتى وصل الجيشان إلى قرب مدينة حبشية تسمى أنطاكية وهى ذات أهمية للأحباش لقدسيتها لديهم بسبب وجود الكنائس والأديرة فيها.

وعند وصول الإمام أحمد إلى مشارف المدينة وتأكد الملك الحبشى ومن وصول المسلمين، أرسل الملك إلى قواده يجتمع بهم ويدرس معهم الموقف، وقد وصف عرب فقيه هذا الاجتماع بقوله : «ثم جمع بطارقته وأصحابه وقال لهم قد سمعتم ما فعله بنا المسلمون- خراب أراضينا - وهزيمة جيوشنا - وقتلها - وأرسل الرسل للتجمع مع جيوشهم حتى يأتوا عنده واجتمع البطارقة والعساكر بغير حساب واستعدوا للحرب مع المسلمين مرة أخرى[2].

ولكن بعد وصول الإمام أحمد ومهاجمته الجيوش الحبشية على مشارف مدينة انطاكية، شعر الملك أن جيشه سيهزم وليس له قدرة على مواجهة تنظيم الإمام، ففر هاربا قبل أن تظهر نتيجة المعركة . وعندما شعر القواد الأحباش أن الملك فر هاربا تركوا جنودهم فى مواقع القتال وفروا هم الآخرين. وهكذا انتهت المعركة بفرار الأحباش خارج المدينة، ودخول الإمام أحمد وقواته منتصرا .

١- لوثرب ستودار : مرجع سابق ، ص٣٤٤ .

٢- عرب فقيه : مرجع سابق، ص١١٨ .

وقبل دخول المدينة جهز الإمام جنده للدخول من أبواب المدينة المختلفة خوفا من أن تكون هناك مكيدة مدبرة كما حدث فى معركة بادقى من قبل . واستطاع الإمام أحمد الدخول على رأس قواته وكان معه عند الدخول زوجته الأميرة دولنبره والقائد حسين الجاثرى ، والأمير على، والجراد احموش ، والكوشم أبو بكر ، والشيخ الزاهد حامد بن داشره وباقى القواد والأمراء على رأس قواتهم[١].

بعد ذلك ترك الإمام أحمد حامية صغيرة فى مدينة أنطاكية لحمايتها وتنظيم شئونها ، ورحل عنها لكى يطارد ملك الجيش الحبشى وتتبع أخباره أولا بأول. وقد وصلته أخبار بأن الجيش الحبشى يزداد عدده كلما فر الملك إلى اقليم من الأقاليم التى لم تصلها جيوش الإمام أحمد إذ كان ينضم إليه آلاف من الفرسان للدفاع عن بلادهم ومحاولة صد هذا الزحف الجارف.

وصل الإمام أحمد بعد ذلك فى زحفه إلى منطقة تسمى جنديله وكان يسكنها خليط من المسلمين والمسيحيين، وكان المسلمون يدفعون الجزية لملك الحبشة نظير البقاء على دينهم، فاستقبلوا جيوش الإمام أحمد بالفرحة والسرور لتخلصهم من رهبة الأحباش[٢].

وكان أن قدموا للإمام أحمد وقواته الكثير من الغلال والسلاح والشباب للحرب، وكذلك الذهب ، للاستعانة به فى الجهاد ودفع رواتب الجنود، فشكر لهم الإمام ذلك وقبله منهم وطلبوا من الإمام الموافقة على تكريمهم لزوجته الأميرة دولنبره وذلك بإهدائها بعض الحلى لتتزين بها وهى من الذهب الخالص ، لكن الإمام أحمد رفض ذلك بعد أن قبل الهدايا المقدمة للجيش[٣].

هكذا كانت نتيجة المعارك التى خاضها الإمام أحمد ، لكن جاءت ظروف مغايرة أوقفت الانتصارات مؤقتا وهى أن الإمام أحمد أصابه المرض الشديد من كثرة خوض المعارك والتنقل من مكان إلى آخر وبذل المجهود ليلا ونهارا .

١- لوثرب ستودارد: مرجع سابق، ص٣٤٤ .

٢- عبد المجيد عابدين : بين الحبشة والعرب، ص٢٠٠ .

٣- عرب فقيه: مرجع سابق، ص ص٢٧-٢٨ .

وشفى الإمام أحمد من مرضه بعد أن مكث راقدا ما يقرب من الشهر حتى استعاد صحته وقوته، فطلب عقد اجتماع لقواده، ولما اطمأن إلى حسن استعداد الجيش أمر باستيفاء ما ينقص من التموين والسلاح استعدادا لمواصلة الهجوم على الأقاليم الحبشية الأخرى.

وكان أن واصل الإمام أحمد زحفه . وكان هذه المرة يقصد أرض الداموت حيث المدن الهامة التجارية وذات المواقع الحصينة التى لجأ إليها الملك وقواده واستطاع فى فترة قصيرة الاستيلاء على مدينة مهمة من هذه المدن معروفة بثرائها وخيراتها الكثيرة وطيب المقام فيها وترك أهلها على دينهم بعد أن رغبوا فى دفع الجزية، فكان لهم ما أرادوا[١].

وهكذا ما أن وصل الإمام أحمد إلى أرض الداموت واستولى على مدنها وقراها حتى دخل كثير من أهلها فى الإسلام مثل بلاد جان زلق ، رفاله، لال ، بلاد نهر هواش، طيبوا، انطيط، كذلك فقد أعلن عدد كبير من حكام وبطارقة هذه البلاد إسلامهم مثل: ولوويلى- جيز وهم من القواد المشهورين، وقد حسن إسلامهم بعد ذلك واشتركوا فى الجهاد مع الإمام أحمد[٢].

قتل قواد الأحباش الكبار

بعد أن استطاع الإمام أحمد فتح أرض الداموت والاستيلاء على مدنها ومواقعها الحصينة واستتبت له الأمور، أرسل إلى قواده يطلب منهم (دليل) يستطيع أن يدلهم على الطريق فى رحلة الحرب المقبلة بعد تركهم أرض الداموت والتوغل فى باقى أقاليم الحبشة.

وفعلا تم له ما أراد إذ احضروا له دليلاً كان قد عاش فى هذه المناطق طوال عمره ويعرف مسالكها ودروبها ، فلما حضر بين يدى الإمام أحمد وسأله عن معرفته بطرق هذه المنطقة أجابه بالإيجاب، أبدى استعداده لتوصيل الجيوش إلى الأماكن التى تريد الوصول إليها فى أنحاء الحبشة كلها .

ولم يكتف الإمام بالأدلاء كما رأينا لمعرفة أحسن وأقصر الطرق للوصول إلى الأقاليم والمدن بل أرسل فرق الاستطلاع والتجسس لمعرفة المكان الذى استقرت فيه الجيوش الحبشية حتى يستطيع مهاجمتها من أحسن الأوضاع العسكرية حيث يحرز عليها النصر بدون خسائر كبيرة تذكر بين جنوده وقواده[٣].

١- لوثرب ستودارد: مرجع سابق، ص٣٤٩ .

2- Cornwallis Harris : op. cit., p. 236 .

٣- حمدى السيد سالم : مرجع سابق، ص٣٨٧ .

ووصلته فى تلك الأثناء من فرق الاستطلاع أن الملك الحبشى على مقربة منهم وأنه يعسكر فى آخر الأراضى بأقليم الداموت ؛ حيث اتخذ لنفسه ولجيشه موقعا حصينا يدافع منه عن نفسه، فما كان من الإمام أحمد إلا أن سار إليه قاصدا قتاله لكن الملك بمجرد أن سمع بزحف الإمام عليه خاف الهزيمة مرة أخرى والوقع فى الأسر وفر هاربا خاصة وأنه لم يكن قد أتم استعداداته الحربية لمواجهة المعركة[١].

وأراد الإمام أحمد أن يسبر غور الملك الحبشى لينى دنجل ويعرف مدى استعداداه للقتال بعد هذه الهزائم المتوالية، فأرسل له الإمام بعثة من طرفه طالبا منه أن يزوجه ابنته وتنتهى الحرب على ذلك. أما فى حالة رفضه المصاهرة فلن يترك- أى الإمام- مكانًا فى الحبشة يستطيع أن يهرب إليه إلا ويستولى عليه ؛ لكن الملك رفض عرض الزواج وأصر على الحرب مرة أخرى.

لكن ذلك الرفض ضايق الإمام أحمد كثيرا إذ أنه أراد حقن دماء المسلمين وإنهاء تلك الحرب، وصمم بالتالى على تنفيذ تهديده، فأرسل جيشا بقيادة قائد كبير يسمى عمار، استطاع اللحاق بالملك على الضفة اليمنى لنهر تكازى فى أرض وج ، فهزمه وقتل فيكتور الابن الأكبر للملك[٣]، كما قتل عدداً من قواده الكبار وأسر متياس الابن الثانى له.

كانت النتيجة الطبيعية لذلك أن واصل الملك الحبشى الهرب متنكرا فى زى لايعرفه إلا قواده المقربون إليه، لدرجة أن جنوده لم يستطيعوا التعرف عليه، لأنه فى حالة التعرف عليه بهذا المنظر ستسوء روحهم المعنوية وتتدهور ويعمدون إلى الفرار أكثر وأكثر[٤].

لذلك رأى الملك بعد فرار جنوده وقواده أن لايتعرض للإمام أحمد فى ذلك الوقت لعدم وجود القوة الكافية، وبعد أن يتم تجهيز جيش جديد يستطيع الإلتحام معه فى المعارك . وبناء

١- حمدى السيد سالم : مرجع سابق، ص٣٨٧ .

٢- نفس المرجع ، ص٣٨٩ .

3- Cammerer : op. cit., p. 31 .

٤- زاهر رياض: الاسلام فى أثيوبيا، ص٢٠٦ .

عليه اتجه إلى الشمال ليستجمع قواه وقواته استعدادا للحرب مرة أخرى غير يائس من محاولة استعادة ملكه[1].

فى نفس الوقت كان الإمام أحمد على علم بذلك أولا بأول ، إذ كان جواسيسه يخبرونه بتلك التحركات أولا بأول وكذلك بالحالة التى آل إليها الملك، لذلك صمم على مواصلة الزحف حتى لايعطيه فرصة للاستعداد أكبر من ذلك[2].

لكن تدخل عامل آخر فى ذلك الزحف عطله إلى فترة قصيرة من الوقت ألا وهو شكوى الجنود المسلمين من التعب والإرهاق الذى حل بهم نتيجة كثرة خوضهم المعارك واستمرار التقدم والزحف دون راحة تذكر .

واستجاب الإمام أحمد لطلبهم فأمر باعداد المعسكر للراحة، وبعد أن أخذ الجيش راحة كاملة واستعد استعدادا تاما للمسير، أمر الإمام أحمد بالمسير بعد أن حدد للقواد الطرق التى سيسلكونها والأماكن التى ستتجمع فيها قواته .

وكان الإمام أحمد قد قسم الجيش إلى فرقتين قويتين وذلك أثناء الراحة التى منحها لهم، إذ أعاد ترتيب قواته بعد أن عرف عددها بالضبط وإمكانياتها من السلاح والتموين وما هى المشاكل التى تعترضها . وقد عين للفرقة الأولى القائد الوزير نور الدين بن ابراهيم ، والفرقة الثانية قادها الإمام بنفسه[3].

عندما رسم الإمام أحمد خط السير لكل فرقة من فرقه سارت هذه الفرق فى الأماكن التى حددت لها ووصلت إلى مشارف معسكر الملك الذى كان قد أرسل فى نفس الوقت قائداً من قواده الكبار يدعى (أول مبرق) لاستطلاع حشود المسلمين، فلما اصطدم بهم هزموه وجنده وأسروهم[4].

هذا من ناحية قائد الملك الذى أسر. أما من ناحية الملك نفسه فعندما وصله خبر أسر قائده فإنه لزم هو وأسرته وجنوده جبلا مانعا فى تلك المنطقة لعلوه الشاهق ، وهذا الجبل له

1- Cammerer : op. cit., p. 18 .

٢- لوثرب ستوراد: مرجع سابق، ص٣٤٦ .

3- Cammerer : op. cit., p. 19 .

٤- لوثرب ستودارد : مرجع سابق، ص٣٤٦ .

طريق واحد وعلى الطريق باب مانع ، يمكن لعدد قليل من الجنود التحكم فيه تحكما تاما، ورتب فوق الجبل جنوده وقواده .

أما عن الإمام أحمد فإنهم عند وصولهم بالقرب من هذا الجبل وجدوا مدينة صغيرة تقع فى حضن هذا الجبل فدخلوها ولم يجدوا مقاومة تذكر . وأخذ الجند فى إقامة المعسكر حولها طلبا للراحة والاستجمام، وفى نفس الوقت أرسل الإمام أحمد طلائعه لاكتشاف مواقع الملك فوجده فى حصنه الحصين فى أعلى الجبل(١).

عندما عرف الإمام بما فعله الملك من تحصنه بالجبل أرسل إليه عدة مئات من الفرسان الفدائيين الذين قاتلوا أمام هذا الباب الذى يتحكم فى الطريق إلى أعلى الحصن وعندما وجد الملك أن هناك إصرارا من المسلمين على الصعود فر من الناحية الأخرى قبل الإجهاز عليه، وكان الملك قد جهز طريقًا آخر احتياطيًا لهروبه لايعرفه إلا عدد قليل من القواد وبالتالى فر منه إلى أسفل الجبل وترك الجنود تدافع عن الحصن .

وكان الإمام أحمد حريصا فى نفس الوقت على عدم هروب الملك منه مرة أخرى، فأرسل جزء من جيشه بقيادة القائد عمار الذى انتظره أسفل الجبل من الناحية الأخرى، ومع أن الإمام لايعرف أن هناك طريقًا بالفعل من الناحية الأخرى ولكن بذكائه أدرك أن الملك لايمكنه حصار نفسه فى ذلك المكان إلا إذا كان هناك مهرب عند اللزوم . وصح ما توقعه إذ أن الملك عندما شعر بحرج موقفه ، ترك جنده يقاتلون وهرب من الناحية الأخرى.

وانتظر القائد عمار حتى رأى الملك ومعه أفراد أسرته وعدد من خيرة قواده وفاجأهم بالقتال فانهزم الملك ولكنه استطاع الفرار وعدم الوقوع فى الأسر ولجأ إلى جبل قريب يعرف مسالكه واعتصم به مع من بقى من قواده، وعندما ضيق عليه المسلمون الخناق هرب مرة أخرى، وعبر نهرًا قريبًا مع قلة من قواده وأفراد أسرته وترك متاعه وسلاحه حتى يستطيع العبور بسهولة(٢).

وفى نفس الوقت أثناء هذه المعارك المحتدمة كان الأحباش من السكان يفرون أمام الجيوش المتحاربة خوفا من الموت ومن المدن المهدمة والمحترقة وكانت الأديرة من أكثر الأماكن التى

١- نفس المرجع ، ص٣٤٦ .

٢- زاهر رياض : الإسلام فى أثيوبيا ، ص٢١٠ .

يلجأ اليها الفارون وذلك لبعدها عن مسرح الأحداث . وكانت هذه الأديرة داخل جزر متفرقة داخل بحيرة تانا يمكن العبور إليها بالقوارب.

لكن الإمام أحمد لم ينسْ أن هذه المعاقل يلجأ إليها الأهالي فعلا لكن بعض القواد الأحباش والجنود هربوا إليها وحصنوها استعدادا للقتال منها والعودة إلى البلاد بعد ذلك، ولذلك صمم على القضاء على هذه المعاقل مع المحافظة على سكانها من الأهالى والرهبان.

وعندما هم الإمام أحمد بتنفيذ غرضه هذا لم يجد ما يلزمه من القوارب للعبور ، وذلك لأن الجنود فى فرارهم إلى تلك الأديرة وبعد أن وصلوا إليها سالمين قاموا بإحراقها خوفا من أن يستقلها جنود الإمام أحمد ويحاولون عبور البحيرة إليهم فيفقدون بذلك الأمان التى وفرته لهم تلك الجزر المنعزلة(١).

وفكر الإمام أحمد فى وسيلة لعبور تلك البحيرة واستطاع التغلب على هذه المشكلة باتخاذه القوارب اللازمة للغزو من جذوع الأشجار الضخمة بعد نحتها وطلائها بالقار، وهى الطريقة التى كان يلجأ إليها الرهبان أنفسهم، وتم له بذلك ما أراد من إخضاع هذه المعاقل كلها وأمن السكان على حياتهم ودينهم بعد أن قبلوا دفع الجزية وبقائهم على حالهم دون مشاركة الأحباش القتال (٢).

كذلك أرسل الإمام أحمد سرية من الفدائيين الأشداء إلى جبل شاهق العلو (جبل العنبا) وهذا الجبل يسكن فيه أولاد الملوك الأحباش . وكان من عاداتهم أنه إذا ولد ولد ذكر للملك أرسل هذا الطفل إلى الجبل وبقى فيه، لاينزل منه أبدا إلا إذا استدعى من قبل الأسرة المالكة رسميا ، حتى لايحدث خلاف فى الدولة بتعدد الطامعين فى الحكم.

كما كان من عاداتهم أنه إذا مات الملك يرسلون فى طلب الملك الجديد من هؤلاء الأمراء الموجودين بالجبل، فلا ينزل إلا من طلب فقط. وهذا الجبل لايصعد إليه إلا بسلالم عن طريق ضيق جدا لايسع إلا شخص واحد فى النزول أو الصعود.

عندما وصلت مجموعة المسلمين إلى هذا الجبل حدثت هناك عدة معارك بينهم ولكن لم يستطع أحد أن يخترق هذا الطريق وكل من حاول ذلك كان يقتل لتمكن الأحباش من السيطرة

١- زاهر رياض : الإسلام فى أثيوبيا، ص٢١١ .

2- A Lvares: op. cit., p. 140 .

على تلك السلالم الضيقة وهم فى أعلى، فما كان منهم إلا أن تركوهم فى هذا المكان بعد أن عرف الإمام أحمد أنه ليس منهم خطر يذكر .

أما الملك الحبشى فإنه فى فراره الدائم ورعبه من ملاقاة الإمام أحمد وجنوده، فقد استقر رأيه على الاستنجاد بكبير بطارقة الحبشة والذى كان يقيم فى منطقة تسمى (نزارجح) وهو يدعى (وسن سجد) وكان هذا الرجل معظما لدى الأحباش يخشون قوته أكثر من خشيتهم لقوة الملك.

كما أن الملك قبل وصوله إليه عرض عليه أخبار تقدم الإمام أحمد وتفاصيل معاركه السابقة مع والغرض الذى يصمم الإمام أحمد على تحقيقه ألا وهو القضاء على المسيحية ونشر الإسلام ، وكان الملك يقصد بذلك استثارة حميته ودفعه إلى القتال[1].

فما كان من البطريق إلا أن امتثل لأمر الملك واستعد للقتال وأرسل رسالة إلى الإمام يأمره فيها بالعودة إلى بلده، والاكتفاء بما غنمه فى معاركه السابقة . وهو هنا يقصد أن يذكر الإمام أحمد بأن أجداده من قبله كانوا يغزون لمجرد الحصول على الغنائم والعودة وأنه يستطيع العودة مكتفيا بما غنمه حتى ذلك الوقت وأرسل له رسالة هذا نصها :

«أما بعد أنتم المسلمون ونحن النصارى، وقد كنا نسير إلى بلادكم ونخربها ونحرقها ، والآن فقد أدلكم الله علينا، وأنت تقول فى نفسك وتحدثها أنك هزمت الملك فى موقعة (صمبركور) وتقول كذلك فى بادقى وأنطاكية، وقتلت جيوش الملك، والآن لا تغتر بنفسك ، وجيوش الملك عادت إلى حالها، ومعه الآن جيوش كثيرة ما رأيتها قبل هذا، ولاسمعت بها ، والآن إرجع إلى بلدك مع غنائمك وذهبك فإن أبيت فالقتال بيننا وبينك»[2].

وكان أن رد عليه الإمام أحمد برسالة مثلها هذا نصها:

«بسم الله الرحمن الرحيم، الحمد لله وحده . والصلاة والسلام على النبى محمد الذى لا نبى بعده، من الإمام أحمد بن ابراهيم الغازى إلى ملك الحبشة ، أما بعد السلام على من اتبع الهدى، وأطاع الملك الأعلى . فإذا وصل كتابى هذا إليه أرسل إلى بالأسيرين اللذين أسرهما

١- لوثرب ستودارد : مرجع سابق، ص٣٥٢ .

٢- عرب فقيه : مصدر سابق، ص١٤٣ . أنظر أيضا : لوثرب ستودارد : مرجع سابق، ص٣٤٩ .

البطريق فإن عقل ، أحدهما أبوبكر بن مسلم والآخر ملنى، فإذا أرسلت بهما إلى أرسلت لك البطارقة المأسورين وهم أربعة: جرجيس- كفيلة- نصر صاحب المرجاى- شوتلاى- هؤلاء أربعة وأصحابى اثنان، فإن المسلم بعين المسلم- الكافر بعين الكافر- وأنت لاتحسبنا مثل الأول نغزوا ونرجع ، وأما الآن فنحن مراجعون حتى يفتح الله علينا بالبلاد إن شاء الله تعالى أو نموت حتى يحكم الله بيننا وهو خير الحاكمين»[1].

وهكذا لم يكن بين الإثنين بعد أن تبادلا الرسائل بينهما وعرف كل منهما موقف الآخر إلا الحرب واستئناف القتال . وأسقط فى يد البطريق وسن سجد والذى اعتقد أنه بتهديده للإمام أحمد سيعود إلى بلاده ويخاف من قوته على اعتقاد أنه مثل آبائه وأجداده يكتفى بالغنائم والسبايا ويعود إلى بلاده محملا بها.

ولم يكن يعتقد فى نفس الوقت أن الأمر أعمق من ذلك وأن الإمام أحمد لن يوقفه شئ مثل هذا الاعتقاد، وهكذا فإنه أراد الخروج من ذلك المأزق بأن اتفق مع الملك على استمرار الهروب أمام الإمام أحمد على أن يتبعه الإمام بجيوشه . وفى نفس الوقت يسير هو تاركا الملك بجيوشه مسرعا خلف الإمام أحمد على أن يهاجم هرر عاصمة الإمام منتهزا فرصة عدم وجود حامية كبيرة فيها وانشغال الإمام أحمد فى مطاردته للملك. وكانت تلك الخطة على أمل أن يعود الإمام أحمد عندما يعرف بذلك الهجوم إلى بلاده تاركا الحبشة نفسها، وفعلا استمر الملك الحبشى فى الهروب أمام الإمام، ونفذ البطريق وسن سجد الخطة كما اتفق عليها[2].

ومن ذلك كله نرى أن الاثنين اتفقا على الغدر بالإمام أحمد ليس فى ساحة القتال إنما بطريق الخديعة ولكن فى نفس الوقت كان الله يدبر أمرا آخر. إذ إن الوزير عدلى على رأس جيوشه كان يسير فى أرض الداموت للاستيلاء على ما بقى فيها من معاقل ، وبينما هو سائر بجيوشه إذ هو يرى خياماً مضروبة على شكل معسكر وفيها عدد كبير من الأحباش وقوادهم بينهم، وعرف من فرق استطلاعه أن قائد هذه الجيوش هو البطريق وتاج جان ومعناه (أسد الملك) باللغة الحبشية.

١- عرب فقيه : مصدر سابق، ص١٢٨ .

٢- لوثرب ستودارد: مرجع سابق، ص٣٥٠ .

كان هذا القائد معروفًا بالشجاعة والبراعة فى القتال فلم يترك الوزير عدلى هذه الفرصة وانتشر عليهم دون سابق إنذار وهم فى خيامهم وبعد قتال عنيف استطاع المسلمون قتل القائد وتاج جان وحينئذ انهزم الأحباش وفروا هاربين تاركين أسلحتهم ومعداتهم.

كانت النتيجة الطبيعية لتلك المعركة خسائر كبيرة فى الجنود القتلى والأسرى، إذ بلغ عدد القواد الذين أسرهم الوزير عدلى بعد تلك المعركة نحو ثلاثين قائدا ، وقد قتل القائد قاسم بيد جندى مسلم صوب إليه سهمًا أرداه قتيلا وهذا القائد الحبشى كان شديد التعصب ضد المسلمين مع أنه كان مسلما وتنصر على يد الأحباش وعينوه حاكما على إقليم التيجرى والعنفوت .

وتلى وفاة البطريق وتاج جان والبطريق قاسم تحول جيوشهم إلى الإسلام على يد الوزير عدلى بعد أن شعروا بحسن المعاملة فى الأسر ، وكان لهم شرف المشاركة فى الجهاد بعد ذلك فى المعارك التى تلت ذلك[١].

أما عن الإمام أحمد وفرقته التى سار بها يقصد الملك الحبشى، فإنه بواسطة الادلاء وفرق الاستطلاع، استطاع السير بالجيش فى مسالك وأكثر طرق الحبشة الوعرة ، حتى وصلوا إلى مدينة صغيرة تسمى انطاقية – وهى غير مدينة انطاكية التى سبق ذكرها والتى استولى عليها المسلمون من قبل– وعندما هاجموها لم يجدوا بها من الجند الأحباش إلا عدداً قليلاً بهم إصابات من جراء المعارك السابقة ولم يستطيعوا الفرار مع الملك، فعفا عنهم الإمام أحمد وأمر فرق الإسعاف التى كانت فى مؤخرة جيشه بتقديم ما يلزم لهم، وتم ذلك، فكان أن أسلم الجند وبعد شفائهم انضموا إليه للمشاركة فى الجهاد.

وبينما هم كذلك إذ وصل رسول من الوزير عدلى يبشر الإمام أحمد بالنصر على البطريق وتاج جان فسر المسلمون لذلك سرورا عظيما ودقت طبول الفرح إيذانا بالنصر وعلامة عليه[٢].

وهكذا واصلت جيوش الإمام أحمد مسيرتها من نصر إلى نصر فى مختلف أنحاء الحبشة حتى وصلت إلى أرض يقال لها (نوت) . ولكن أهلها عندما وصلهم خبر وصول جيوش الإمام أحمد لم يكن فى تفكيرهم القتال مثل سكان باقى الأقاليم وإنما طلبوا الأمان، وعندما وصلت

١– عرب فقيه : مصدر سابق، ص١٥٨ .

2- Cammerer: op. cit., p. 17 .

جيوش الإمام أحمد وأعطتهم الأمان بعد أن دفعوا الجزية وبقوا على دينهم ولهم حرية ارتياد كنائسهم وشعروا بحسن معاملة المسلمين أدى ذلك إلى اعتناقهم الإسلام وحسن جهادهم بعد ذلك . وكان تعدادهم ما يقرب من ألف فارس وأربعة آلاف من الجنود المشاه(١).

والجدير بالذكر هنا أن قائد هذه المنطقة كان يسمى (اييس الحطى وكان قد أبى أن يعتنق الإسلام قبل ذلك عندما أرسل إليه الإمام أحمد يأمره بالتسليم، وأرسل إلى الإمام أحمد رسالة يقول فيها ردا على رسالته: «أنا ما جئت لهذا ولا أفارق دينى الذى مات عليه آبائى وأجدادى». فرد عليه الإمام : «أأنت أحسن من هؤلاء الذين أسلموا» فرد عليه : «هؤلاء بدو لايعرفون دينهم ولا دينكم ، فإن أسلموا فلا عار عليهم، أما أنا إذا أسلمت يعيرنى الناس عند الملك وعند الرهبان» فقال له الإمام: «لا تفعل فأنت كبير النصارى بيننا وبينك معاهدة». وذلك لأن جارية الإمام أحمد (هاجرة) كانت ابنة عمه فأبقاه الإمام على دينه أسيرا(٢).

أما البطريق وسن سجد والذى جاء ذكره قبلا على أنه اتفق مع الملك الحبشى على الغدر والخديعة للإمام أحمد فإنه سار لتنفيذ خطته نحو بلاد الصومال خلف جيوش الإمام أحمد والذى كان فى ذلك متوغلا فى قلب بلاد الحبشة .

وعندما وصل إلى تجمعات السكان المسلمين ومدنهم أخذ يستثير حمية جنوده خاصة وأنه لم يكن هناك إلا حاميات صغيرة جدا للمحافظة على الأمن فقط وليست للدفاع ضد هجوم خارجى ، خاصة وأن الأمر كان مستتبا والحالة العامة هادئة وليس هناك تخوف من خروج أمير أو سلطان على الإمام أحمد (٣).

وأخذ هذا القائد يخطب فى جنوده قائلا : «كيف ترضون أن يفعل بكم المسلمون هذا، وقد مات آباؤكم وأجدادكم وما فعل بهم المسلمون مثلما فعل هذا الرجل (يعنى الإمام) وما هذا إلا من ظلمكم وجوركم وتسلط الله عليكم، هؤلاء المسلمون أخربوا عليكن بلاد دواردو- فطيجيار - فبداقي - فبراره، وضربوا الكنيسة التى فيها بطريركة والتابوت الذى فيه جسم البطريق . فلما سمعوا منه هذا الكلام قالوا أمرنا بما تشاء فنحن نقاتل المسلمين ونموت بين يديك. فقال لهم: مضى ما مضى فكونوا بعد الآن رجالا».

1- Ibid., p. 19 .

٢- لوثرب ستودارد : مرجع سابق، ص٣٥٠ .

٣- عرب فقيه : مصدر سابق، ص١٥١ .

ومن هذا نرى أنه كان شديد الذكاء والدهاء فقد استغل عنصر الدين ودفعهم للقتال، فلما سمع الجنود منه هذا الكلام حزنوا أشد الحزن وأخذوا يبكون بالدموع وقالوا له «ما كان ننتظر إلا أنت والآن قد وصلت إلينا ونحن نموت معك ونقاتل المسلمين بين يديك». فقال لهم: «حينئذ الآن مضى ما مضى وكونوا رجالا بعد هذا قاتلوا عن نعمة الملك وعن دينكم وبلادكم»(١).

وسار البطريق بعد ذلك حتى وصل إلى منطقة مهمة لها أهميتها العسكرية بالنسبة للطرفين سواء المسلمين أو الأحباش ، وانتظر حتى يجئ الوقت المناسب للهجوم مع عدم علم المسلمين قاطنى هذا المكان. وعندما استعد استعدادا كافيا أمر بالهجوم على السكان من جميع الجهات .

وهنا فوجئ السكان المدنيون والحامية الصغيرة التى كانت معهم ؛ واستمر القتال بينهم لعدة ساعات ولكن لعدم تكافؤ قوة الإثنين كانت الهزيمة من نصيب المسلمين رغم القتال المشرف الذى قاوموا به هذه الأعداد الضخمة من الأحباش وسقطوا بين أسير وقتيل وجريح .

عند انتهاء المعركة مباشرة استطاع أحد الجنود المسلمين الفرار من الأسر وأسرع إلى خارج المنطقة هربا من القتال وأثناء فراره رأى عدداً كبيراً من الجنود ويسيرون فى غير اتجاه مدينته وعرف أنهم مسلمون من لباسهم وزيهم ، فاستنجد بالقائد لإنقاذه وإنقاذ مدينته، وعندما سمع القائد المسلم والذى كان فى ذلك الوقت يسمى الجراد عابد، استغرب لوجود الأحباش فى تلك المنطقة ولم يصدق الرجل إلا بعد أن أرسل عدداً من الأدلاء لمعرفة الخبر الصحيح.

عندما وصل الأدلاء وأكدوا ما ذكره الرجل من أن هؤلاء المغيرون هم من جند الأحباش عرف أنها خدعة يراد بها طعن الإمام فى ظهره لكى يهتم ببلاده ويترك بلاد الحبشة الأصلية . فأسرع بجيوشه وفاجأ الأحباش الذين كانوا بدورهم لايعتقدون فى وجود قوات مسلحة بهذا العدد، وأخذهم الجراد عابد على غرة وأوقع بهم الهزيمة الساحقة(٢).

وقد روى عرب فقيه تفاصيل تلك القصة بقوله: «إن القائد الحبشى عندما رأى الجنود المسلمين يهاجمون جنوده ذهل من تواجد هؤلاء بهذه السرعة، إذ كان يعتقد أنه بينهم من

١- نفس المصدر، ص١٥٥ .

٢- عرب فقيه : مصدر سابق، ص١٦٩ .

المسافة أيام كثيرة وأن خطته نجحت بالكامل ، ولذلك عندما رأى قائد المسلمين أخذ يسبه ويشتمه ويوجه إليه ألفاظًا قذرة لضيقه من إفساد الخطة كلها .

وقامت بينهم على إثر الشتائم مبارزة حامية إذ رفض القائد الحبشى التسليم بعد مقتل جنوده، وأصيب الجراد عابد بجرح كبير، ولكنه استطاع أن يسقطه عن فرسه، وعندما طلب منه ذكر اسمه، قال له لاتقتلنى أنا وسن سجد قائد الملك. فلما رأى المسلمون أنه جريح هللوا وكبروا، وفر إلى الجبال من استطاع الهرب من الأحباش(١).

وأراد البطريق وهو ملقى على الأرض استعادة شجاعته ورباطة جأشه وأن لايهرب جنوده من خلفه لكونهم رأوا هزيمته، فإذا به يصبح : الخ بلا الخ بلا – أى أنا حى بلغة الحبشة– ولكن جنوده كانوا قد انهزموا وفروا هاربين.

وهكذا استطاع الجراد عابد إفساد خطة البطريق من أولها وقبل أن يستفحل خطره على بلاد المسلمين خاصة وأنها خالية من السلاح ومن الجنود، وطلب الجراد عابد من البطريق أن يسلم نفسه أسيرا ولكنه رفض وأصر على أن يقتله . ولما رفض ذلك أخذ فى الشتيمة والسب بألفاظ بذيئة ورفض التحرك من مكانه على الأرض، فلم يجد الجراد عابد بدا من قتله وتم ذلك فعلا .

ولكن الإمام أحمد غضب لذلك وعاتب الجراد على ذلك العمل وكان قد طلب منه أن يأتى به أسيرا ولكن الجراد عابد شرح له ما حدث منه مما اضطره إلى قتله (٢).

بعد هذا النصر الكبير على كبير بطارقة الأحباش وسن سجد وجيوشه القوية قرر الإمام أحمد بعد أخذ رأى مجلس شورى المسلمين متابعة الجهاد وعدم التوقف حتى يتم القضاء على الملك الحبشى تماما .

لكن القواد المسلمين التمسوا من الإمام السماح لهم ولجنودهم بالراحة لأن فرق الجند ظهر عليها الأعياء من كثرة المعارك والزحف المتواصل. فكان أن وافقهم على رأيهم وأمر بناء على ذلك بفترة راحة وأمر فى أثناء ذلك باستدعاء الأسرى الذين أحضرهم الجراد عابد من معركة وسن سجد لكى يستعرضهم بين يديه .

١– عرب فقيه : مصدر سابق، ص١٧ .

٢– لوثرب ستودارد : مرجع سابق، ص٣٤٦ .

عندما أحضروا له الأسرى طلب من الجراد عابد أن يعرفهم به شخصيا لأن فيهم بعض القواد الأحباش الكبار، وكان منهم البطريق (جان نهد) والبطريق قاسم صاحب جان– وكان ذا بطش وقوة – وأتعب المسلمين تعبا شديد حتى استطاعوا القبض عليه فى المعركة، وبعد أن تم استعراضهم سمح لمن افتدى نفسه بالذهاب إلى بلاده بعد أخذ التعهد عليه بعدم المشاركة فى القتال والهدوء والإخلاد إلى السلم وإلا فمصيره القتل بعد ذلك[١].

وما زال الإمام أحمد طوال هذا الوقت يضيق الخناق على الملك لينى دنجل وهذا يهرب منه فارا هائما على وجهه حتى وصل الإمام مرة أخرى إلى أرض دواردو المسلمة من الجهة العليا لنهر شبيلى وقد تصدى له بطريق من بطارقة الحبشة الأشداء يدعى (جواثر) [٢].

ونشبت بينهم معركة كبيرة أبدى فيها هذا البطريق شجاعة نادرة ولكن جنده خذلوه فى المعركة واستطاع الإمام التغلب عليه وذلك بعمل حيلة بارعة من جندى مسلم كان يعرفه شخصيا – سمح له الإمام أحمد بالهروب واللحاق به– وأثناء المعركة أسقطه عن فرسه واستطاع تعجيزه عن القيام مرة أخرى فوقع أسيرا .

وبعد هذه المعركة مباشرة وصلت قوات الإمام إلى مدينة تسمى (مى فليح) وكان حاكمها أصله مسلم ونصره الأحباش بعد الاستيلاء عليها وأعلن إسلامه قبل وصول الإمام أحمد إلى بلده مباشرة واشترك بعد ذلك فى الجهاد مع جيوش الإمام وجيوشه التى انضمت إليهم[٣].

وهكذا فإن الإمام أحمد تم له إرسال جيوشه وقواده إلى مختلف أنحاء الحبشة حتى وصلت إلى جنوب السودان، واستطاعوا الاتصال بسلاطين المسلمين هناك والذين أقاموا دولتهم الإسلامية حول سنار وجنوبها قبل ذلك بنصف قرن[٤].

وفى سنة ١٥٣١م كان قد تم للإمام أحمد الاستيلاء على دوارو وشوا وأمحرا ولاسنا وفى

1- Trimingham : op. cit., p. 87 .

2- Ibid . op. cit., p. 87 .

٣– حمدى السيد سالم : مرجع سابق، ص٣٤٩ .

٤– زاهر رياض: تاريخ أثيوبيا ، ص٩١ . انظر أيضا : حسن أحمد محمود : انتشار الإسلام والثقافة العربية فى أفريقيا، ص٤٦٥ .

سنة ١٥٣٣م استعاد مرة أخرى الإمارات الإسلامية القديمة مثل بالى هديه- سدامه[1] وبات هذا الفتح لا يمكن مقاومته حتى وصل إلى اقليم التيجرى الحبشى، مما اضطر الملك إلى الفرار إلى جوجام. لكن جيوش الإمام استطاعت الوصول إليه بعد قليل[2].

زحف الإمام أحمد نحو عاصمة الحبشة

بعد أن هرب الملك الحبشى أمام جيوش المسلمين وسار الإمام أحمد وجيوشه إلى بلدة (اندونته) وهى قرية الملك نفسه، وكان فيها قصور ضخمة ليقضى فيها وقتًا ممتعا من السنة هو وعائلته ولكن بدخول المسلمين إلى البلدة ونشوب المعارك فيها بين الطرفين دمروا تلك القصور وأخذوا نفائسها .

وعندما أيقن الملك بهزيمة جنده فر من قصره إلى جبل ذا علو شاهق بالقرب من البلدة واعتصم به لحين سماح الوقت بفراره وأخذ ينظر إلى قصوره وهى تحترق يعتصره الألم الشديد، وأخذ يبكى تنفيسا عن حزنه الشديد، فما كان من باقى أفراد أسرته إلا أنهم أخذوا هم الآخرين فى البكاء والعويل[3].

لكن هذا الحزن لم يمنعه من التصميم على الهرب وعدم والاستسلام لجيوش المسلمين على أن يستطيع فى فراره هذا جمع جيوش أخرى وهزيمة الإمام أحمد واستعادة ملكه مرة أخرى. وهكذا تغلب على حزنه ونزل من الجبل فارا وعبر نهر هواش واتخذه حائلا بينه وبين الجنود المسلمين فى فراره .

عندما تم للإمام أحمد وجنده تطهير القرية من الجند الأحباش واتمام السيطرة عليها بحثوا عن الملك فعرفوا من فرق الاستطلاع أنه هرب من أعلى الجبل وعبر نهر هواش هو وأفراد أسرته وبعض قواته وقليل من جنده. وعندما حاولوا العبور خلفه وجدوا أن النهر يفيض على جانبيه وبه تيار متدفق شديد، يتعذر عبورها للأعداد الضخمة من جيوش المسلمين ومعداتها الكثيرة[4].

١- راشد البراوى: الصومال الكبير حقيقة وهدف ، ص٢٢ .

2- Trimingham : op. cit., p. 87 & Cammerer: op.cit., p. 18 .

٣- زاهر رياض: تاريخ أثيوبيا، ص٩٧ .

٣- لوثرب ستودارد : مرجع سابق، ص ص٣٤٨-٣٤٩ .

وبعد فترة قصيرة انخفض فيها منسوب مياه النهر استطاعت بعض فرق الجند من المسلمين العبور إلى الضفة الأخرى، وواصلت زحفها خلف الملك حتى وصلت إلى أرض (ورب) وكان الملك عند وصوله إليها قد جمع بعض الأموال والجند واستأنف الهروب خوفا من اللحاق به .

وعندما وصلت الفرق إلى هناك وعرفوا بهروب الملك بحثوا عن المواقع التى تحصن فيها الأحباش ذات المناعة وقضوا عليها حتى لاتكون فى مؤخرة قواتهم جيوب للأحباش يهاجمون منها بعد ذلك.

وعندما وصل الإمام إلى اقليم ورب هذا وعرف بما تم فعله من الملك الحبشى وهروبه، أمر الجند بإقامة المعسكر وأخذ قسطًا من الراحة يكفى بعد ذلك لمواصلة المسير وجاء الأدلاء إليه أثناء راحته وعرّفوه أن هناك على البعد كنيسة كبيرة، كان الأحباش يتخذونها مقرا لهم لحصانتها و، مناعتها إذ أنها على ارتفاع شاهق كما كانت هذه الكنيسة لملك من أجدادهم يسمى اسكندر .

عندما سمع الإمام أحمد ذلك الكلام ورغب فى رؤيتها والفرجة عليها، فذهب إليها ودخلها ووجد بها آنية من الذهب الخالص وعدة كتب دينية منها الانجيل الذى كان ورقه من الذهب الخالص وكان هذا الكتاب من الثقل بحيث لايستطيع حمله إلا رجلين معا، فأمر الإمام أحمد رجاله بالمحافظة على المحتويات دون أن يمسها أحد[1].

بعد ذلك سار الإمام إلى بلدة صغيرة كان قد أرسل إليها أحد قواده ويسمى (شمشوان) وعند وصوله إليها عرض على أهلها القتال أو دفع الجزية أو الإسلام . فما كان منهم إلا أن دخلوا فى الإسلام وحسن إسلامهم بدليل اشتراك شبابهم فى القتال بعد ذلك ضمن جيوش الإمام أحمد[2].

أما ملك الحبشة فإنه بعد أن عبر نهر هواش وصل إلى أرض إقليم (وج) ورفض نصيحة قواده بالقتال وذلك بسبب عدم ملائمة الوقت لذلك، إذ كان المطر ينهمر بشدة مما يعطل تجهيزاته واستعداداته الحربية التى كان حاكم الإقليم قد استعد بها من قبل لمواجهة الإمام أحمد عند اقترابهم من أرضه .

١– لوثرب ستودارد : مرجع سابق، ص٣٥٠ .

٢– زاهر رياض: تاريخ أثيوبيا، ص١٠٥ .

وفى تلك الأثناء وأثناء تلك الاستعدادات وصله خبر مقتل قائده وسن سجد فحزن الملك حزنا شديدا عليه لأنه كان يعتبره ساعده الأيمن فى حربه ضد الإمام أحمد، وكان يعتمد عليه اعتمادا كبيرا ؛ إذ أن لديه أكبر قوة من الجيوش الحبشية فى الأقاليم كلها بعد جيوش الملك الخاصة[1].

كان لهذه الخسارة الفادحة أثر كبير على نفسية الملك والقواد الأحباش، ولذلك استدعى جمع بطاركته وقواده لمشاركته الرأى ومعرفة ماذا يجب عليه فى المرحلة المقبلة، وعندما حضروا الاجتماع شرح لهم الموقف من جميع جوانبه وطالبهم بإبداء الرأى والمشورة فأشاروا عليه بالتوجه إلى بيت امحرا وهى عاصمة ملكه وبناء الاستحكامات هناك والاستعداد للقتال فإما الموت وإما النصر على المسلمين[2].

وهكذا فإن الملك الحبشى بإجماع آراء قواده وبطاركته استقر الرأى على المسير إلى بيت امحرا وهى عاصمة الملك لاتخاذها كقاعدة لصد هجوم الإمام أحمد المرتقب عليهم . وقد جاء وصفها على لسان عرب فقيه ما يلى: «وإن بيت امحرا هى أرض واسعة الأرزاق والجبال فيها دائرة وهى بين الجبال ولها طرق وأبواب فى الجبال وهى دار ملكهم، ولم يكن لهم طريق إلا عليها أبواب وحراس، ولها خمسة أبواب وكل باب فيه جيش عليه أن يقاتل المسلمين. وكان فى بيت امحرا كنيسة لم يكن مثلها فى بلاد الحبشة كلها ، بناها الملك نادر أبو الملك لينى دنجل وبذل جهدا فى بنائها- عملها- شغلها ورصعها بالذهب وجلس على بنائها ثلاثة عشرة سنة، ومات ولم يفرغ من بنائها ، وعمل ابنه بعد ذلك على أن يكمل بناءها فى خمسة وعشرين سنة، كان طولها مائة ذراع وعرضها مائة ذراع وعلوها مائة وستين ذراعا، كلها بالذهب مرصعة بفصوص الجواهر واللؤلؤ والمرجان وكان قبر الملك نادر بن إدرباس بن زرء يعقوب فيها[3].

هكذا كانت أهمية هذه المدينة للملك ولموقعها الحصين فقد اختارها الملك لمعركته القادمة. وقام على إثر ذلك بتوزيع جيشه على أبوابها لحمايتها ، ثم قام هو وقواده بتفقد الأماكن

١- عرب فقيه : مصدر سابق، ص١٨٨ .

٢- لوثرب ستودارد: مرجع سابق، ص٣٦٠ .

٣- عرب فقيه : مرجع سابق، ص١٨٩ .

الأثرية ذات المواقع الاستراتيجية فيها، ثم زار قبر والده، وصمم على أن لايتركها فى أيدى المسلمين مهما حدث وشجعه قواده على ذلك بكثير من الكلام الحماسى يصفه لنا عرب فقيه «المسلمون لايصلون إلى هنا أبدا، ونحن نقاتل دونها حتى نموت»[1].

وهكذا استعد الملك الحبشى وقواده ومن خلفهم جيوش الأحباش التى تم جمعها من مختلف المناطق حول تلك المدينة العامرة وتحصنت جميع الأبواب والمداخل حتى الجبال العالية المحيطة بالمدينة لم يتركها القواد بل وضعوا فيها عدد من الجند لحمايتها خوفا من تسلق المسلمين للجبال وامتلاكهم لها وتهديدهم المدينة من أعلى وبذلك اعتقد الأحباش أن المسلمين لن يستطيعوا اختراق تلك التحصينات [2].

وعندما وصلت جيوش الإمام أحمد إلى مشارف العاصمة وخرجت فرق الاستطلاع رأت أن المدينة محصنة تحصينا قويا وفعالا لايمكن اختراقه بسهولة، لكن الإمام أحمد جمع قواده وسرح لهم الوضع على الطبيعة واقترح عليهم وضع كل الحلول السليمة لكيفية مهاجمة المدينة والاستيلاء عليها.

وانتظر الإمام أحمد بناء على مشورة قواده استكمال قوة المسلمين والتى كانت تزداد عددا كل يوم بما ينضم إليها من الجيوش القادمة من بعيد حتى اكتملت الجيوش واستعدت للهجوم بكامل قوتها، ونشبت المعركة فى أول الأمر متفرقة وكانت بمثابة مناوشات يعمل كل طرف منهم على جس نبض قوة الاخر ومدى صلابته ونقط الضعف فيه.

استمرت المناوشات مدة طويلة حتى استقر الرأى بين القواد المسلمين على نقط الضعف فى دفاعات الأحباش، وبعد ذلك أمر الإمام أحمد جنوده بالهجوم للمعركة الكبرى على جميع جبهات المدينة. وكان أن نشبت معركة ضارية بينهم.

استمرت المعركة عدة أيام أمام أبواب وأسوار المدينة العالية ولكن عزيمة المسلمين وصلابتهم أفسدت على الأحباش خطتهم فى صدهم ومحاولة وقف تقدمهم وعندما شعر الأحباش بعدم جدوى مقاومتهم لذلك الهجوم الجارف أخذوا فى التقهقر من الأبواب وفتحها المسلمون وتدفقوا منها إلى داخل المدينة[3].

١- لوثرب ستودارد: مرجع سابق، ص٣٥١ .

٢- عرب فقيه : مرجع سابق، ص١٩٠ .

٣- عرب فقيه : مصدر سابق، ص٣٩١ .

وعندما رأى الملك الحبشى هزيمة قواته ودخول المسلمين أبواب المدينة جمع أفراد أسرته وبعض قواده وأمر جنوده بالهرب من المدينة كيفما اتفق ومن استطاع منهم التصرف، وترك ميدان المعركة بدون قائد، وسرعان ما انهارت دفاعات المدينة حتى التى لم يسقط منها بعد وسلم المدافعون عنها أسلحتهم وأنفسهم أسرى إلا من هرب منهم إلى المنازل والجبال ليحتمى بها[1].

عندما أيقن الإمام أحمد بالنصر أرسل المنادى ينادى بالسماح للجنود بدخول المدينة مع المحافظة على أهلها وخاصة النساء والأطفال والشيوخ ولايقتل أحدا إلا إذا تصدى للمسلمين بالسلاح والجميع فى أمان لحين البت فى أمرهم ومصيرهم بعد ذلك .

عندئذ تجمعت الجيوش وعلى رأسها القواد وفتحت الأبواب المغلقة وتدفقت الجيوش إلى الداخل وأمامها أعلامها مرفوعة وتهليل الجنود للنصر يسمع من أعالى الجبال، وتوجه الإمام أحمد فور دخوله المدينة إلى كنيستها[2] للمحافظة على الموجود فيها من نفائس ، وأمر قواده بعدم التعرض لأى من التحف الموجودة بها وعقاب كل من تسول له نفسه إفساد وتحطيم أى شئ منها .

وقد صاحب دخول الإمام أحمد ذلك اليوم برد شديد قاس لم تعرف الحبشة له مثيلا مما أدى إلى موت كثير من الأحباش سواء من الأهالى أو من الجند أنفسهم وكذلك من الجند المسلمين لعدم تعودهم على هذا البرد الشديد لدرجة أن الماء لم يستطع الجنود العطاشى شربه إلا إذا كسروه لأنه كان قد تجمد من شدة البرد[3].

وعندما دخل الإمام إلى صحن الكنيسة ذهل لما رآه فيها من بدائع الذهب والفضة ووفرة الكنوز وأمر الإمام بحرس يحرسها خوفا عليها من الضياع واستدعى من كان معه من القواد والأمراء وسألهم إن كان يوجد لها مثيل فى بلاد الشام أو الروم أو الهند؟ فأجابوه بالنفى لمن زار تلك البلاد ورأى كنائسها [4].

١- حمدى السيد سالم: مرجع سابق، ص٣٩١ .

2- Cammerer : op. cit., p. 19 .

3- Mergery Perham : The government of Ethiopia : p. 42 .

٤- لوثرب ستودارد : مرجع سابق، ص٣٥٤ .

بعد ذلك سار الإمام يتفقد باقى أحياء المدينة ويقف على أحوال السكان فيها وكيفية تدبير أمور إعاشتهم ؛ لأن الملك وقواده أخذوا معهم أغلب الغلال الموجودة بالمدينة لإطعام الجيش الهارب معهم، ولذلك أمر القواد المسلمين بتدبير ذلك فورا من المؤن والأغذية التى معهم.

وبعد ذلك أخذ الإمام أحمد يتجول فى أنحاء المدينة ورأى كثرة كنائسها وضخامة أبنيتها، ولما سأل عن سبب ذلك قيل له إن ذلك راجع رلى كونها العاصمة للمملكة من قديم وهى مركز الثقل من الناحية والسياسية والاقتصادية.

وكذلك فإنه فى أثناء مروره رأى كنيستين على شئ من الضخامة كل منهما تقابل الأخرى فى نفس المكان فلما دخلهما ذهل من روعتهما وما بهما من كنوز ونفائس تشابه تحف الكنيسة الكبرى فأمر بالتحفظ عليهما مثل الأخرى ونفذ القواد المسلمون تعليماته بتعيين الحراس عليهم[١].

عندما تم للإمام أحمد السيطرة على أمحرا عاصمة الملك وبات الأمر منتهيا بالنسبة للمدينة، بادر الإمام أحمد بإرسال عدة حملات صغيرة للتفتيش قصد بها القضاء على المواقع المتفرقة التى أقامها الملك الحبشى أثناء هروبه لتضليل القواد المسلمين وتعطيلهم إذا لزم الأمر.

فكان أن أرسل الوزير عدلى إلى دوارو على نهر هواش من الجانب الحبشى فوجده يفيض بالماء مثل عادته فخاض هو والجنود ووجدوا كموقعًا للأحباش كانوا يراقبون منه جيوش المسلمين فقضى عليهم بعد معركة صغيرة ، واستنجد الأحباش بموقع آخر قريب منهم وحضر جنود هذا الموقع لنجدتهم ولكن المسلمين هزموهم هم الآخرين، وتم تطهير ضفتى النهر من الأحباش[٢].

وهكذا بعد أن تم للإمام أحمد الاستيلاء على أمحرا سار ومن معه من القواد إلى مدينة يقال لها (ايونه) واستقر فيها لبعض الوقت طلبا للراحة والاستعداد وإعادة تجهيز القوات مرة أخرى للمعارك المقبلة، وفى نفس الوقت أرسل عدة قواد من بعض الفرق الصغيرة لمطاردة الملك الحبشى فى أى مكان يحل فيه[٣].

1- Mergery Perham : op. cit., p. 42 .

٢- لوثرب ستودارد: مرجع سابق، ص٣٥٥ .

٣- عرب فقيه : مصدر سابق، ص١٨١ .

أرسل الإمام أحمد الجراد احموشه خلف الملك لمطاردته كذلك أرسل خلفه مباشرة الجراد متان تعزيزا له، وبقى الإمام فى مجموعة أخرى من القواد، وأخذ يرسل الأمراء وجيوشهم وراء الملك الهارب، وللقضاء على معاقل الأحباش وحصونهم حتى بلغ ما أرسله من القواد والأمراء حوالى ٥٠ أميرا (١).

وكان من عادات الإمام التى تعود عليها منذ صغره أنه إذا وصل الجيش إلى مكان وأراد القواد للجنود الراحة، فإن الإمام يأمر بذلك ويخرج هو فى نفس الوقت فى مجموعة من الفرسان الأشداء المعروفين بقوة الملاحظة والذكاء وذلك للاستطلاع حول الموقع الذى يعسكر فيه الجيش ضمانا لعدم مباغتة الأحباش له .

وقيل فى بعض المراجع إن الإمام كان يخرج ومعه خمسة فرسان وأحيانا أخرى عشرة وأحيانا عشرين، وذلك لدراسة الموقع والإطمئنان إلى الجبال والأحراش فى عدم وجود الأحباش بها(٢).

وقد حدث أنه بينما كان الجيش يستريح فى مدينة تدعى (ترمز) خرج الإمام مثل عادته يستطلع حوله ومعه عشرة من الفرسان وثلاثون من الرجال فوصلوا إلى قرية صغيرة فى جنب الجبل الذى يحجبها عن الرؤية، فوجد مجموعة من الأحباش يتجهزون للحرب فهاجمهم بمفرده وهزمهم دون أن يبلغ جنده بأنه سيخاطر بنفسه .

كذلك استغل الإمام أحمد فترات الراحة هذه لوضع التنظيمات الإدارية الخاصة بحكم البلاد المفتوحة حديثا، فعين الجراد عثمان بن جوهر حاكما على بلاد (جان زلق) وعلى أهل (موت) عين القائد خالد الواردى والذى أسلم على يديه جميع أهل هذه البلاد وشاركوا فى الجهاد بعد ذلك(٣).

ثم سار الإمام بعد ذلك إلى مدينة تسمى (شجرة) فقابله فيها الجراد نصر وقال له : «بلادنا هنا كلها أسلمت ببركة الله تعالى وبركتك» . فقال له الإمام ردا على كلامه :

١- نفس المصدر، ص١٨١ .

2- Cammerer : op. cit., p. 13 .

٣- عرب فقيه : مصدر سابق، ص١٨٢ .

«أمرتك على الذين أسلموا وأما الذين رفضوا الإسلام فأحضرهم إلىّ» وفعلا أحضرهم إليه ولما خيرهم قبلوا دفع الجزية مع بقائهم على دينهم[1].

أما الملك الحبشى ففى أثناء هروبه أشار عليه قواده حينما عرفوا أن المسلمين جادون فى أثرهم، أن يرحل مرة أخرى إلى أرض وج ، وكان قد أشار عليه فى أثناء المناقشة أحد قواده بأن هناك جبلاً عاليًا منيعًا يستطيع الاختباء فيه وأن المسلمين لن يستطيعوا الوصول إليه لمناعته، وفعلا سمع بذلك النصح ورحل إلى هناك واعتصم بأعلى الجبل انتظارا للحوادث القادمة.

عندما صعد الملك إلى الجبل واعتصم به كان خلفه يطارده القائد عبد الناصر أحد القواد المسلمين ولما لم يتمكن منه أو من الصعود إلى الجبل عاد أدراجه ليبلغ الإمام أحمد بما حدث من الملك حتى يأخذ رأيه فيما يمكن فعله إزاء ذلك. وعندما عرف الإمام أحمد ما حدث أمر الجند بالمسير فى إثر الملك[2].

رحلت جيوش الإمام أحمد بناء على التعليمات التى أصدرها وبينما هى سائرة فى الطريق إذ يصل الجنود إلى مدينة صغيرة تسمى (برارة) فدخلها المسلمون ووجدوا بها كنيسة كبيرة يقدسها الأحباش كثيرا، ويقصدها الناس من مسافات بعيدة للتبرك ونذر النذور، وكان بها عدد كبير من الآنية الفضية والذهبية ويقال عن تاريخها إنها من أقدم الأبنية التى أقيمت فى الحبشة للعبادة، ولم يكن يماثلها فى القدم إلا كنيسة العاصمة الثانية اكسوم، وقد تم للإمام أحمد الاستيلاء عليها وأمر بالتحفظ على محتوياتها كاملة.

وهكذا لم تمض سنة ١٥٣٥ حتى واصل الملك هربه من وجه الإمام ولكنه فى أثناء هربه هذا لم يفقد أمله فى النصر على الإمام أحمد- إذ أن اليأس لم يكن قد نال منه كثيرا- إذ أنه أكثر من مرة يهرب ويجمع جيشه ويدخل فى معارك طاحنة مع الإمام ويهزم فيها ويعود إلى الهرب مرة أخرى [3].

١- لوثرب ستودارد: مرجع سابق، ص٣٥٠ .

٢- عرب فقيه : مصدر سابق، ص١٥٦ .

٣- لوثرب ستودارد: مرجع سابق، ص٣٥١ .

وهكذا فإنه عندما تجمعت لديه عدة آلاف من الجنود الأحباش تم جمعهم من المدن والقرى الواقعة خلف الجبل الذى اعتصم به ، نزل من الجبل وانتظر الإمام أحمد عند وصوله ونشبت بينهما معركة كبيرة شرقى بحيرة طانا ولكن هزم مرة أخرى.

وكانت هذه المعركة أو بمعنى أصح هذه المنطقة مفتاح مدينة اكسوم العاصمة الثانية للحبشة وبهزيمة القوات الحبشية أصبح الطريق إليها مفتوحا دون أى عائق فما أن وصلتها حتى تحفظ الإمام أحمد على كنائسها [١].

ثم ترك الإمام أحمد أكسوم فى حماية قوة صغيرة من الجند وعبر بجيوشه نهر تكازى شمال الهضبة ثم انحدر بقواته إلى اقليم (بيجامور) والذى يقع شمال جوجام واستطاع بذلك أن يسيطر على شمال الهضبة من الشرق ومن الغرب بعد أن سيطر على جنوبها من قبل [٢].

وهكذا لم تنقض سنة ١٥٣٥ م حتى تم للإمام أحمد فتح البلاد الواقعة شمال الهضبة وشرقها وجنوبها بما فيها الأقاليم الإسلامية التى حررها أولا ثم الأقاليم الحبشية التى سقطت فى يده بعد ذلك فى المعارك التى سبق لنا ذكرها ولم يبق خارجا عن طاعته حتى ذلك الوقت إلا جزء من بلاد الحبشة يقدر بثلث مساحتها .

وفى نفس الوقت أرسل الإمام أحمد إلى عاصمته هرر يطلب زوجته الأميرة دولنبره وأولاده وأمر القوات بأخذ قسط كبير من الراحة استعداداً للرحلة المقبلة من القتال وتجهيزا للقوات الجديدة وتعويضاً لما فقد من السلاح والمعدات[٣].

كذلك فإن الإمام عندما طلب من قواته الاستجمام والراحة لم ينس فى نفس الوقت إرسال بعض القوات لمتابعة التطورات فى الأقاليم الأخرى، فقد أرسل الوزير عدلى على رأس قواته بعد أن أخذت راجتها كاملة إلى أرض الداموت لفتح بعض الحصون التى أقامها الأحباش بعد ترك المسلمين لها فى المرة الأولى.

وهكذا فإن الإمام أحمد عندما استقر به المقام طلب القواد وأهل الشورى فى جيشه الحضور وخيرهم بين الراحة لمدة كبيرة أو متابعة الجهاد للجهاد مرة أخرى، فأشار البعض

1- Cammerer : op. cit ., p. 31 .

٢- زاهر رياض : الإسلام فى أثيوبيا، ص٢٠٦ .

٣- لوثر ستودارد: مرجع سابق، ص٣٥٨ .

منهم بالراحة وذلك لأن الجنود أرهقت أعصابهم من كثرة المعارك والسفر، وأشار البعض الآخر من القواد وكانوا أغلبية بمتابعة الجهاد خاصة وأن الملك الحبشى مرهق والجيوش الحبشية ممزقة شر ممزق(١).

كذلك أشار القواد إلى أنه فى حالة الراحة الطويلة فإن الملك سينتهز هذه الفرصة لتجميع جيوشه مرة أخرى، وأنهم بقتاله أولا سيضيعون عليه الفرصة ؛ فاقتنع الإمام بذلك وأمر بمتابعة الجهاد مرة أخرى(٢).

عودة الإمام أحمد بعد انتصاره إلى هرر

بعد هذه المعارك كلها عادت جيوش الإمام أحمد إلى منطقة تسمى (دير برهان) متعقبة الملك الحبشى، ولكنه عندما سمع باقترابها فر هاربا إلى منطقة أخرى مجهولة لكى ينتظر نتيجة ما اتفق على القيام به مع قائده (رأس بنات) وكان من أعظم قواده فى ذلك الوقت بعد وسن سجد الذى قتل فى المعارك السابقة.

وقصة هذا الاتفاق تتلخص فى إحياء الخطة التى عزم عليها الملك والبطريق وسن سجد ولكن موته قضى عليها ألا وهى مهاجمة أوفات من الخلف أثناء غياب الرمام أحمد عنها فى بلاد الحبشة ، وذلك بقصد التخفيف عن الجيوش الهاربة وفى نفس الوقت شغل الإمام أحمد ببلاده حتى يعود إليها للدفاع عنها(٣).

وفى نفس الوقت كان الاثنان يعلمان أن قوة المسلمين فى هذه المنطقة بسيطة لاتذكر وأن أى قوة حبشية مهما كانت صغيرة ستسحقها وتحقق النصر عليها وهذا سيرفع من الروح المعنوية المنهارة للأحباش ويستدرج الإمام أحمد للعودة إلى بلاده مرة أخرى وبذلك يتخلصون منه(٤).

١- لوثرب ستودارد: مرجع سابق، ص٣٥٨ .

٢- زاهر رياض : الاسلام فى أثيوبيا، ص٢٠٧ .

3- Cammerer: op. cit., p. 32 .

٤- لوثرب ستودارد: مرجع سابق، ص٣٥٩ .

لكن الإمام أحمد استطاع بفرقة من فرق الاستطلاع أن يعرف اتجاه سير الأحباش الذين انفصلوا عن الإمام أحمد، فما كان منه إلا أن أسرع بارسال التعزيزات بقيادة الوزير عباس إلى القائد أورعى أبون والذى كان يقود هذه الحامية الصغيرة.

ولما صدرت التعليمات إلى الوزير بالتوجه إلى أوفات بعد أن عرف بأمر الخدعة تحرك بأقصى سرعة بعد أن اختار مجموعة من الرجال الأشداء والقادرين على السير بسرعة وتحمل مشاق الطريق، وفى نفس الوقت قدرتهم على القتال والمعروف عنهم البراعة والشجاعة . وفعلا استطاع الوزير عباس اللحاق بالأحباش فى مكان يسمى (كساية) والتحم الطرفان وقتل قائد الأحباش ووقع الباقون بين أسير وجريح وبذلك ضاعت الفرصة ثانية على ملك الحبشة[١].

وعندما وصل الوزير عباس يحمل بشرى مقتل البطريق القائد وأسر من معه فرح المسلمون قوادا وجنودا . وهنا قام الإمام أحمد وأعلن عن عقد اجتماع لقيادات الجيش المختلفة لبحث ما يمكن عمله بعد ذلك وإلى أى المناطق يمكن الاتجاه . وعبر الجميع عن رغبتهم فى الوصول إلى أرض المايه حيث أن السكان لم يحسن إسلامهم وأن هناك بعض الأحباش اندسوا وسطهم يثيرونهم على المسلمين، وقد كثرت الاضطرابات ويجب القضاء عليها . فوافقهم الإمام على ذلك، وسار الجيش كله إلى هناك لتدبير الأمور[٢].

بعد وصول الإمام أحمد إلى أرض المايه وقيام عسكره فيها عرف من الأدلاء أن هناك جيشا حبشيا يحتشد بالقرب منه فى بلدة تسمى (جنديله) وقرر الإمام بمشورة قواده السير إليه للقضاء عليه قبل أن تتم استعداداته الحربيه، ونفذ فعلا خطته وسار إليه من فوره للقضاء عليها.

ولكن فى أثناء السير وجد الجيش صعوبات كثيرة لوعورة الطريق وكثرة الأشجار المتشابكة فيه والتى كانت تعوق حركة الجنود كثيرى العدد، ولكن الجنود تغلبوا على هذه الأشجار بتقطيعها بسيوفهم وافساح الطريق أمام باقى الجند واستمروا على ذلك طيلة النهار.

عند غروب الشمس وصلت مقدمة الجيش إلى فضاء وسط الأشجار وكان الجيش الحبشى قد اختارها لكى يقيم فيها معسكره بعيدا عن أعين الرقباء من المسلمين حتى يتم استعداده

١- حمدى السيد سالم : مرجع سابق، ص٣٩٥ .

٢- لوثرب ستودارد: مرجع سابق، ص٣٤٤ .

ويخرج منها للقتال . ولكنهم فوجئوا بهجوم الجنود المسلمين عليهم والذين أطبقوا عليهم من كل ناحية مما أدى إلى ذعرهم وتفرقهم فى الغابات دون أن تكون هناك معركة حقيقية تاركين سلاحهم وأمتعتهم سليمة غنيمة للمسلمين كما قتل قائدهم، وبذلك انتهت خطورتهم عند هذا الحد[١].

وهكذا بعد أن قضى الإمام أحمد على معسكر الأحباش فى تلك المنطقة عادت قواته إلى منطقة (دير برهان) وذلك للاجتماع مع قواده مرة أخرى ولكى يريح جنوده ويعيد تنظيمهم ومقابلة الوزير عدلى والذى عاد من معاركه منتصرا . إذْ كان منفصلا عن الإمام أحمد بفرقته فى ناحية أخرى لمحاربة فلول الأحباش وتعقب الملك فى فراره ،وهكذا اجتمعت القوات كلها وعلى رأسها قائدها وقوادها للتشاور فى مرحلة الحرب المقبلة.

واتفق رأى القواد بعد ذلك علي أخذ قسط كبير من الراحة وإعادة تنظيم أمور الجيش وعمل استعراض كبير لتلك القوات لمعرفة ما ينقصها وزيادة تدريبها واستعداداتها العسكرية وخاصة وأنهم فى وسط بلاد الحبشة. ويلزم اليقظة التامة والاستعداد الكامل وكذلك إشعار الأحباش أن المسلمين قوة لاتقهر[٢].

وقد قصد الإمام أحمد أن يكون هذا الاستعراض للقوة كاملا بكل مظاهر الجيش المسلح وذلك لأنه كان يعرف أن هذه المنطقة تحتل قلب بلاد الحبشة وأنها مليئة بالجواسيس الأحباش والبطاركة الأحباش.

وفعلا تم للإمام أحمد ما أراد من تنظيم الجيش وبدء استعراضه. ويصف لنا عرب فقيه ذلك بقوله : «وجاء الوزير عدلى بخمسين راية كل بمقدمها من الجرادات والأمراء فكانت الجيوش كالآتى : ستة آلاف فارس- أصحاب التروس البيضاء، عشرون ألف - أهل القسى عشرون ألفا- فرسان الإمام أحمد خمسة آلاف - جيوش الوزير عدلى من أهالى الفطيجار- الماية أهل شوا- بقية الأمراء وهم ٥٠ أميرا على رأس جيوشهم»[٣].

1- Cammerer : op. cit., p. 32 .

٢- زاهر رياض: الاسلام فى أثيوبيا ، ص٢٠٦ .

٣- عرب فقيه: مصدر سابق، ص١٥٨ .

وبعد أن تم الاستعراض على خير وجه ، ولما لم يجد الإمام أحمد أى نقص أو ظاهرة غير سليمة فى الجنود أو المعدات التى يحملونها ، أثنى على القواد والأمراء وأوصاهم خيرا بالجنود، طلب الاجتماع مع القواد والأمراء وأخذوا بعد أن اجتمعوا يتحدثون عن ذكرياتهم أثناء المعارك وما كان يحدث لهم من مفاجآت وكذلك درسوا الخطط المقبلة للحرب حتى يكون كل منه على علم بما تأتى به الأيام القادمة.

بعد ذلك الاجتماع الموفق أمر الإمام أحمد القواد بإحضار جميع الغنائم التى حصلت عليها الجيوش فى معاركه السابقة وعندما تم إحضارها كلها من الرجال والنساء والأطفال والأموال والذهب والدواب، أمر الإمام أحمد بإطلاق سراح الرجال والنساء والأطفال الذين يرغبون فى اعتناق الإسلام واللحاق بالمسلمين لخدمة الجيش(١).

أما بخصوص الأموال والذهب والمواشى فقد قام بتقسيمها على المسلمين حسب أنصبتهم وكانت النتيجة أن أصبح الذهب فى أيدى الجنود والناس بكثرة يتعاملون به بدلا من النقود لوفرته ، حتى أصبح كل شئ يباع بالذهب .

كذلك فإن الإمام أحمد قام بوضع خطة أخرى للأسرى من أمراء وأميرات البيت المالك، إما أن يظلوا على دينهم مع دفع الجزية المقررة أو إسلامهم، وهنا يكون لهم ما للمسلمين من حقوق، وكان بالتالى أن أعلنوا إسلامهم حتى يمارسوا حقوقهم وواجباتهم كأفراد مسلمين(٢).

أما القواد والبطارقة الأحباش الذين كانوا يرفضون الإسلام، فإن الإمام رفض اطلاق سراحهم خوفًا من تجمعهم مرة أخرى والثورة عليه. فأمر نتيجة لذلك بإرسالهم إلى قلاع حصينة تحرسها قوات المسلمين ومعهم أولادهم وزوجاتهم لكى يعيشوا مطمئنين ويأمن هو جانبهم.

كانت لتلك السياسة العادلة التى اتبعها الإمام أحمد أثر كبير فى نفوس السكان إذ أن عددا كبيرا من السكان فى الأقاليم الحبشية التى فتحها الإمام أحمد فضلوا الإسلام. كما أن هناك جزءاً اخر فضل دفع الجزية والبقاء على دينهم بدون تعرض لهم، فى حين انضم لجيشه عدد كبير من زعماء الأحباش الذين أسلموا وحسن إسلامهم وشاركوه فى الجهاد بعد ذلك مشاركة كبيرة(٣).

١- عرب فقيه : مصدر سابق، ص١٣٣ .

2- Jones and Menroa : op. cit., p. 83 .

٣- عرب فقيه : مصدر سابق، ص٣٣ .

وقد استغل هؤلاء الزعماء بعد دخولهم فى الإسلام نفوذهم الشخصى فى تحريض أتباعهم من الجنود والسكان على الدخول فى الإسلام. كما انتهز كثير من المسلمين والذين كانوا يعيشون فى الأقاليم الحبشية قبل فتحها فرصة هذا الانتصار وساعدوا الإمام أحمد على نشر الإسلام بين السكان وعامة الأحباش(١).

وهكذا فإن الإمام أحمد بعد أن أعاد تنظيم جيشه وقواته وأعاد تسليحها واستكمل النقص فى معداتها ووضع الخطط للمستقبل وأخذ قسطًا كافيًا من الراحة استعاد الجيش رغبته فى القتال وأمر الإمام أحمد قواده باقتحام أرض جوجام وكانت هذه هى المرة الثالثة التى تدخلها جيوش الإمام أحمد.

وقد اختار الإمام أحمد تلك المنطقة لثورة بعض الأحباش فيها بعد أن حرضهم بعض القواد الذين فروا أثناء المعارك واختفوا بين الناس خوفا من اكتشاف أمرهم ، وعندما اخترقتها جيوش الإمام أحمد من الشمال إلى الجنوب حطمت هذه الحصون الصغيرة التى أقامها هؤلاء الفارون حتى وصلت جيوشه إلى النيل الأزرق وأرض شوا الإسلامية(٢).

وفى خلال ذلك التقدم، كانت الجيوش الصومالية تقضى على كل مقاومة من الجنود الأحباش والأهالى الذين كانوا يساعدونهم، ولما استتب الأمر لجيوش المسلمين فكر الإمام أحمد فى العودة إلى عاصمته هرر وكان ذلك فى عام ١٥٣٧م، وذلك بقصد الراحة وتنظيم أمر هذه الفتوحات وتدبير الكيفية التى ستحكم بها(٣).

ولم تنته سنة ١٥٣٧م حتى كانت الجيوش الإسلامية قد سيطرت على معظم أراضى الحبشة وأصبح الملك الحبشى طريدا مشردا بدون أرض أو شعب أو جيش أو حتى على أبسط أمور الأسرة ، وأخذت بالتالى المسيحية فى الانهيار نتيجة ضغط انتصارات المسلمين المتوالية ودخول الناس فى الإسلام.

كانت تلك الضربات قاصمة للملك نفسه ولقواده ولآمال الشعب الحبشى نفسه والذى شعر

١- محمد المعتصم : مهدى الصومال بطل الثورة ضد الاستعمار ، ص١٦ .

2- Cammerer : op. cit ., p. 31 .

3- Trimingham:op.cit., p. 87 .

بفارق المعاملة بين المسلمين والمسيحيين القواد وذلك نتيجة لسماح الإمام أحمد لعامة الناس بالاختيار بين الجزية أو الإسلام وعدم التعصب فى الدين مع السماحة فى الخلق والكرم[١].

كذلك فإن الإمام أحمد كان قد جنى ثمار سياسته العادلة هذه حينما توافدت إليه رسل القبائل تخبره بقبول هذه القبائل مشاركة الإمام أحمد فى الجهاد وإمداده بالرجال والعتاد مرة أخرى عندما يستعد لغزو باقى بلاد الحبشة بعد أخذ راحته وإعداد جيوشه إلى عاصمته هرر[٢].

تم للإمام أحمد ما أراد بعودته إلى هرر إذ أنه انتهز فرصة هذه العودة وأخذ فى تنظيم وإعادة تقييم الجيش وإمداده بالأسلحة والمؤونة استعداداً الاستئناف باقى جولته فى الحبشة والقضاء نهائيا على ملكها وكان أن استدعى القواد والأمراء وتم له بمعونتهم تنظيم الجيش الصومالى على الصورة التالية :

القوة الأولى : وهى بمثابة قوى الطلائع والهجوم وتتألف من العناصر الصومالية الخالصة وهى أكثرها عددا وأعظمها قوة[٣].

القوة الثانية: وهى تتكون من العناصر الصومالية- الجالا الأحباش الذين دخلوا فى الإسلام.

الرياسة الأولى : على رأسها الإمام أحمد وهى تتكون من خمسة آلاف فارس.

الرياسة الثانية : على رأسها الوزير عدلى وهى تتكون من ثلاثة آلاف فارس .

رؤساء الفرق الإسلامية : وهم من الأمراء المسلمين وهم خمسون أميرا ويتقدم كل أمير فرقته وأمامها رأيتها ويتبع كل أمير من هؤلاء خمسون وحدة إسلامية محاربة[٤].

هكذا فإن الإمام أحمد بعد أن تم له تنظيم جيوشه علي النمط السابق ذكره أعطى قيادتها لقواده الكبار، فأعطى الوزير عدلى قيادة الفرقة الثانية وأمره أن يسير بجانبه أى على يمينه

١- زاهر رياض: الاسلام فى أثيوبيا ، ص٢٠٥ .

٢- عرب فقيه : مرجع سابق، ص٣٥ .

٣- نفسه ، ص٣٥ .

٤- حمدى السيد سالم : مرجع سابق، ص٣٨٣ .

والفرقة الثالثة أمر عليها الوزير نور الدين ابن ابراهيم على اليسار منه والفرقة الأولى على رأسها الإمام أحمد نفسه والذى سار فى الوسط بين الفريقين[١].

بناء على أوامر الإمام أحمد باتمام الاستعدادات الحربية كلها وأن لاينقص جنوده شئ، فقد أمر بتزويد جنود الفرق الثلاث بالصداريات والملابس المصنوعة من الصلب لحمايتهم من الرماح وطعن السيوف، حيث أن الأحباش كانوا يستعملونها بمهارة ، وكانت تحمى جنودهم لذلك أمر الإمام بلبسها حماية لجنوده وحفظا لحياتهم [٢].

كانت النتيجة الطبيعية لهذه التنظيمات العسكرية والإدارية التى شملت الجيش والبلاد، أن استقرت الأحوال وساد الأمن بين الناس ونعموا بالهدوء بعد كثرة القتال والحرب وعدم الإطمئنان على أنفسهم وأموالهم.

ترتب على ذلك تحول كثيرين إلى الإسلام نذكر منهم على سبيل المثال أهالى مدينة أنطاكية بأكملها، إذ دخلت الإسلام بشعبها وحكامها ومنهم أيضا بطريق شرخا الذى اعتنق الإسلام هو وزوجته وأولاده وشعبه من خلفه وحسن إسلامهم فيما بعد .

كذلك أعلن كثير من البطارقة العظام إعتناقهم الإسلام مثل بطريق مرجاى الذى أشهر إسلامه بعد أن هزمت جيوشه وتفرقت وعفا عنه الإمام لما وجده فيه من الشجاعة والإقدام. وشهد بعد ذلك معارك كثيرة شهد له فيها بالشجاعة والبراعة فى القتال [٣].

وتروى القصص الشعبية الحبشية المتوارثة أن (٩٠٪) من الأهالى الأحباش تركوا المسيحية ودخلوا فى الإسلام، حتى أن الأسرة المالكة نفسها انفض من حولها عدد كبير من أفرادها بعد أن اعتنقوا الإسلام ولم يبق من تلك الأسرة بعد ذلك على مسيحيته سوى نفر قليل على رأسهم الملك والذين اعتصموا بالمناطق الجبلية الوعرة وواصلوا الحرب بعد ذلك[٤].

١- عرب فقيه : مصدر سابق، ص٢٨ .

٢- زاهر رياض: أبحاث من أثيوبيا. بحث بعنوان «الفرسان والفروسية فى أثيوبيا فى العصور الوسطى»، ص٢٨٦ .

٣- حمدى السيد سالم : مرجع سابق، ص٣٨٧ .

٤- أمين شاكر : أضواء على الحبشة، ص٨٠ .

فى الحقيقة فإن هذا كله يدل على أن الإسلام كان ينتشر فى ركاب هذا الفتح أولا بأول، وقد انتشر الإسلام بين معظم سكان الهضبة الحبشية سواء عن اقتناع أو رهبة أو خوفًا ، لكن بمرور الوقت وحسن معاملة المسلمين، ذلك كله أدى إلى اعتناق أعداد كبيرة من السكان الإسلام رغبة منهم فى الحياة المسالمة[1].

هكذا فإنه بعد تلك المعارك المتصلة أراد الإمام أحمد أن يمكث فى بلاد الحبشة بصفة مستمرة وأن يستقر في موضع يختاره مع قواده وجيوشه ليراقب كل تلك الأقاليم التى تم له فتحها حتى يتسنى له حكمها وإدارتها .

لذلك طلب من رجاله وقواده التشاور وبحث هذا الأمر فيما بينهم وأعلن التزامه بتنفيذ ما يستقر عليه رأيهم. وبعد أن تم تشاورهم فى ذلك الأمر استقر رأيهم والأغلبية منهم على على العودة إلى بلادهم لأخذ قسط من الراحة والاستعداد للغزو مرة أخرى.

وكان مما أبداه الأمراء والقواد من رأى أن آباءهم وأجدادهم من قبل لم يستقروا فى بلاد الحبشة لصعوبة أراضيها وأنهم كانوا يغزون ويعودون مرة أخرى أثر ذلك فى الإمام فوافقهم على رأيهم بالعودة .

كما كان هناك سبب آخر قوى فى رغبة المسلمين القوية فى العودة إلى بلادهم وهو نزول المطر باستمرار لمدة أربعة أشهر مما أتعبهم لأنهم فى بلادهم لم يكن هناك مطر وإنما الجو صحو باستمرار كما تعودوا على ذلك[2].

وقد جاء على لسان عرب فقيه فى هذا الأمر ما يلى: «وكان من عادة أهل الحبشة أنه إذا دخل عليهم الخريف يجلسون أربعة أشهر فى بيوتهم تنهلهم السماء ليلا ونهارا بالمطر ، والمسلمون ساروا بالمطر والبرد فصارت الأرض كلها طين من كثرة المطر، وتعب المسلمون وتحطمت عربات المدافع التى كانت معهم والتى غنموها من الأحباش وغرقت خيامهم من عسر الطريق والوحل. وهذا السبب جعل المسلمين يفكرون فى العودة إلى بلادهم للراحة وطلبا للتزود بالسلاح والعودة إلى الجهاد»[3].

١- حسن أحمد محمود : انتشار الإسلام والثقافة العربية فى أفريقيا، ص٤٦٧ .

2- Mergery Perham : op.cit., p. 42 .

٣- عرب فقيه : مصدر سابق، ص٧٦ .

هكذا اجتمع رأى المسلمين على العودة إلى بلادهم مرة أخرى بعد أن تحطمت القوى الحبشية وتم الاستيلاء على عاصمتهم امحرا وحصونها المنيعة، وفعلا تم للجيوش ما أرادت وعادت إلى بلادها هرر طلبا للراحة وتزودا بالمؤونة والسلاح ورؤية الأهل والزوجات والأولاد، وكذلك العمل على تعمير البلاد فى المجال العمرانى والزراعى ، وإعداد الجيوش والفرق الجديدة استعدادا للمراحل المقبلة من الحرب الحبشية[1].

محاربة الإمام أحمد للمرتدين عن الإسلام

كما ذكرنا سابقا من أن الإمام أحمد عاد إلى هرر عاصمته وذلك لإراحة جيوشه المنهكة من كثرة المعارك التى خاضتها ومن كثرة مصاعب الطرق فى بلاد الحبشة العالية، وكذلك لإعادة التنظيم للجيش وتكوين فرق حربية جديدة استعدادا لفتح باقى بلاد الحبشة التى لم تفتح فى الدور الأول من الفتح.

لكن كانت هناك ظاهرة أخرى ملفته للنظر، إذ بينما كان الجيش الصومالى يعود أدراجه ليستريح وينظم نفسه، كان الملك الحبشى الهارب يفكر ويخطط فى كيفية الاستفادة من هذه الفترة، إذ أنه اجتمع بقواده وبعد أخذ رأيهم استعدوا بالإجماع على انتهاز الفرصة وإثارة أهالى البلاد المفتوحة على حاميات الإمام أحمد التى تركها لإدارة البلاد.

وكان غرض ملك الحبشة من ذلك أن الحاميات التى تركها الإمام أحمد من الصغر فلن تستطيع الصمود أمام ثورة الأهالى وفى نفس الوقت استنفاد مجهودها العسكرى، كما أن تلك الثورات ستقلق الإمام أحمد من راحته فى هرر[2].

وهكذا أرسل الملك الحبشى خلال هروبه المتواصل إلى بطاركته وقواده السابقين الذين أسلموا كرها يحضهم على الثورة والخروج عن طاعة الإمام أحمد والعودة إلى المسيحية، كما أرسل إليهم الرسائل سرا يحثهم فيه على مهاجمة جنود المسلمين القليلى العدد والاستيلاء على مقاليد الحكم لحين عودته إليهم على رأس الجيش الحبشى[3].

١- حمدى السيد سالم : مرجع سابق، ص٣٩٣ .

٢- عرب فقيه : مصدر سابق، ص٧٧ .

٣- لوثرب ستودارد : مرجع سابق، ص٣٤٦ .

كانت النتيجة لذلك أن استجاب لندائه كثير من القواد والبطاركة الأحباش وأعلنوا ارتدادهم عن الدين الإسلامى، وأعلنوا خروجهم عن طاعة الإمام أحمد.

لكن الإمام أحمد تدارك الموقف بسرعة عندما وصلته أنباء التذمر والثورة وأرسل بجيوشه المختلفة إلى أماكن الثورات على وجه السرعة لقمعها وإعادة الحياة إلى طبيعتها مرة أخرى[1].

كذا سار الإمام أحمد بنفسه على رأس فرقته المعروفة ليسحق ثورة المرتدين بنفسه، وكان أن وقعت بينه وبينهم عدة معارك كان النصر فيها حليفه ، وتم له قتل قواد المرتدين ومزق صفوفهم شر ممزق. وهذه الوقائع سنذكرها فى الصفحات المقبلة.

كان نتيجة لهذه الحرب التى لم تعتمد على جيوش عسكرية كما فى المرة الأولى التى حارب فيها الجيش الحبشى الجيش الصومالى إنما هذه المرة اعتمدت على أفراد الشعب بتحريضهم من القواد السابقين أن دمرت كثير من الكنائس والأديرة والمبانى الملكية وقصور الأمراء فى أغلب المدن لاتخاذها من جانب الثوار مراكز للهجوم والدفاع ضد الجيوش الصومالية التى حضرت لإخماد تلك الثورات[٢].

كما أرسل الإمام أحمد زيادة على قواده الآخرين الذين ذهبوا أول الأمر الوزير عدلى عندما ازدادت الثورات وصعب قمعها وارتفع العصيان إلى قمته، لكنه استطاع هزيمة المرتدين وسحقهم واحدا وراء الآخر.

ووفق الوزير عدلى فى أسر اثنين من كبار البطاركة الذين ثاروا وأيدوا الثوار فى خروجهم على القوات الصومالية، ولكنه قتلهما بعد أن رفضا العودة إلى الدين الإسلامى ونبذ راية العصيان[٣].

وواصل الإمام بعد ذلك زحفه هو وقواده حتى وصل إلى منطقة تسمى (عندوره) وكانت الثورة فيها أكثر من غيرها وأعظمها استعدادا ، فحاصرها الإمام بجيوشه واستمر فى قتالهم حتى هزموا وتم له إخضاع المنطقة مع قتل جميع المتسببين فى العصيان الذى حدث [٤].

1- Mergery Perham : op. cit., p. 42 .

٢- لوثرب ستودارد : مرجع سابق، ص٣٤٧ .

3- Mergry Perham : op. cit., p. 43 .

٤- لوثرب ستودارد: مرجع سابق، ص٣٤٧ .

بعد تلك المعارك المتصلة وصل الإمام أحمد وجزء من قواته إلى أرض المايه والتى كانت الثورة فيها على قدر من القوة والنجاح بسبب اشتراك جنود الحبشة فى القتال بالإشتراك مع الأهالى ضد الحامية الصومالية القليلة العدد.

استمرت المعارك متصلة حتى استطاع الإمام أحمد تنظيم جيشه وحسن استعداده للقتال أن يقضى على هؤلاء الثوار كل فى موقعه الذى اختاره لنفسه وتحصن فيه، كذلك أرسل الإمام القائد الصومالى (فرشحم) لقتال مجموعة أخرى من المتمردين وانتصر عليهم وسحق مقاومتهم[1].

كما أرسل الإمام بعد ذلك مباشرة القائد عبد الناصر إلى جنز، والوزير مجاهد إلى أرض وج ، جيرجى . واستطاع كل هؤلاد القواد القضاء على العصيان وإعادة الأمور إلى نصابها واستتباب الأمن [2].

لكن ملك الحبشة لم يشأ السكوت رغم كل ذلك بعد فشل مؤامرته فى تحريض القواد الأحباش على الثورة على جند الإمام، بل قام بجمع عدد كبير من الجند المتفرقين وولى قائدا كبيرا عليهم يسمى (نخلى سوس) وكان تحت قيادته ثلاثون بطريكا من أرض التجرى واستعدوا للقتال ضد الإمام أحمد.

وعندما سمع الإمام أحمد بتجمع هذا الحشد الكبير بادر إليهم فورا والتقى الجيشان وهزم الأحباش هزيمة بعد مقتل قائدهم (سوس) وفرار الملك مرة أخرى، بعد أن دمرت جيوشه وقتل قواده وأسرهم [3].

بعد ذلك سار الإمام أحمد إلى اقليم دوارو والأمل يحدوه فى إنهاء الثورة التى قامت هناك، إذ أن معظم أهالى دوارو كانوا من المسلمين الذين يدفعون الخراج للحاكم الحبشى قبل فتح الإمام أحمد لتلك البلاد، وعندما تم للجيوش الإسلامية فتح البلاد استبشروا بذلك خيرا. وعندما حدثت الثورة وقفوا مع الحامية الإسلامية يقاتلون الأحباش المتمردين حتى حضرت قوات الإمام لنجدتهم.

١- حمدى السيد سالم : مرجع سابق، ص٣٩٤ .

٢- لوثرب ستودارد: مرجع سابق، ص٣٥٥ .

3- Mergery Perham : op.cit., p. 43 .

لذلك عندما حضر الإمام أحمد وجد الأمور قد عادت إلى هدوئها وقد استطاعت الحامية الصومالية بمساعدة السكان القضاء على العصيان نهائيا [1].

ثم سار الإمام بعد ذلك إلى أنطيط وهى إقليم حبشى أغلب سكانه من المسيحيين وكانت فيها كنيسة عظيمة تم بناؤها على عهد الملك اسكندر وكانت تذخر بالتحف ، لذلك حافظ عليها الإمام فى الفتوحات الأولى . وحتى عندما قامت الثورة حرص على عدم الإضرار بها لأنه كان يقدس الأماكن الدينية. وخضع أهلها عندما عرفوا بقدوم الإمام أحمد وإعلانه العفو عنهم بعد استتباب الأمور .

كذلك فإن الإمام أحمد عندما وصل إلى أرض (جان زلق) عرف سكانها أن الإمام أحمد سينتقم منهم لتمردهم عليه، ولذلك فر جزء كبير منهم إلى الجبال خوفا من الانتقام بسبب تغلبهم على الحامية الصومالية وقتل جنودها .

وأرسلوا إلى الإمام أحمد من الجبال التى صعدوا إليها رسولا منهم يطلبون العفو عما حدث منهم ، فأجابهم الإمام أحمد إلى ذلك وعادوا إلى ديارهم مع دفع الجزية أو اعتناق الإسلام[2].

واستمر الحال بالإمام أحمد على ذلك ينتقل من بلد إلى آخر حتى حل شهر رمضان وكان فى أرض وج فصام هذا الشهر رغم سفره وجاء العيد والإفطار عليه وعلى جنود المسلمين فى أرض جراجى.

كما أرسل الإمام أحمد عدداً من الجنود والقواد وعلى رأسهم الأمير حسين الجاثرى إلى دواردو، فدخل منطقة فيها تسمى (زرى) ثم أرض (فرطات) كان فيها جيش حبشى يعتصم بالجبال العالية فتعقبوه إلى أن وصلوا إليه واستطاعوا القضاء على عصيانه وثورته [3].

فى ذلك الوقت أيضا وصلت الأنباء أن الوزير عدلى يجد مقاومة شديدة فى أرض (بالى) لمتانة تحصينها وكثرة الأحباش فيها ، بالإضافة إلى قوات الملك نفسه. وكان أن وصلت الجيوش المرسلة للنجدة إلى مشارف بالى وانضمت إلى قوة الوزير عدلى، ونشبت بينهما

١- لوثرب ستودارد: مرجع سابق، ص٣٤٧ .

٢- عرب فقيه : مصدر سابق، ص٧٩ .

٣- لوثرب ستودارد: مرجع سابق، ص٣٥٠ .

المعارك الحامية فى بلدة (زلة) الحصينة[1]، حيث اقتتل الفريقان قتالا شديدا وفر الأحباش بعد هزيمة قائدهم إلى الجبال الشاهقة الارتفاع[2].

بذلك كان الإمام أحمد لايتوانى فى تقديم المساعدة لقواعده بكل سرعة مطلوبة وذلك عند وقوعهم فى مأزق يحتاج للسرعة فى التصرف . والدليل على ذلك أنه بمجرد أن سمع بالظروف التي وجد فيها الإمام أحمد قائده يحتاج لمساعدة عسكرية سريعة فى دوارو حتى بادر بإرسال النجدات إليه، وكان القواد الذين أرسلهم الإمام أحمد من كبار القواد المسلمين أمثال صاحب جنز- الجراد صديق صاحب شرحه وصاحب هديه .

وكان ضمن هؤلاء القواد البطريق (صبرو) الذى أسلم وكان فارسا مغوارا ، وزاد على ذلك قيام القائد (سيمو) والذى كان قد أسلم كذلك وبذلك تجمع عدد كبير من الجنود والقواد المهرة الذين استطاعوا اقتحام الحصون ودك معاقل المتمردين والقضاء على الثورة ، وبعد ذلك عاد الوزير عدلى إلى الإمام أحمد بعد أن تم اخماد الثورات[3].

كانت الأنباء بالانتصارات على المتمردين قد وصلت إلى الإمام تخبره بالقضاء على المتمردين وسحق كل مقاومة لهم، فلما وصل الرسل بالأنباء إلى الإمام أحمد أذن بإعلانها على بقية القواد والجند المسلمين، كما أنه فرح لذلك فرحا عظيما .

كما أن الرسول قام بشرح كيفية انتصار المسلمين على الأحباش وسحق معاقلهم الحصينة التى كانوا يتحصنون فيها للقتال .

وبعد فترة قصيرة من وصول الأخبار من الوزير عدلى وصل هو وجيوشه المنتصرة لأخذ فترة من الراحة بعد عناء القتال، كما أمر بإحضار الغنائم التى أحضرها معه وسلمها للإمام أحمد الذى أمر بإخراج خمسها لبيت المال وفرق الباقى على المجاهدين كل حسب نصيبه[4].

جاءت الأنباء بعد فترة هدوء قصيرة لم يتخللها لا ثورات ولامعارك، بأن أرض وج فيها عصيان وثورة ، فما كان من الإمام أحمد إلا أن أرسل الوزير والقائد (مجاهد) إلى هناك

١- عرب فقيه : مصدر سابق، ص٧٩ .

٢- حمدى السيد سالم: مرجع سابق، ص٣٩٦ .

3- Mergery Perham : op. cit., p. 44 .

٤- لوثرب ستودارد: مرجع سابق، ص٣٥٧ .

لمقاتلة بطريقها (إسلام دحر) صهر الملك لينى دنجل، والذي كان معه ثلاثون بطريقا يتزعمهم للعصيان.

واستطاع القائد مجاهد بعد أن استعد لذلك استعدادا خاصا حيث أن قوة الأحباش واستعداداتهم كانت كبيرة ومنظمة تنظيما دقيقا . وعندما اشتبك الفريقان استطاع القائد مجاهد هزيمته وقتله بعد أن اشتبك معه فى مبارزة حامية، وأرسل إلى الإمام أحمد يبشره بالنصر.

كذلك أرسل الإمام أحمد القائد عبد الناصر إلى أرض هدية لإخماد العصيان الذى نشب فيها، وتم له ذلك بعد أن فر وقتل وجرح عدد كبير من الأحباش وأسلم البعض الآخر منهم[١].

كذلك استطاع الإمام أحمد إرسال قائد آخر اسمه (يعقيم) إلى أرض (ورب) وذلك لتجمع عدد من قواد الحبشة الهاربين من الفتوحات الأولى ومحاولتهم إثارة العصيان مرة أخرى، وعند وصوله إلى مواقعهم التى تحصنوا فيها استطاع اقتحامها والانتصار عليها وأرسل رسولاً إلى الإمام يبشره بالقضاء عليهم وأنه قتل منهم ما يقرب من ألف رجل، وأنه لن تقوم لهم قائمة بعد تلك الهزيمة القاسية [٢].

كما أن هذا القائد أرسل إلى الإمام أحمد يسأله ماذا يفعل بالأسرى الذين تم له أسرهم بعد المعركة ، فأرسل له الإمام أحمد أن يتركهم على حالهم بعد أن يأخذ منهم الجزية السنوية والتى امتنعوا عن دفعها فى أول ثورتهم ومقدارها ١٥ ألف حمل من الحنطة ، وألف أوقية من الذهب، وألف كروجه من العسل والسمن، فتم له ذلك وسارت الأمور سيرا حسنا [٣].

هذا من ناحية القواد الأحباش، أما الملك فدوره كان يلعبه من خلف الستار، إذ أنه أرسل إلى القائد (اورعى عثمان) والذى كان قد أسلم أثناء الفتح، ولكنه عاد فارتد إلى المسيحية مرة أخرى وتزعم العصيان وجمع الجنود الهاربين فى الجبال وسلحهم تسليحا جيدا مع التنظيم الجيد فى نفس الوقت انتظارا لقدوم جيش المسلمين ومهاجمته، وفى نفس الوقت كان ملك الحبشة يختبئ على مقربة منه يتابع نتائج المعركة بينهما .

١- عرب فقيه : مصدر سابق، ص٨٠ .

٢- لوثرب ستودارد: مرجع سابق، ص٣٥٨ .

3- John Drysdale: Somali dispute. p. 34 .

لكن الإمام أحمد فطن إلى الحيلة التى رسمها الإثنان بمفاجأته أثناء عبوره بين الجبال واقتتل معه قتالا شديدا، ولم يمكنه من النيل من جنوده واستطاع هزيمته هزيمة ساحقة وأسرعت فلول قواته إلى الهرب فى الجبال وعندما سمع الملك الحبشى بتلك الهزيمة لم يجرؤ على الظهور واستمر فى هروبه [1].

هكذا فإن الأحداث التى جرت وقائعها قد أظهرت لنا أن القواد الأحباش الذين فروا بعد هزائمهم المتكررة وعلى رأسهم الملك. قد فكروا ودبروا اثارة العصيان والتمرد على الحاميات الصومالية القليلة العدد، لكن الإمام أحمد بسرعته وجرأته المعروفة أرسل القواد فى إثرهم تلاحقهم واحداً وراء الآخر حتى قضى على تجمعاتهم وبدد شملهم[2].

ورغم كل ذلك فإن الإمام أحمد لم تثنه الظروف التى مرت بها أدوار العصيان وصمم على استئناف الجهاد مرة أخرى، بعد أن وجد أن الملك وبطاركته رغم هزيمة المؤامرات التى دبروها يريدون مواصلة الحرب مرة أخرى . لذلك عزم الإمام أحمد على إعادة الزحف مرة أخرى على عاصمة الحبشة إمحرا عله يستطيع القبض على الملك الهارب والقضاء على مقاومته نهائيا[3].

وهكذا فإنه بعد تلك التوسعات كلها اتسعت هرر نحو الجنوب الغربى اتساعا كبيرا ، وتحول الإمام بعد ذلك نحو شمال الحبشة، ونفذ بجيوشه إلى إقليم التجيرى، وفرض سيطرته على أكسوم حتى بدء الصدام مع البرتغاليين سنة ١٥٤٢م والذين جاءوا فى ذلك الوقت لنجدة الأحباش[4].

١- عرب فقيه : مصدر سابق، ص١٤٧ .

٢- محمد المعتصم سيد: دول إسلامية فى شرق أفريقيا، ص٣٧ .

٣- حمدى السيد سالم : مرجع سابق، ص٤٠٠ .

٤- محمد المعتصم سيد: دول إسلامية فى شرق أفريقيا، ص٣٧ .

زحف الإمام أحمد الثانى نحو عاصمة الحبشة ووصول جيوشه إلى بلاد النوبة

رأينا فى الصفحات السابقة كيف أن الإمام أحمد بعد إنهاء القتال مع المتمردين والمرتدين عن الإسلام ، صمم على الزحف مرة أخرى نحو عاصمة الحبشة للقبض على ملكها الهارب، وذلك بعد أن اتمت الجيوش الصومالية استعدادها ، وبذلك أخذت تزحف بكل قوتها وهى تكتسح فى تقدمها هذه المدن والقرى بدون توقف وكان النصر دائما حليفها (١).

كذلك كان مما ساعد على سرعة اندفاع هذا الزحف بقوة أكثر من الزحف الأول، أن الإمام أحمد تحالف فى ذلك الوقت تحالفا فعليا مع الأتراك العثمانيين على أن يمدوا له يد المساعدة فى تلك الحرب، وكان نتيجة هذا التحالف أن أمده الأتراك بالبنادق الحديثة وكذلك بمجموعة من المدافع التى يجيد استعمالها الجيش التركى فى حروبه وفتوحاته(٢).

وتم للإمام أحمد بتلك الطريقة السريعة مواصلة فتوحاته منتصرا من معركة إلى أخرى حتى وصل إلى جبل (العنبا) مرة أخرى والذى سبق ذكره فى الصفحات السابقة، وهذا المكان الذى كانت الأسرة المالكة تحتفظ فيه بأولادها .

وكان هذا المكان معروفا بأنه لايمكن الصعود إليه إلا بسلالم - لعلوه الشاهق - وكان المسلمون قد عجزوا فى المرة الأولى عن اقتحامه لصعوبة ذلك، لكن الإمام فى هذه المرة لم ييأس من الاستيلاء عليه فأمر جنوده بإقامة المعسكر بالقرب منه حتى تسنح فرصة للهجوم عليه .

وفعلا استعد للقتال وهاجم الحصن ولكنه كما فى المرة الأولى لم يستطع التغلب عليه لمناعته وتحصن الأحباش فيه ، وإن كان الجنود قد وصلوا إلى الاستحكامات الدفاعية الخارجية، ولكنه نظرا لتكبد الخسائر الكثيرة وخاصة فى الأرواح وكذلك بعد أن ظل شهرين دون أن يستطيع فتحه ، أمر جنوده بالإنسحاب تاركا الحصن للأحباش(٣).

1- Mergery Perham : op. cit., p. 41 .

٢- محمد المعتصم سيد: مهدى الصومال بطل الثورة ضد الاستعمار، ص١٦ .

٣- لوثرب ستودارد: مرجع سابق، ص٣٥٨ .

واصل الإمام أحمد تقدمه بعد ذلك حتى وصل إلى أرض التجرى واستشهد فى القتال من قواده القائد (زحربوى محمد) وذلك بعد طعنه بحربة مسمومة من الأحباش، فحزن الإمام عليه حزنا شديدا لجهاده وإخلاصه الشديد، وحمل الإمام أحمد وجنوده على الذين استشهد هذا القائد على يديهم وقضى عليهم قضاء تاما، وعوض الله ذلك الحزن لفقد قائده البطل بأن ولدت زوجته دولنبره ولدا جميلا سماه (أحمد النجاشى) وكان أول ولد له يولد فى بلاد الحبشة[1].

كما انتهز المسلمون فرصة ولادة زوجة الإمام أحمد وعدم استطاعتها المسير فى ركاب الجيش فحطوا رحالهم للراحة وطلبا للتجهز والاستعداد بينما كان الملك الحبشى فى عاصمته أكسوم يستعد بجيوشه لملاقاة جيوش المسلمين بقوات وأسلحة جديدة عله ينتصر عليهم هذه المرة.

فى نفس الوقت وأثناء إجراء الاستعدادات لغزو مدينة أكسوم لم ينس الإمام أحد قواده والذى وقع أسيرا فى معركة بمنطقة تسمى (دول ميده) واستطاع الأحباش حجزه فى جزيرة وسط بحيرة كبيرة، يصعب على المسلمين الوصول إليها، لعدم وجود سفن أو قوارب معهم تستطيع الإبحار فى تلك المنطقة.

لكن الجنود صمموا على العبور وأخذوا يقيمون بعض الأطواف من جذوع الأشجار التى أثبتت فاعليتها، وتم لهم بواسطتها الوصول إلى شاطئ الجزيرة ومحاصرة الحصن، ولما رأى الأحباش ذلك أرسلوا إلى الإمام أحمد وفدا يطلب الأمان لهم ولأولادهم بعد إطلاق سراح القائد المسلم، فوافقهم الإمام على ذلك رغم أخذ الجزية منهم على من بقى على دينهم مع إطلاق سراح القائد الأسير.

بعد ذلك سار الإمام من تلك المنطقة إلى إقليم جراجى حتى وصل إلى معقل من معاقل الأحباش أعيد تسليحه وتحصينه مرة أخرى، فحاصرته القوات الصومالية فأرسل قائد الجيش يطلب الأمان بعد أن أعلن إسلامه، فوافق الإمام على ذلك وتصالح الاثنان دون قتال [2].

١- حمدى السيد سالم : مرجع سابق، ص٣٩٧ .

٢- لوثرب ستودارد: مرجع سابق، ص٣٦٠ .

هذا من ناحية الإمام أحمد وزحفه الثانى على بلاد الحبشة . أما من ناحية الأطراف الخارجية التى كانت ترقب هذا الصراع وتحاول الاستفادة منه لمصلحتها، فقد كان هناك الأتراك المسلمون الذين اختبروا فى الإمام أحمد القوة الجبارة التى ستقضى – لو استمرت على ذلك– على قوة الحبشة ويكون بذلك قد أسدى إليهم معروفا كبيرا دون حاجة إلى إراقة دماء أبنائها وتدمير سلاحها فى حرب لاتعرف مقدما نتيجتها بالنسبة لهم .

لذلك أرسل الإمام أحمد الوفود الصومالية إلى الأتراك فى اليمن وجاءت معها الوفود التركية محملة بالسلاح والأموال من اليمن مؤكدة له وقوفها بجانبه إلى آخر مدى، وما عليه إلا القضاء على هذه المملكة المترامية الأطراف . وفعلا قامت معارك بينهما انتهت بهزيمة الأحباش على مشارف سهل (قرقاره) وغنم المسلمون كثيرا من المعدات والأسلحة، مما دعى الملك الحبشى إلى أن يهرب إلى أكسوم عاصمة ملكه ليعيد حشد كل قواده [1].

وفعلا تم له ما أراد وذلك بعد أن جمع بقية قواده وبطاركته ودخل بهم إلى المدينة بعد أن كان معسكرا خارجها ، وعندما دخل إلى كنيستها العظيمة أخذ يخطب فيهم مستحثا روح القتال، لكن القوات الصومالية سرعان ما أحاطت بالمدينة وبدأت فى الدخول ، وسرعان ما هرب الملك وما بقى من جيوشه مرة أخرى تاركا عاصمة ملكه فى أيدى الإمام أحمد وجنوده[2].

لكن قوات الإمام أحمد سرعان ما أحاطت بالمدينة من جميع الجهات والمنافذ وبدأت فى مهاجمتها بسرعة خاطفة أخذ بها الأحباش على غرة وفوجئوا بها لدرجة أنهم ذهلوا عندما رأوا الجنود المسلمين داخل حصونهم يلتحمون بهم يداً بيد وسرعان ما انهار الملك وانهار قواده وأسرع خارجا من المدينة لائذا بالفرار بنفسه تاركا المدينة وما فيها [3].

بعد دخول الإمام أحمد إلى العاصمة أكسوم واتمام السيطرة أرسل إلى الحاكم التركى فى اليمن يبلغه تلك الأخبار السارة، كذلك حمل هذا الرسول الذى وصل بالأنباء إلى اليمن كثيراً من الهدايا تقديرا من الإمام أحمد لمعاونته السابقة بالسلاح ويطلب كذلك إمداده بالسلاح من مدافع وبنادق حديثة.

١– زاهر رياض : كنيسة الاسكندرية فى أفريقيا، ص١١٣ .

٢– محمد المعتصم سيد: مهدى الصومال بطل الثورة ضد الاستعمار ، ص١٥ .

٣– حمدى السيد سالم : مرجع سابق، ص٣٩٩ .

بناء على هذا الطلب أرسل الباشا التركى إلى الإمام أحمد بعد أن قبل هداياه التى أرسل بها، أرسل ما يقرب من ٩٠٠ جندى تركى مجهزين تجهيزا كاملا بمعداتهم وأسلحتهم وعلى رأسهم ضباطهم الأتراك(١).

كما كان لهذه الأسلحة الحديثة والجنود المدربين تدريبا جيدا علاوة على قيام الضباط الأتراك بالتدريب المنظم للجيوش الصومالية أثره الكبير فى الانتصارات التى أحرزها جيش الإمام أحمد بعد ذلك حينما أخذ يكتسح ما تبقى من مدن وأقاليم الحبشة بدون فتح(٢).

وهكذا لم تأت سنة ١٥٣٤ حتى كانت الجيوش الصومالية قد اجتاحت معظم الأقاليم الحبشية وسيطرت عليها سيطرة تامة . إزاء هذا الخطر الساحق فقد رأى الملك الحبشى أن يستعين بأوربا المسيحية أو إخوانه فى الدين وهم البرتغاليون لكى يستطيع استعادة ملكه المنهار، وكان أن أرسل الرسل بعد ذلك في عام ١٥٣٥ يطلب من ملك البرتغال المعونة العاجلة(٣).

كما يجدر بنا هنا أن نشير إلى أن طلب النجدة من البرتغاليين بالذات تم بناء على نصيحة الملكة الأم هيلانه. فقد كانت تقف وراء الملك رغم كل المصاعب التى واجهتهم، وكانت له الناصح الأمين والمستشار المخلص رغم تقدمها الكبير فى السن، ولاسيما أنه تولى ملك الحبشة وهو صغير السن وتولته برعايتها حتى شب وكبر وواجه الغزو ومعاركه(٤).

وهكذا لايكاد أعضاء البعثة الحبشية يحاولون الوصول إلى ميناء مصوع للابحار منه إلى البرتغال حتى كان الإمام أحمد بواسطة فرق استطلاعه قد عرف ما هو المقصود بتلك الرحلة، وكان أن انقضت عليهم القوة التى أرسلها الإمام أحمد للقبض على ذلك الوفد ونجا الرسول البرتغالى جون برمديز بمعجزة من الأسر، واستطاع الهروب والوصول إلى الشاطئ الشرقى للحبشة سليما دون أن يصاب ويستعد للإبحار مرة أخرى(٥).

١- أمين شاكر : مرجع سابق، ص٨٢ .

2- Mergery Perham : op. cit., p. 41 .

٣- حمدى السيد سالم : مرجع سابق، ص٣٩٧ . أنظر أيضا : راشد البراوى: الحبشة بين الاقطاع والعصر الحديث، ص٥٤ .

4- Cammerer : op. cit., p. 21 .

5- Jones and Monroa : A history of Abysinia. p. 83 .

وكان أن وصل برموديز إلى البرتغال وعرض على ملكها الحالة التى يعيش عليها الشعب والملك الحبشى وجيوشه التى ضاعت عن آخرها فما كان من الملك البرتغالى إلا أن استجاب لنداء الاستغاثة الذى أرسله الملك الحبشى عن طريق رسوله وأمر قواته فى الهند بإمداد الحبشة بما يلزمها من الجنود والسلاح[١].

وفعلا وصلت التعليمات إلى القواد البرتغاليين فى المحيط الهندى بمد يد المساعدة إلى الملك الحبشى، ووصلت إلى أرض الحبشة عدة مئات منهم على رأسها بعض الضباط. ولما وصلت إلى الشاطئ الشرقى، كانت أخبارها قد وصلت الإمام أحمد، وقبل أن تنضم إلى القوات الرئيسية للأحباش، انقض عليها الإمام أحمد بقواته وهى فى معسكرها وذلك قبل أن تتمكن من الاستعداد والدفاع عن نفسها. وكانت النتيجة أن قضى عليها قضاء مبرما وكذلك قضى على أمل ملك الحبشة فى الاستعانة بهذه القوات فى هزيمة الإمام أحمد[٢].

وهكذا لم تجد المساعدة البرتغالية فى وقف هزائم الملك الحبشى المتوالية أما البرتغاليون فقد ضاقوا ذرعا بموت خيرة جنودهم وقائدهم كريستوفر دى جاما والذى يعتبر من أبرع قادتهم فى المحيط الهندى. لذلك صمموا على إرسال العديد من الحملات للقضاء على الإمام أحمد والذى هدد بالفعل بالقضاء على الحبشة ووقف نفوذهم بمساعدة الأتراك فى البحر الأحمر والمحيط الهندى[٣].

هكذا استمر الصراع بينهما سجالا خلال السنوات التالية حتى عام ١٥٤٢م عندما سيطر الإمام أحمد بقواته على المناطق الوسطى والشمالية والغربية من الحبشة واستمرت معاركه فى نفس الوقت مع البرتغاليين الذين جاءوا هذه المرة بأعداد كبيرة وكميات ضخمة من الأسلحة[٤].

كما كان هدف الإمام أحمد فى هذه السنوات الأخيرة من حروبه الاحتفاظ بما استولى عليه من أملاك اتسعت حتى بلغت شرقى الحبشة وجنوبها كله أى معظمها مساحة واتساعا[٥].

١- محمود الشرقاوى: أثيوبيا ، ص٣٣ .

2- ALvares: op. cit., p. 389 .

3- Buxton : op. cit., p. 237 .

٤- يوسف أحمد: مرجع سابق، ص٣٨ .

٥- محمد المعتصم سيد: مهدى الصومال بطل الثورة ضد الاستعمار ، ص١٦ .

وبهذا النصر الكبير على الأحباش والبرتغاليين معا اعتقد الإمام أحمد أنه يستطيع من الآن مواجهة البرتغاليين وحده دون الاستعانة بالأتراك على أن يحتفظ هو بعد ذلك بتفوقه على الأحباش وكان فى ذلك الوقت قد بدأ يتخوف من نوايا الأتراك.

عندما بدأ الإمام أحمد يتخوف من نوايا الأتراك . وبعد أن تأكد من أهدافهم كان أكثر ما يخشاه هو أن ينازعوه السيادة على الحبشة بعد الانتصار عليها، ولهذا السبب فقد عاد الإمام أحمد بقواته كلها إلى عاصمته وبدأ يستعد استعدادا خاصا لمعرفته بزيادة التعاون بين الأحباش والبرتغاليين(١).

كما كان لعدم ثقته بالأتراك وتخليه عن طلب المساعدة منهم بعد ذلك أثره الكبير فيما بعد إذ أن ازدياد مساعدة البرتغاليون للأحباش قابله فى نفس الوقت من ناحية توقف مساعدات الأتراك له مما تسبب بعد ذلك فى تفوقهم عليه من ناحية نوعية السلاح المستعمل فى المعارك(٢).

هذا عن المعارك التى خاضها الصوماليون فى بلاد الحبشة أما بلاد النوبة فقد نشبت فيها معارك كثيرة ولكنها لم تكن بالعنف والقسوة التى حدثت بها معارك الحبشة. إذ أنه فى أثناء القتال بين الإمام والأحباش فى أكسوم وصلته أخبار عن سوء أحوال المسلمين فى بلاد النوبة، كما وصلت رسالة من أمرائهم فى (مزجه) وأناب عنهم أميراً يدعى (مكنز) بطلب الاستعانة بقوات الإمام أحمد لطرد الأحباش الذين يسيطرون عليهم بقسوة.

لذلك صمم الإمام أحمد على السير إليهم وانقاذهم بعد أن دخل أكسوم مرة أخرى، رغم أنه كان يعانى فى تلك الفترة من المرض الشديد. وعلى ذلك سارت الجيوش الصومالية إلى بلاد النوبة، وكان الملك الحبشى قد فر هاربا إليها بعد معركة أكسوم مباشرة لكى يحتمى بأمرائها، وقد وصلها قبل الإمام(٣).

لكن عندما عرف بقرب وصول قوات الإمام أحمد فر هاربا إلى داخل الهضبة مرة أخرى خوفا من القبض عليه ، وعندما وصل الإمام أحمد بقواته قضى على مقاومة الأحباش البسيطة وانقذ المسلمين هناك من سيطرتهم واستبدادهم وشارك أهالى النوبة فى الجهاد مع الإمام أحمد بعد ذلك فى المعارك التالية(٤).

1- Jones and Monroa : op. cit., p. 85 .

2- Augustus : Modern Abyssinia. p. 19 .

٣- حمدى السيد سالم : مرجع سابق، ص٣٩٨ .

4- Cammerer: op. cit ., p. 31 .

الباب الرابع

اصطلاحات الامام أحمد بن ابراهيم الداخلية

- استتباب الأمن .
- تشجيع الزراعة والتجارة وبناء المدن .
- نشر الإسلام والتعليم .
- إنشاء جيش قوى .

استتباب الأمن

في هذا الباب سنتكلم عن إصلاحات الإمام أحمد بن إبراهيم الداخلية بعد أن ذكرنا في الباب السابق المعارك التي خاضها والتفاصيل الخاصة بها ضد ملك الحبشة، إذ أن الإمام أحمد لم يهتم بالحرب فقط وتعبئة الجيوش وخوض المعارك والانتصار فيها . لكنه اهتم أيضا بالجبهة الداخلية إذ اعتبر أنها القاعدة العريضة التي ستقف وراءه.

وفي الحقيقة كان الإمام أحمد مدركا لأهمية الجبهة الداخلية ووقوفها وراء جيوشه المنتصرة، وأنها هي التي ستمده بالمؤن والرجال والسلاح أثناء المعارك ، فقام نتيجة لذلك بعدة اصلاحات كثيرة مكنت له من حب الناس وتعلقهم به إلى درجة كبيرة وتفانيهم في إخلاصه[١].

كانت هذه الإصلاحات متنوعة شملت توحيد الجبهة الداخلية، فمن توفير الأمن للسكان إلى تشجيع الزراعة والتجارة وصناعة الأسلحة وبناء القرى والمدن التي تهدمت نتيجة للحرب، كذلك نشر الإسلام والتعليم مع إنشاء الجيش القوي الذي تمثل في خوض المعارك في أنحاء الحبشة والانتصار فيها[٢].

وسنتكلم عن كل فقرة من هذه الفقرات على حدة ، ولو أن المعلومات التي وصلتنا من المراجع العربية والأفرنجية عن ذلك قليلة إذ أن المراجع التي أفادت في هذا الموضوع اهتمت بالمعارك الحربية والانتصارات أكثر من اهتمامها بالإصلاحات التي قام بها الإمام أحمد [٣].

لكن الكتابات القليلة التي وردت في هذه الكتب المتفرقة تعطينا على قلتها دليلا قويا على أن هذه الإصلاحات كانت على جانب كبير من الأهمية، كما أن هناك دليلا قويا وهو أن الإمام أحمد لم يكن يستطيع الحرب لمدة تزيد على خمسة عشر عاما متواصلة دون أن تكون خلفه جبهة داخلية سليمة تؤيده وتضحي من أجله وتمده بالسلاح والرجال والعتاد والمؤن[٤].

١- حمدي السيد سالم : الصومال قديما وحديثا ، ج١ ، ص٣٩٩ .

2- Cammerer : op. cit., p. 31 .

٣- زاهر رياض : الإسلام في أثيوبيا ، ص١١ .

٤- حمدي السيد سالم: مرجع سابق، ص٤٠٠ .

هذه الحرب التى نشبت بين الإمام أحمد وملك الحبشة وإن كانت لم تنشب فى الحبشة إلا لفترة قصيرة بالقياس إلى تاريخ البلاد الطويل، إلا أنها كانت ذات أثر عظيم فى تاريخها إذ أنها جلبت إلى البلاد عوامل عديدة وجديدة أخذت تؤثر فى حياة الشعب الصومالى والحبشى تأثيرات إيجابية.

كما كانت هناك نتائج أخرى وهو طبع الشعب بطابع مخالف لما كانت عليه حياة الشعب قبلها، مما يجعلنا نعتقد أن هذه الحروب قد نقلت هذه البلاد إلى العصر الحديث من تاريخها[١].

أما فيما يختص بالشعب المسلم فى الصومال فإن الإمام أحمد قام بتوحيد الجبهة الداخلية، وأعطى الأمان، وأعلن المساواة التامة بين الجميع، ولافضل لعربى على صومالى إلا بالعمل الصالح، واحترام كل مجاهد فى سبيل الله . كما أنه حارب الفردية والرجعية وروح القبيلة، ودعا إلى الإسلام والمحبة فى سبيل الله[٣].

وقد بلغ حب الشعب الصومالى للإمام أحمد أن نسجت حول اسمه الأقاصيص والأقوال. فقد روى أن رجلا يدعى ابن يونس رأى فى منامه أن الإمام يجلس مع الرسول وأبى بكر وعلى بن أبى طالب. فيشير النبى (صلى الله عليه وسلم) إلى الإمام ويقول : «هذا رجل يصلح الله به بلاد الحبشة»[٤].

كما روى عنه أنه قد سار مرة إلى السلطان لمقابلته ظللته سحابة من النحل ظلت تنتظره عند الباب أثناء المقابلة حتى إذا خرج ظللته ثانية إلى أن عاد إلى بيته [٥].

وكل هذا الحب والإجلال كان لأن الإمام أحمد لم يكن هدفه أن يصل إلى عرش الصومال أو أن يتوج ملكا أو سلطانا ، وإنما كان هدفه صالح الشعب والوطن. وظهر هذا حينما طغى

١- حمدى السيد سالم : مرجع سابق، ص٤٠٠ .

٢- زاهر رياض : الإسلام فى أثيوبيا، ص١٢ .

٣- حمدى السيد سالم : مرجع سابق، ص٤٠٠ .

٤- نفس المرجع ، ص٣٨٩ .

٥- زاهر رياض : الإسلام فى أثيوبيا، ص١٩٩ .

السلطان على الشعب ، وانهمك فى ملذاته مع ندمائه، تاركا للمفسدين الفرصة للقيام بأعمال الفساد فى البلاد ما دفع الإمام إلى إعلان الحرب على السلطان[١].

كما قامت الحروب بينهما التى انتصر فيها الإمام ومات السلطان فيها .

وهكذا أصبح من حق الإمام أحمد أن يتولى الأمور فى البلاد والقضاء على سيطرة الأحباش ونشر الدعوة الإسلامية وضمان استقلال وطنه [٢].

ويذكر عرب فقيه عن الإمام أحمد صفاته فى الحكم قائلا : «فأقام الإمام أحمد عند السلطان فى البلاد وحكم وأمر بالمعروف ونهى عن المنكر وقطع قطاع الطرق واصطلحت الرعية فى زمانه ، واستوى فى ملكه وأحب الأشراف والعلماء والفقهاء والمشايخ، ثم رتب الآلات والسيوف والخيول ونهض غازيا لتحرير البلاد»[٣].

كانت هذه الرغبة إلى جانب تدين الإمام أحمد وتقواه أكبر حافز على أن تنضم إليه جماعات كثيرة العدد من الشعب الراغب فى استقرار الأحوال والتمتع بالأمن والسلام، وكانت قوته الجديدة هذه كافية لأن تجعله يمنع ممثلى الحكومة من القدوم إلى هرر حيث استقرت به الأمور، كما حث الناس على عدم دفع الضرائب إلى محصلى الحكومة ما دامت عاجزة عن القضاء على هذه العصابات وما دام السلطان أبوبكر هو الذى يضفى عليها حمايته [٤].

من هذا التاريخ يبدأ عصر جديد من الصراع بين الولايات الإسلامية والملك الحبشى. فقد اتخذ الإمام أحمد له راية وهدف وجعل يتصرف تصرف الأمير المستقل - منع الجزية- كما حرض غيره من الأمراء المسلمين على عدم دفعها وعاتب على من خالفه منهم.

وإلى هنا يحسن أن نتنبه إلى ذلك إذ أنه كان عاقدا العزم على تحقيق آماله العريضة فى تحرير البلاد[٥].

١- عرب فقيه : مصدر سابق، ص١٥ .

٢- حمدى السيد سالم : مرجع سابق، ص٣٨٠ .

٣- عرب فقيه : مصدر سابق، ص١٥ .

٤- زاهر رياض : أبحاث من أثيوبيا، بحث رقم (١) ، ص٢٢٤ .

٥- زاهر رياض: الإسلام فى أثيوبيا، ص٢٠٠ .

وهكذا فإنه عندما أتيحت للإمام أحمد بعد ذلك الفرصة، عمل على تقسيم البلاد إلى خمسة أقسام، أمر على كل قسم منها أميرا ممن دخلوا فى الاسلام وهم : نفديه- عبد الكريم عثمان- عمر بن عبدالله- محمد بن أحمد- وكان ذلك فى سنة ١٥٢٧ والتف حوله كثير من المسلمين . وقد أشعلت الحماسة الدينية صدورهم، كما زاد من حماسهم الانتصارات التى أحرزوها بعد ذلك.

وأخذ الإمام يتصرف فى بلاد أثيوبيا التى تم له فتحها تصرف الملك المستقل - صاحب الأمر والنهى- وأخذ يرسل الولاة من قبله إلى بقية أجزاء البلاد لفتحها وإخضاعها وجمع الأموال من أهلها أو الاتفاق معهم على دفع الجزية وطريقة أدائها.

كما أرسل الإمام أحمد بعد ذلك إلى إقليم مقاطعة (بقى مدر) الأمير مجاهد فتم له فتحها واتفق مع أهلها على أن يظلوا فى أراضيهم يزرعونها لقاء خراج سنوى، كما ولى الإمام الأمير صبر الدين على إقليم سامون Samon حيث أخذ هذا القائد فى تعمير المدن وإنشاء المساجد فيها[١].

كذلك فإنه من أجل توحيد الجبهة الداخلية قام الإمام أحمد بتحرير الإمارات الإسلامية أولاً، وبعد ذلك بدأ فى غزو الحبشة نفسها وتأمين سكانها وذلك إما باعتناقهم الإسلام أو ببقائهم على دينهم مع دفع الجزية[٢].

كما قام الإمام أحمد بعد ذلك بتوزيع الغنائم على المسلمين والتى استطاعوا الاستيلاء عليها فى حروبهم المتعددة.

كانت النتيجة لذلك أن تحسنت أحوال البلاد وجلب السلاح من بلاد العرب وبدء فى بناء عمارة المدن وبناء المساجد فيها ومساكنها التى دمرتها الحروب السابقة[٣].

وكذلك من نتائج حركة التوسع الصومالية، أن أخذت العناصر الصومالية تتسرب إلى الأماكن المفتوحة ، وأدى ذلك بالتدريج إلى امتلاء هذه الأماكن بالصوماليين واستقرارهم فيها، وتغيرت تبعا لذلك أسماء القبائل فى أماكنها الجديدة[٤].

١- نفس المرجع ، ص٢٠٧ .

٢- عبد المنعم عبد الحليم : الجمهورية الصومالية، ص٢٠٠ .

٣- حمدى السيد سالم : مرجع سابق، ص٣٨١ .

٤- عبد المنعم عبد الحليم: الجمهورية الصومالية، ص٢٠٤ .

هكذا نجد أن الإمام أحمد لم يدخر وسعا فى تأمين حياة السكان سواء مسلمين أو مسيحيين واطمأن الناس إلى أموالهم وحياتهم ووسائل معيشتهم.

تشجيع الزراعة والتجارة وبناء القرى والمدن :

بعد هذا الانتصار الرائع للقوة الصومالية المسلمة، عاد المجاهدون الأبطال إلى مدينة هرر للراحة، ثم العودة إلى أرض الحبشة لنشر الإسلام فيها، وخلال فترة إقامتهم فى هرر قاموا بإعداد أراضيهم لانتاج حبوب الطعام وإعداد قوات وجيوش أكبر لمعارك كبرى داخل أرض الحبشة.

كما وصلتهم أسلحة ومواد تموينية من الجنوب العربى المسلم، تبرع بها أهالى حضرموت واليمن، وكان الشيوخ والمعلمون قد تكفلوا برعاية البلاد أثناء جهاد الجنود خارج الحدود[1].

كذلك تمكن التجار العرب من الانتشار فى مدن الحبشة المختلفة التى فتحت واستقروا متخذين أسواقا لتصريف تجارتهم . وكان هذا الأمر مشجعا للمسلمين للتنقل إلى هنا وهناك، فكونوا بوحدتهم الإسلامية نفوذهم المالى والتجارى فى بلاد الحبشة.

كما أنهم صاهروا الأسر الحبشية الكبيرة وأصبح لهم ما للأحباش أنفسهم من حقوق، فكانت النتيجة الأولى إذن لغزو الإمام أحمد هى خلق وضع ممتاز للمسلمين فى الحبشة.

وكان التجار العرب يستبدلون حاصلات البلاد التجارية بسلع مستوردة من المصنوعات الأجنبية . وانتهز هؤلاء فرصة رحلتهم إلى الساحل الشرقى مرة كل سنة أو كل سنتين لنشر الإسلام بين أهالى هذه البلاد حيث ظفر الإسلام بدخول عدد كبير فيه فى مدة وجيزة، وقد أخفق المبشرون إخفاقا تاما، على حين حقق الدعاة المسلمون نجاحا مستمرا وشقوا طريقهم نحو الجنوب[2].

كما كان لكثرة العملات الذهبية والفضية فى يد الجنود المسلمين عامة أثره فى ارتفاع سعر الحاجيات وأصبحت الكماليات ضروريات فاستوردت الصناعات المصرية والإسلامية، خاصة تلك التى يظهر فيها الفن الإسلامى.

١- حمدى السيد سالم : مرجع سابق، ص٣٨٥ .

٢- حسن أحمد محمود : انتشار الاسلام والثقافة العربية فى أفريقيا، ص١٢٣ .

وقد ضرب لنا عرب فقيه المثل على ذلك- وهو راوى سيرة الإمام أحمد- : «أنه كثرت النقود وأصبح البغل الواحد يساوى أربعين أوقية بعد أن كان ثمنه منذ عامين لايصل إلى ربع الأوقية الواحدة»(١).

ومما ساعد على ذلك ، ويجب علينا هنا أن نشير إليه بأمانة ، أن بلاد الحبشة نفسها كانت غنية بكنوزها ومعادنها، وقد وجد المسلمون من ذلك الكثير من التحف والنفائس المعلقة على جدران الكنائس والأديرة الخاصة بالعبادة .

وليس أدل على ذلك من دخول الإمام أحمد كنيسة الملك لينى دنجل التى كان قد بناها جده قبل وفاته ووجد فيها عدداً كبيراً وثميناً من التحف الفنية الجميلة وكلها من الذهب والفضة، كما وجد إلى جانب ذلك كتاب مقدس كبير الحجم كل صفحاته من الذهب، كذلك كانت جدران الكنائس مطلية بماء الذهب وهذا كله دليل على غنى الحبشة بالمعادن النفيسة(٢).

وقد دهش الإمام نفسه لما وجد هذه النقوش والأوانى الذهبية بكثرة مذهلة فى داخل الكنائس والأديرة ، كما كانت هناك صناعات يدوية أخرى مثل نسيج الحرير والمنسوجات المختلفة الأنواع ومظاهر الحضارة الأخرى التى لم يكن يتصور أنهم على هذه الدرجة بها (٣).

كذلك لم يفت الإمام أحمد مظاهر البذاخ والإسراف التى كان يعيش فيها ملوك الحبشة وأمرائها البطاركة والحكام والذى كان يتناقض كل التناقض مع الفقر المدقع الذى كان يعيش فيه عامة الشعب أنفسهم برغم غنى البلاد بالمعادن والغلات الكثيرة.

لكن فى نفس الوقت وجد الإمام أحمد أن هناك بعض المناطق التى تعانى من الأمراض نتيجة للقحط الذى نزل بها بعدم نزول الأمطار فى ذلك الوقت وهى بلاد التجرى لدرجة أن الجنود المسلمين العاملين فى حامياتها أصاب بعضهم الموت والضعف والهزال نتيجة لعدم التغذية.

فما كان من الإمام أحمد إلا أن أمر قواده بإرسال المعونات اللازمة من الغذاء والكساء إلى هذه المناطق دون تفرقة بين مسلم ومسيحى حتى استطاع سكان هذه البلاد المرور بهذه الأزمة عندما عادت الأمور إلى مجاريها بعودة الزراعة والحياة العادية .

١- عرب فقيه : مرجع سابق، ص١٨ .

2- Mergery Perham: op. cit.. p. 92 .

3- Trimingham : op. cit.. p. 66 .

وعند انتهاء هذه الأزمة وعلاجها ارتحل الإمام مرة أخرى إلى أرض (بقى مدر) واستقر بها لبعض الوقت بقصد تعميز هذه البلاد . وفعلا تم تنفيذ ما كان قد خططه لهذه المنطقة، فبدأ ببناء المساجد والقرى والمدن التى تهدمت من أثر المعارك التى نشبت فيها وحولها .

كما قام الإمام بعمل عدة مشروعات زراعية بهدف تشجيع الزراعة والاستيطان بعد ذلك للجنود والمسلمين ، مع فلاحة الأرض وزراعة الخضروات والمحاصيل ، مع التشجيع من المسئولين فى البلاد وعلى رأسهم الإمام أحمد حتى زادت المحاصيل وزادت الرقعة الزراعية وأصبحت مختلف الغلات فى متناول أيدى الناس فقيرهم وغنيهم.

وهكذا استمر الإمام أحمد محتفظا بالقوة الإسلامية، كقوة مسيطرة على معظم أراضى الحبشة، كما أن الإمام أحمد قد ولى الحكم للأمراء والقواد الذين يثق فيهم وقد أثبتوا كفاءتهم فى المعارك وفى إدارة شئون البلاد.

كما أن الإمام أحمد تخير كثيرا من القواد والأمراء الذين عينهم والذين ساروا على نهجه فى تعمير المدن والقرى التى خربتها الحرب، كذلك أكثروا من بناء المساجد والزوايا لتعليم أصول الدين.

ومن الذين جاءت أسماؤهم فى الكتب والمراجع على أن الإمام أحمد قد أعطاهم تصريف أمور هذه البلاد، وصلتنا بعض الأسماء وهم : الأمير زر سناى- على رقليم تجبرى- الأمير جاشا عمر على إقليم ولاجا، الأمير حسين على دوارو، الجراد صديق بن على على إقليم شرخا، الأمير عمر أخو الوزير عدلى على اقليم بالى(١).

أما الأمير أحمد نفسه فقد اختار منطقة تسمى دبيا التى اشتهرت بكثرة خيراتها ، فاتخذها عاصمة مؤقته له. والجدير بالذكر أن عمره فى ذلك الوقت لم يزد على ثلاثين سنة.

كما أن الإمام أحمد كانت له تطلعات أخرى اهتم بها وهى العمل على رفع الوعى الوطنى لأفراد الشعب الكادحين ، فاهتم بهم بدرجة كبيرة ووضع كل احتياجاتهم فى مقدمة الإنجازات التى حققها من ذلك أنه شجع الناس وخاصة الطبقة الكادحة نفسها والتى تعمل بالزراعة وأوجه النشاط الأخرى العمل بجد ونشاط حتى تستطيع تموين الجيش من الغلال والسلاح.

١- زاهر رياض : الإسلام فى أثيوبيا، ص٢٠٨ .

فى مقابل ذلك الإنتاج الذى طلبه منهم وفر لهم جميع الظروف المناسبة للعمل من مواد خام وراحة نفسية واطمئنان مع توفير الأموال اللازمة حتى تعلق به الشعب إلى درجة العبادة إذ أنهم لم يروا حاكما عادلا فى تاريخهم الطويل الحافل بالسلاطين المستبدين مثل هذا الإنسان.

كما أننا نلاحظ ظاهرة أخرى وهى مهمة ألا وهى نشر الثقافة بين جماهير الشعب، إذ أن الإمام أحمد لم ينس الدور الثقافى للمساجد والمدارس فى الإسلام ، فأكثر منها بدرجة كبيرة .

هذا جزء مما تم على يد الإمام فى تلك الفترة والتى استطعنا معرفتها من المراجع التى تكلمت عن هذا الموضوع، كما يجدر بنا هنا أن نشير إلى ملاحظة أخرى جديرة بالأهمية وهى أن الإمام أحمد لم يكتف بإنشاء المساجد والمدارس لتعيم أصول الدين وتعاليم الإسلام بل أرسل فى نفس الوقت كثيراً من الوفود والفقهاء إلى مختلف المدن والقرى لتعليم الناس وإرشادهم إلى أصول دينهم.

كذلك فإنه مما يجدر ذكره والإشارة إليه أنه فى تلك السنوات القصيرة عن العلم والدين حياة الناس مما ساعد على حالة من السلام والإطمئنان التى صاحبت ذلك حيث يذكر بعض المؤرخين أن هذه الفترة القصيرة تساوى فى محصلتها مئات السنين التى كانت قبلها [(١)].

وفى الصفحات المقبلة سنتكلم عن ذلك بالتفصيل حتى نلقى على ذلك المجهود ضوءاً أكبر.

نشر الإسلام والتعليم :

كما ذكرنا سابقا أنه كان لغزو الإمام أحمد لأراضى الحبشة والاستيلاء على معظم مدنها وقراها، أثر كبير فى نشر الإسلام، فقد انتهز كثير من المسلمين الذين كانوا قد عاشوا فى الحبشة من قبل مثل هذا الغزو وهذه الانتصارات الساحقة ، وساعدوا بإخلاص على نشر الدعوة الإسلامية بين الأحباش.

وهكذا تم هذا التحول الواسع النطاق إلى الإسلام فى قطاعات كثيرة، وذلك يوحى لنا لأول وهلة بأن هذه الحركة قد لقيت تأييدا من العامة من أفراد الشعب أنفسهم[(٢)].

١- حسن أحمد محمود : انتشار الإسلام والثقافة العربية فى أفريقيا، ص٣٥٠ .

٢- عبد الرحمن زكى : الاسلام والمسلمون فى شرق أفريقيا، ص٤٩ .

فقد استغل الزعماء المسيحيون الذين تحولوا إلى الإسلام نفوذهم الشخصى فى تحريض جيوشهم على الاقتداء بهم، ويقال إن فريقا منهم كانوا على جهل تام بأصول الدين ولو أنهم من الناحية الرسمية مسيحيون ومن ثم كان تغيير الدين أمرا أقل صعوبة عليهم(١).

وقد فضل سكان بعض الأقاليم الحبشية التى فتحها الإمام أحمد الإسلام حين انضم إلى جيشه الظافر أعداد كبيرة من عامة الشعب نتيجة لإنضمام زعمائهم إلى الإسلام(٢).

زيادة على ذلك فقد كان تدفق النفوذ الإسلامى إلى بلاد الحبشة مشجعا للعناصر العربية التى كانت تعيش هناك ظاهرة أو مستخفية ، وذلك تبعا لظروف ملك الحبشة وقد صادف الإسلام نجاحا كبيرا بين قبائل الجالا الذين استوطنوا بلاد الحبشة منذ الزمن القديم.

كانت قبائل الجالا هذه تنقسم إلى سبع قبائل صغيرة تضم فى مجموعها هذا النوع من الناس، وبعد انتشار الإسلام بينهم استقروا وفضلوا عدم التنقل والترحال كما كان يحدث من قبل وساهموا فى العمل بالزراعة والتجارة وأصبح لهم نشاط كبير(٣).

كذلك فقد صادف الإسلام انتشاراً واسعًا وعريضًا بين أهالى السهول الأحباش والذى ساعد على ذلك الدعاة الذين أرسلهم الإمام أحمد والذين لاقوا سهولة فى التعبير عن دينهم وكذلك ساعد على ذلك الانتشار التجار المسلمون من الذين تنقلوا بين الأحباش بأدواتهم وبضائعهم وكان لحسن معاملاتهم وأخلاقهم تأثير مباشر وكبير على الناس فى مختلف طبقاتهم من الشعب والجيش (٤).

هكذا أخذ هذا الانتشار يسرى بين جميع أفراد الشعب الحبشى من حكامه إلى أفراده العاديين ولم يستطع أحد إيقافه ، خاصة وأن الحكومة والأمراء والقواد منهم من قتل ومنهم من اعتنق الإسلام ومنهم من فر هاربا بعد هزيمته.

١- توماس ارنولد : الدعوة إلى الإسلام، ص١٠٢ . أنظر أيضا : عبد المجيد عابدين: بين الحبشة والغرب، ص١٩٣ .

٢- محمد المعتصم سيد: دول اسلامية فى شرق أفريقيا، ص٣٧٠ .

3- Trimingham : op. cit., p. 67 .

٤- حسن إبراهيم حسن: مرجع سابق، ص ص١٢١-١٢٢ .

كما أن هناك عاملاً آخر يجدر بنا أن نشير إليه لأهميته ، وهو أن هناك أعداداً كبيرة من الحكام والأحباش كانوا مسلمين فى بادئ الأمر وعندما هزموا فى المعارك وسيطر الأحباش على أقاليمهم أجبروهم على اعتناق المسيحية. وعندما هزموا وانتصرت الجيوش الصومالية وجدوها فرصة لاتعوض فى الإعلان عن دينهم.

كما كان هناك فريق كبير من الأحباش المسلمين يتظاهرون بالمسيحية لأنها دين الدولة الرسمى بينما فى قرارة أنفسهم يؤمنون بالإسلام فكانت هذه فرصتهم الكبيرة التى كانوا ينتظرونها (١).

وظاهرة أخرى كذلك لايسعنا إلا الإشارة إليها وهى أن المسلمين جميعا على اختلاف طبقاتهم ، انضموا إلى جيش الإمام أحمد دون تردد عندما أعلن الحرب ضد الأحباش وحملوا معه السلاح فيذ معاركه دون تردد.

هذا فى حد ذاته أدى إلى خدمة كبيرة أسديت إلى الإسلام أثناء الحرب وبعدها وهى أن عدداً كبيراً من هؤلاء كان يعمل فى مختلف أنحاء الحبشة تحت يد الأمراء والملك نفسه ولما كانوا يتصفون به من أمانة ودماثة فى الخلق . وكان اتصالهم هذا برجال الحكم والبلاط مبعث على الإعجاب بهذا الدين الذى يطبق هؤلاء تعاليمه ، ولذلك عندما جاءت فرصة النصر، ترك كثير من الحكام الأحباش المسيحية وأعلنوا الإسلام(٢).

وهكذا نرى أن الحرب التى نشبت كانت تحمل فى نفس الوقت أكثر من معناها السياسى . ففى الوقت الذى كانت جيوش الإمام أحمد تحتل المدن والقرى والمواقع العسكرية كان الدعاة المسلمون يتصلون بالسكان ويدعونهم إلى الإسلام.

وكان كما ذكرنا لأسباب عدة أهمها حسن معاملتهم ونظافتهم وتصرفاتهم السليمة أثر كبير فى دخول أعداد غفيرة من عامة الأحباش فى الإسلام(٣).

وبذلك فإن انتشار التعليم الدينى وفتح المساجد بعد بنائها لتكون مقرا للدين والتعليم زاد عدد الوافدين إلى هرر من العلماء والأدباء والشيوخ والطلاب لطلب العلم. كما ترتب على

١– توماس ارنولد : مرجع سابق، ص١٠٣ .

٢– زاهر رياض: الإسلام فى أثيوبيا ، ص٢١١ .

٣– محمد المعتصم : مرجع سابق، ص٣٨ .

على ذلك قيام نهضة تعليمية فى كافة المجالات وخاصة الدينية منها كذلك مبادئ الحساب والعلوم، كما أصبحت العربية لغة التعليم .

كما جاء معلمون من الحجاز ومصر واليمن لنشر اللغة والدين بين أبناء الصومال، وظهرت المصاحف المصرية فى الأسواق، كما بدأ تدريس التاريخ والأحداث بجانب علم اللغة والفقه والتشريع، مما جعل هرر كعبة للمخطوطات والمدونات ليس لها مثيل فى شرق أفريقيا كلها(١).

بذلك وفق الإسلام وسيطر سيطرة تامة وانتشر فى طول البلاد وعرضها حتى وصل إلى الحدود الجنوبية والغربية لبلاد الحبشة وقدرت مساحة تلك الأراضى فى أغلب المراجع التى عاصرت تلك الأحداث بمقدار ثلثى الحبشة كما أخذ الإسلام فى الانتشار إلى أرض السودان وبلاد النوبة(٢).

وبذلك نستطيع أن نقول إن هذا الانتصار الساحق دفع عدداً كبيراً من المسيحيين إلى اعتناق الإسلام. فاعتنقه نسبة هائلة من السكان وفى نفس الوقت فإن من آثر الاحتفاظ بالمسيحية وهم قلة، فقد قبلوا دفع الجزية عن طيب خاطر(٣).

وهكذا نرى أن الإمام أحمد عندما كان يحارب لم يدخر جهده كله للمعارك الحربية على أساس أنه رجل عسكرى بل كان يولى الناحية الدينية جل اهتمامه إذ كان يسير الدعاة إلى جانب حملة السلاح فى طريق واحد وهو نشر الإسلام وتعاليمه فى كل مكان يحل به المسلمون(٤).

1- Trimingham : op. cit., p. 67 .

2- Trimingham : op.cit., p. 88 .

أنظر أيضا : حمدى السيد سالم : مرجع سابق، ص٣٩٤ .

٣- حسن محمد جوهر : أثيوبيا، ص٦٣ .

٤- حسن أحمد محمود : مرجع سابق، ص٤٦٧ .

إنشاء جيش قوى :

مما سبق كله عرفنا أن الإمام أحمد بن إبراهيم لم يبدأ حروبه فى بلاد الحبشة إلا بعد أن استعد استعدادا كاملا، وذلك بإعداد رجال جيشه للحرب نفسيا وعسكريا، والإهتمام بإعداد هؤلاء الرجال المحاربين بما يحتاجون إليه من مؤن وعتاد.

وبدأ هذا الجيش الذى تم إعداده جيدا وزود بأحدث الأسلحة وقد بلغ تعداده حوالى عشرة آلاف جندى، ظل يقاتل تحت قيادة الإمام أحمد ما يقرب من إثنى عشر عاما كاملة من ٩٣٧هـ/ ٩٥٠هـ (١٥٣٢-١٥٤٣م) وفى تلك الفترة أظهر هذا الجيش تفوقه الساحق على الجيش الحبشى فى كل المعارك التى خاضها [١].

ولاننسى أن هذا التفوق يعود فى جانب كبير منه إلى عامل آخر يضاف إلى إدارة الإمام أحمد الماهرة، ألا وهو مساعدة الأتراك العثمانيين له منذ أن قام بثورته ضد السلطان فى سنة ١٥٢٦م ، وذلك بالتشجيع المعنوى فى بادئ الأمر، ثم بالسلاح بعد ذلك عندما غزا بلاد الحبشة.

وقد أمده الأتراك بناء على الاتفاقيات التى عقدت بينهم بالأسلحة الحديثة مثل البنادق والمدافع وهى أسلحة لم يكن الأحباش قد عرفوها بعد ولاعرفوا مدى قوتها أو حتى كيفية استعمالها .

لذلك كان جنودهم يتساقطون بسرعة فرادى وجماعات أمامهم دون أن يشتبكوا مع المسلمين، كما كان يحدث فى حروبهم من قبل [٢].

كما كان لتدريب الضباط الأتراك الذين حضروا مع هذه الأسلحة لقواد الإمام أحمد أثره الكبير فى الانتصارات التى أحرزوها فيما بعد. فقد أخذت جيوش الإمام أحمد تكتسح البلاد الحبشية بدون توقف، ولم تستطع الجيوش أن توقف زحفها المدمر على مدنها وقراها وأقاليمها [٣].

كما أننا نستطيع أن نذكر أنه كان من أسباب قوة الإمام أحمد العسكرية نجاحه الكبير فى تعبئة رجاله المحاربين تعبئة روحية للجهاد فى سبيل الله. فقد كانوا يحاربون تحت راية

١- يوسف أحمد: الإسلام فى الحبشة ، ص٣٨ .

٢- زاهر رياض : كنيسة الاسكندرية فى افريقيا، ص١١٧ .

3- Trimingham : op.cit.. p. 88 .

الإسلام وعلى استعداد تام للشهادة بأرواحهم فى سبيل ذلك ولايخفى ما لهذه الناحية النفسية من أهمية فى تثبيت المقاتل فى موقعه والقتال بحماسة بالغة تفوق من كان يقاتل دون عقيدة تدفعه إلى ذلك [١].

وهكذا نجد أن الإمام أحمد لم يترك وسيلة لتقوية جيشه إلا واتخذها لتساعده فى حروبه وهزيمة الأحباش. مثل التدريب على السلاح واتقان استعماله حتى الحديث منه، وذلك على يد الضباط الأتراك الذين وفدوا مع هذا السلاح.

كما أن الإمام لم يترك وسيلة نفسية أخرى مهمة وهى تعبئة الجنود نفسيا مع الإعداد العسكرى لهم فى نفس الوقت، كذلك تبصيرهم بأمور الدين وأهمية الفائدة التى ستعود عليهم كأفراد وكشعب من نشر هذا الدين وتعاليمه بين الأحباش.

كذلك توحيده الجبهة الداخلية والتى كانت تقف وراء جيشه المنتصر أفراداً وقواداً وأمراءً تمده بكل ما يحتاجه الجيش من مؤن وعتاد.

الباب الخامس

نهاية جهاد الإمام أحمد

أ-البرتغاليون ومناصرة الأحباش في حروبهم ضد الإمام أحمد

= موت القواد العظام في جيوش الإمام أحمد.

= ملك الحبشة جلاوديوس وطلب النجدة من البرتغاليين.

= وصول الأسطول البرتغالي والاشتراك في القتال

ب- عودة الإمارات الإسلامية تحت نفوذ الحبشة

= الأمير نور بن مجاهد ومحاولة استمرار النضال.

= النتائج التي ترتبت على جهاد الإمام أحمد.

البرتغاليون ومناصرة الأحباش فى حروبهم ضد الإمام أحمد

فى هذا الباب نتكلم عن بداية النهاية لهذا البطل الشجاع – الإمام أحمد– إذ أن الظروف نفسها وتطورات الأحداث بدأت فى التغير ضده، فقد جد فى الموقف كثير من العوامل فرضت عليه فرضا، ومن ثم قلبت خططه رأسا على عقب.

كان أول هذه العوامل موت أغلب قواده المخلصين فى ميادين الحرب التى استمرت ما يقرب من إثنى عشر عاما متواصلة دون راحة فيها.

وهناك حقيقة لايمكن اغفالها ، وهى أن الإمام أحمد أخلص له هؤلاء القواد إخلاصا كبيرا تمثل فى تضحيتهم لا من خوفهم من قائدهم وإنما حبا له لأخوته وصداقته الشخصية لهم.. إذ كانوا يده اليمنى التى يعتمد عليها فى كل شئ .

فى نفس الوقت أخطأ الإمام أحمد بعدم تدريب صف ثانى من القواد حتى إذا أصيب أحد القواد الأوائل استطاع أفراد الصف الثانى الحلول محله وهكذا يضمن لجيشه الاحتياطى ولايجد فراغا لايستطيع التحكم فيه بعد ذلك.

هذا عن العامل الأول ، أما العامل الثانى فهو محاولة الأتراك فرض السيطرة عليه بعد كل هذه الانتصارات الرائعة التى أحرزها ، الأمر الذى أدى إلى تخوفه منهم ثم انتهى الأمر بقطع علاقاته معهم(٢).

أما العامل الثالث فهو تدخل البرتغاليين الحاسم بجانب الأحباش بما لديهم من أسلحة حديثة استطاعوا بها تعويض ملك الحبشة عن النقص الذى كان يعانيه ويتفوق عليه به الإمام أحمد وجيوشه وهى الأسلحة التى أمده بها الأتراك منذ بداية حربه، مما كان سببًا فى التفوق الساحق الذى ظهر به (٣).

كما كانت هناك عوامل غير منظورة ساعدت على ذلك وقد تمثلت فى مرض الإمام أحمد الشديد وإرهاقه بسبب كثرة المعارك وضراوتها والعبء الكبير الذى كان يقوم به ليل نهار من الإعداد للمعارك وتجهيز الجيوش وإمدادها بالأسلحة ومواد التموين. وكذلك بسبب موت زوجته ومعظم أبنائه فى الجهاد .

1- Mergery Perham: op. cit., p. 42 .

2- Trimingham : op. cit., p. 89 .

كما كان هناك عامل آخر قوى وهو إنهاك الجيوش الإسلامية وكثرة الضحايا بسبب هذه المعارك . وأخيرا تفشى الأمراض والأوبئة والمجاعات بين الأحباش أنفسهم وانتقالها إلى جنوده الذين كانوا يحرسون فى الحاميات.

هذه العوامل كلها أدت إلى تغير الظروف كلية ضد الإمام أحمد ومن ثم كانت بداية النهاية لسيرته وقصة حياته كلها.

وقد سبق أن أوضحنا أن هذه الحرب التى استمرت ما يزيد على اثنتى عشر عاما، لم تتمخض فقط عن تمزيق الحبشة وسكانها ، وانقسامهم إلى معسكرين يحارب كل منهما الآخر، وما ترتب على ذلك من إلحاق ضرر بليغ باقتصاديات البلاد. إنما تمخضت عن دخول كل من الأتراك والبرتغاليين حلبة هذا الصراع بين الإسلام والمسيحية فى الحبشة[١].

وقد لعبت هذه القوى الخارجية الدور الرئيسى فى تقرير مصير هذا الصراع .

كان الأتراك قد أدركوا مدى ما سيترتب على قيام التعاون بين الأحباش والبرتغاليين من خطورة ولذلك عمل الأتراك على تأكيد تحالفهم مع الإمام أحمد ضد هذا التحالف الجديد، كما عملوا ما فى وسعهم على قطع صلة الأحباش من الداخل بالبحر، وحصرهم داخل الهضبة حتى يكونوا معزولين عن حلفائهم البرتغاليين وأسطولهم فى المحيط الهندى[٢].

ونجح الأتراك فعلاً فى عزل الأحباش داخل الهضبة ومنعوهم من الوصول إلى البحر، وترتب على ذلك قلة عدد الأحباش الذين كانوا يحجون إلى بيت المقدس عن طريق البحر الأحمر[٣].

هذا من ناحية الأتراك والإمام أحمد. أما عن الأحباش فإنه نتيجة لهذه الهزائم المتوالية والتدمير الذى أصاب البلاد والقري وهجرة الناس إلى الجبال وجد الملك الحبشى نفسه مشردا هو وأسرته كما وجد أنه لايستطيع مقاومة هذا الزحف[٤] إلا بالاستعانة بالأسلحة الحديثة من الحلفاء البرتغاليين.

ومما ساعد على ذلك أن العلاقة بينهما كانت تسير فى تحسن مستمر . إذ أن جون برمديز والذى كان قد وصل من قبل الملك إلى ملك الحبشة والذى احتجزه لاحتياجه إليه فى تنظيم

1- Trimingham : op. cit., p. 89 .

٢- زاهر رياض : الإسلام فى أثيوبيا ، ص٢٦٠ .

3- Ludelphus: A new history of Abssinia. p. 221 .

4- Mergery Perham : op. cit., p. 41 .

مهام الدولة، وقد أرسله الملك إلى البرتغال فى عام ١٥٣٥ وذلك لطلب المساعدة منه لصد هجوم الإمام أحمد[١].

وفى هذا الوقت المتأخر الذى طلب فيه الأحباش مساعدة إخوانهم البرتغاليين وكان الإمام أحمد أسبق منهم- كما ذكرنا سابقا- فى التعاون مع إخوانه الأتراك الذين أمدوه بالأسلحة الحديثة والضباط لتدريب الجنود والقواد الصوماليين، خاصة على البنادق والمدافع الثقيلة، وكان لهذا- كما رأينا- أثره الكبير فى هزيمة الأحباش[٢].

وكان لهذا التدخل الخارجي من الأتراك وبعد ذلك من البرتغاليين الذين وقفوا بكل ثقلهم مع الملك الحبشى، بداية النهاية للغزو الإسلامى للحبشة[٣]. إذ كان للبرتغاليين وتدخلهم الأثر الفعال فى نصرة الأحباش بعد ذلك، كما كان لتدخل الأتراك قبلهم الأثر الأكبر فى نصرة المسلمين على الأحباش. وهكذا سنرى دور كل منهم وتأثيره على مجريات الأمور[٤].

وقد عثر الباحثون فى بلاد الحبشة على وثيقة تاريخية تعود إلى سنوات تلك المعارك أثناء حكم الملك لينى دنجل وقد جاء فيها ما يلى [٥]:

«إننا كنا نحترق . لقد أصبحت بلادنا بما تحويه من قرى ومدن وكنائس ومعابد كلها دمار فى دمار. لقد نهبت كنوزنا ، كنائسنا ، واحترقت كلها، وهى دمار فى دمار عن آخرها، مشرد أهلها وكهانها، على وجوههم فى الجبال. وأصبح أملنا ضعيفا فى العودة إلى بلادنا أو النصر مرة أخرى على هذه الجيوش الزاحفة علينا. والذى زاد الطين بله أن الإمام أحمد تلقى من أصدقائه الأتراك مساعدات ضخمة من الأسلحة الحديثة مثل البنادق التي تطلق الرصاص القاتل. لقد فوجئنا بهذا الرصاص ولم ندرى ماذا نفعل بالمصابين به والذين لم يقدر لهم الموت. إذ كنا لانعرف كيفية العلاج من هذا السلاح الذى لانعرفه والذى فاجأنا به الإمام أحمد ومن ورائه أصدقاؤه الأتراك»[٦].

1- Ludelphus: op.cit., p. 222 .

٢- زاهر رياض : كنيسة الاسكندرية فى أفريقيا، ص١١٩ .

٣- محمود الشرقاوى : أثيوبيا، ص٣٣ .

4- Jones and Monroa : A history of Abyssinia . p. 84 ; Mergery perham : op.cit., p. 43 .

5- Boxten : Traviles in Africa. p. 34 .

6- Ludelphus: op. cit., p. 221 .

وهكذا فإننا نرى فى كلمات هذه الوثيقة أصدق وصف لما كانت عليه بلاد الحبشة فى ذلك الوقت والنتائج التى ترتبت على هذه الحرب من نصر ساحق للإمام أحمد ومن هزيمة مدمرة للأحباش وعلى رأسهم الملك.

ونتيجة لطلب المساعدة أرسل البرتغاليون عددا يقرب من المائتين من جنودهم المدربين أحسن تدريب لمساعدة الملك الحبشى. ولكن عند دخول جنود هذه القوة إلى الحبشة ولتغيير المناخ أصيب جنودها بالأمراض المتفشية هناك ومن بينها الحمى التى قضت على عدد كبير منهم، كما أن ارتفاع أراضى الحبشة بمستوى مرتفع عن سطح البحر وصعوبة المواصلات كان من العوامل التى أزعجتهم .

ولكن ما أن تأقلم الجنود البرتغاليون على مناخ الحبشة وعلى طبيعة بلادها الجبلية الوعرة حتى أخذوا يشتركون مع الجنود الأحباش فى القتال الدائر بينهم وبين الإمام أحمد[1].

كانت المعارك التى اشترك فيها البرتغاليين مع الأحباش فى أول الأمر دون استعداد أو تدريب أو راحة إذ إنهم بمجرد وصولهم هاجمتهم الأمراض ومن بقى منهم اشترك فى القتال بدون استعداد بينما كانت قوة الإمام أحمد فى ذلك الوقت على حسب ما جاء فى المراجع المعاصرة كالآتى :

١٥ ألف جندى مشاة - ١٥ ألف من الفرسان - ٢٠٠ جندى من الجنود الأتراك المسلحين بالأسلحة الحديثة منها البنادق والمدافع [2].

وكان أن نشبت أول معركة بينهما. كما كان لتفوق المسلمين عسكريا وروحهم المعنوية العالية ، أثره الكبير فى تحقيق النصر على الأحباش الذين كانت معنوياتهم منهارة من قبل بدء المعركة.

كذلك لم تنفع الكابتن جومين (القائد البرتغالى) شجاعته الشخصية فى المعركة وجنوده القلائل الذين لم يستطيعوا تغيير مسار المعركة بأسلحتهم القليلة وكانت النتيجة الهزيمة الساحقة لهم وللأحباش معا [3].

وهكذا فإن العوامل التى سبق ذكرها اجتمعت كلها فى بداية الأمر وما لبث أن أخذت تلعب دورها ضد الإمام أحمد ، وحولت هذا النصر الساحق على مدى هذه السنين المتعددة إلى هزيمة وضعت حدا لقصة حياة الإمام أحمد.

1- Cammerer : op. cit., p. 22 .

2- Ludelphus: op. cit., p. 223 .

3- Beckingham : Some Records of Ethiopia . p. 95 .

موت القواد العظام فى جيش الإمام أحمد:

ففى تلك المعركة التى انهزم فيها البرتغاليون والأحباش معا سقط الوزير عدلى قتيلا برصاص بنادق البرتغاليين، ولما وصل خبر موت الوزير إلى الإمام أحمد جمع القواد والجيوش وأمر مناديا ينادى فيهم إن عبدا من عبيد الله قد استشهد وسوف يقوم واحد آخر مكانه والذى توفاه الله هو الوزير عدلى».

حينئذ عندما سمعت آلاف الجنود هذا الكلام وسرى خبر موت القائد عدلى أخذوا فى البكاء والنحيب على قائدهم الشجاع والمحبوب وحزن عليه المسلمون جميعا حزنا شديدا ، أما الجنود الأحباش فإنهم عندما وصلهم الخبر فرحوا فرحا شديدا وقد اعتبروا هذا تحولاً لصالحهم بعد موت أشجع القواد لدى الإمام أحمد وأمهرهم فنا وقتالا [١].

كما زاد الطين بلة بعد وفاة الوزير عدلى أن صاحب الإمام أحمد الحزن الشديد لذلك، كما أن وفاة القائد المجاهد الجراد عبد الناصر وزوجته المجاهدة بلقيسه ، كذلك وفاة ابنه المجاهد محمد وزوجته دولنبره قد زادت من أحزانه ، وبذلك تكون قد اكتملت صورة الحزن الشديد لدى الإمام أحمد مما أدى إلى مرضه بعد ذلك مرضا شديدا[٢].

هذا عن ظروف الإمام أحمد الداخلية. أما علاقاته الخارجية فقد جد عامل جديد على علاقاته بالأتراك ألا وهو خوفه منهم بعد أن يقضى على الأحباش نهائيًا .. عن أن يتحول إلى حرب معهم بعد حربه مع الأحباش. لذلك انتهز فرصة هذه الانتصارات كلها وقطع علاقاته مع مسلمى اليمن والأتراك العثمانيين فى نفس الوقت ؛ على أمل أنه لن يجد مقاومة من الأحباش بعد ذلك واعتقاده أن الأمور ستسير فى صالحه كما كانت تسير قبل ذلك[٣].

وبدأت الأمور تتغير إلى ما هو اسوأ إذ أن البرتغاليين ازداد تعاونهم مع الأحباش بصورة جعلت الأمور تتعقد بالنسبة له وتصبح الظروف والوقت كله فى صالح الأحباش بينما كان الإمام أحمد وحيدا بعد أن رفع الأتراك يدهم عن مساعدته بعد أن رفض تلقى المعونة منهم، وعرفوا أنه عقد العزم على عدم التعاون معهم بعد ذلك.

١- لوثرب ستودارد: حاضر العالم الإسلامى، ج١ ، ص٣٦ .

2- Trimhngham : op.cit., p. 89 ; Junad : The hand book of Africa .p. 85 .

٣- حمدى السيد سالم: مرجع سابق، ص٤٠٠ .

وبالتالى أخذت العلاقات تسوء من سئ إلى أسوأ بالتدريج، بعد أن رفضوا قبول الإمدادات التى كانت ترسل إليه على شكل أسلحة ورجال واكتفى الأتراك فى تلك الفترة بالتطلع بعين الحسرة والضيق لزيادة التعاون بين الأحباش وحلفائهم البرتغاليين[١].

لهذه الظروف كلها وطد الإمام أحمد أمره على أن يقطع نهائيًا صلته بالأتراك منتهزا هذه الفرصة من سوء العلاقات وازدياد الثقة فى نفسه من كونه هزم البرتغاليين الذين هم فى نفس الوقت هزموا الأتراك وأخرجوهم من المحيط الهندى وضيقوا عليهم الخناق فى البحر الأحمر وسواحل اليمن ولكن هذا كان إيذانا بأفول نجمه وهزيمة قواته وزوال دولته [٢].

ولكن رغم كل تلك التطورات جد عامل جديد قلب كل موازين القوى فى تلك الفترة سواء القوى الإسلامية أو الحبشية والأتراك والبرتغاليين فى نفس الوقت ألا وهو موت الملك لينى دنجل متأثرا بالهزائم التى أصيب بها جيشه وفراره من بلد إلى آخر بدون مأوى هائما على وجهه لايجد نصيراً حتى من أفراد أسرته المقربين إليه.

وكانت النتيجة لوفاة الملك لينى دنجل أن اشتدت هجمات الإمام أحمد على الأحباش وأصبحت انتصاراته فى حكم المقرر حتى قبل أن يدخل معهم فى المعارك لثقته فى قوة جيشه وحالتهم المعنوية وانهيار معنويات الأحباش[٣].

ويجدر بنا هنا أن نشير إلى أن الملك لينى دنجل قبل وفاته قد بادر إلى إعلان تبعية الكنيسة الأثيوبية لكنيسة الغرب عملا بنصيحة حلفائه البرتغاليين الذين رغبوا فى ذلك ثمنا لتحالفهم معه وإمداده له بالأسلحة.

وهكذا لم تنقض هذه السنة ١٥٤٠م حتى كان العرب قد جعلوا أنفسهم سادة على الحبشة كلها ، وخلف الملك المتوفى إبنه كلاديوس الذى سرعان ما تغير الموقف إلى لصالحه فجأة إذ أنزل البرتغاليون قوة أخرى فى ميناء مصوع [٤].

١- محمد المعتصم سيد: دول إسلامية فى شرق أفريقيا، ص٣٧ .

2- Maugham : Africa as I have known it . p. 76 .

3- Cammerer: op. cit., p. 34 .

وأنظر أيضا : زاهر رياض: مرجع سابق، ص١١٨ .

٤- عبد المجيد عابدين: مرجع سابق، ص١٩٣ .

على الرغم من الهزيمة الساحقة التى حاقت بالأحباش من قبل وكادت تقضى عليهم فإن القلول التى تمكنت من النجاة انضمت إلى البقية الباقية من جيش الملك ، ثم جاءت بعد ذلك القوة الجديدة فانضموا إليها وأعطوها خبرة المعركة السابقة والظروف التى نشأت فيها ونتائجها ؛ مما كان له أكبر الأثر بعد ذلك فى تدارك الأخطاء فى المعارك المقبلة بينهم(١).

وبذلك أخذت تلك الحرب اتجاهاً جديداً بفضل هذا الدعم الحربى الكبير.

الملك الحبشى كلاوديوس وطلب النجدة من البرتغاليين :

واستطرادا لما سبق نستطيع أن نبين هنا الدور الذى لعبته القوات البرتغالية وأهميته فى إنهاء هذه الحرب لصالح الأحباش بعد أن كاد الإمام أحمد أن يحيل بلاد الحبشة إلى دولة إسلامية تدين بالإسلام بدلا من المسيحية.

وجاء البرتغاليون هذه المرة بأعداد أكبر من المرة الأولى إذ تكونت حملتهم من ٥٠٠ جندى برتغالى مدربين جيدا وبشكل يفوق تدريب الحملة الأولى التى قضى عليها الإمام أحمد فى معاركه السابقة، وكذلك نوع السلاح الذى كانت تتسلح به كان جيدا زيادة على عدد غير قليل من المدافع التى كان لها دور كبير فى إحراز النصر للأحباش بعد ذلك ضد الإمام أحمد(٢).

وهكذا جاء البرتغاليون هذه المرة وقد تعلموا من المعركة السابقة دروساً كثيرة، كما أن موت أغلب جنودهم كان ماثلا فى أذهانهم وأنه لايجب أن تتكرر هذه المأساة مرة أخرى(٣).

وأخذ الملك الشاب يعيد تدريب جيشه على الأسلحة الحديثة التى أحضرها البرتغاليون وضباطهم له. ولكن كانت هناك عدة صعوبات قابلت الأحباش فى استيعاب ذلك التدريب . وهى تتمثل فى عدم قدرة الجنود الأحباش على تعلم كيفية إطلاق النار من البنادق البرتغالية الحديثة وخوفهم منها وإرجاعهم صوتها إلى السحر.

كما كان من هذه الصعوبات عدم ترابط قيادة الجيش الحبشى فى ميادين القتال

١- راشد البراوى: الحبشة بين الاقطاع والعصر الحديث، ص٥٤ .

2- Cammerer : op. cit., p. 22 .

3- Ludelphus: op. cit., p. 222 .

4- Ludelphus: op. cit., p. 223 & Maugham : op. cit., p. 77 .

وتنظيم أنفسهم فى دفاعات وأقسام كل قسم منها له نمطه فى القتال توكل إليه مهمة معروفة، إذ كانوا يهجمون كمجموعة واحدة دون ترابط أو تنسيق بين أجنحة الجيش المختلفة(١).

كما كانت أسلحتهم تتمثل فى عدم فاعليتها على المسلمين إذ كان أكثر اعتمادهم على القوس والرمح والخناجر والسيوف فى قتالهم، وكان نتيجة لذلك كان وضع عبء القتال كله كما حدث من قبل على الجنود البرتغاليين .

لكن الضباط البرتغاليين تداركوا هذه الأخطاء ، وأخذوا يدربون الجنود الأحباش على أسلحتهم أولا بأول حتى استطاعوا اتقان اطلاقها واستخدامها الإستخدام السليم حتى إذا نشبت المعارك بعد ذلك بينهم وبين الإمام نجد النتائج التى أحرزوها نتيجة ذلك التدريب تعتبر باهرة بالنسبة لما كانوا عليه قبلا(٢).

وصول الأسطول البرتغالى واشتراك البرتغاليين فى القتال:

وفيما يلى سنرى نهاية هذا التحالف العسكرى والذى كان من نتيجته تحول الأمر بالنسبة للأحباش من هزيمة إلى نصر، وبالتالى إلى هزيمة الإمام أحمد وقتله على يد البرتغاليين وانهيار القوة الإسلامية إنهيارا كاملا بموت قائدها وزعيمها الروحى الإمام أحمد

بدأ هذا الأمر بأن صمم الملك الحبشى كلاديوس على الاستعانة بكل ما لدى البرتغاليين من فنون الحرب الحديثة والاستعانة بكل جنودهم وأسلحتهم فى ذلك، وتم له ما أراد إذ أرسل له ملك البرتغال عن طريق قواده وأساطيله فى المحيط الهندى ٥٠٠ جندى مسلحين بأسلحتهم الحديثة لمناصرته وتأييده. هذا فضلا عن الحصار البحرى الذى فرضه الأسطول البرتغالى على شاطئ الحبشة الشرقى والذى كان له أكبر الأثر فى عزل الحبشة والإمام أحمد عن الاتصال بالعالم الخارجى(٣).

وزيادة على ذلك فقد زود الملك الحبشى بعض الفرق فى جيشه الجديد بالبنادق الحديثة والبارود الذى صنع محليا، والذى تم تدريبهم على استعماله بواسطة القواد البرتغاليين، وهكذا توافرت الظروف كلها لمساندته واستعدت قواته استعدادا كاملا(٤).

1- Jones and Monroa : op.cit., p. 83 .

2- Cammerer : op.cit., p. 36 ; Junad : op. cit., p. 86 .

3- Cammerer : op. cit , p. 22 .

٤- حمدى السيد سالم: مرجع سابق، ص٤٠٠ .

وهكذا عندما استؤنفت المعارك بينهما كان الإمام أحمد يظن أن الملك الحبشى ليس لديه القدرة على القتال بسبب الهزائم التى لحقت بوالده قبل وفاته (١).

وحتى ذلك الوقت نفسه كانت الإمدادات البرتغالية تصل إلى الحبشة بكميات محدودة حتى سنة ١٥٤١ إذ أخذت فى الازدياد وبشكل مؤثر وفعال، وبذلك أخذ الزحف الإسلامى المدمر الذى كان يكتسح البلاد الحبشة يتوقف شيئا فشيئا ، إذ انقلب الميزان لصالح الأحباش وأخذوا يستعملون نفس الأسلحة التى تفوق بها المسلمون عليهم(٢).

فلما كانت هذه القوات مدربة جيدا على يد الضباط البرتغاليين وقد استوعبت الدروس جيدا من الهزائم السابقة، فقد أحضرت معها بعض الأسلحة الثقيلة مثل المدافع، والتى سحبت بين دروب الجبال العالية بواسطة عربات خشبية تجرها الخيول إلى مواقع القتال وميادين الحرب استعداداً لصد هجوم قوات الإمام أحمد(٣).

وفى الجانب الآخر لم يكن الإمام أحمد قد توقف عن استعداداته للمعارك المقبلة بما كان لديه من مخزون من سلاح الأتراك قبل قطع العلاقات معهم ووقف المعونات من جانبهم بناء على طلبه بعد أن رفض قبولها (٤).

وعندما وصلت إلى الإمام أحمد المعلومات من فرق الاستطلاع الخاصة به عن الأسلحة الحديثة والاستعدادات الجديدة والجنود البرتغاليين والذين يعملون مع الأحباش ، وأخذ الإمام أحمد يعيد خططه ويعيد حساباته مرة أخرى نظرا لهذا التطور الجديد فى الأوضاع ، وآثر بناء على ذلك عدم الاشتباك الفورى إنتظارا لكسب الوقت لمزيد من الاستعداد(٥).

وفى ذلك الوقت جمع قواده واستقر رأيهم على طلب المساعدات مرة أخرى من الأتراك لمواجهة تزايد الوجود البرتغالى وظهور الأسلحة الحديثة فى أيدى الأحباش، وهو ما لم يكن يتوقعه بهذه الصورة الضخمة والتى ستؤثر بلا شك على المعارك بينهما لصالحهم(٦).

1- Ency . Brit: Abyssinia . vol . 1 ., p. 70 .

أنظر أيضا : زاهر رياض: كنيسة الاسكندرية فى أفريقيا، ص١١٩ .

2- Mergery Perham : op. cit., p. 43 .

3- Trimingham : op. cit., p. 87 .

٤- حمدى السيد سالم : مرجع سابق، ص٣٩٧ .

5- Ludelphus : op. cit., p. 224 .

وتلى كل تلك الاستعدادات من الجانبين نشوب معركة كبيرة بينهما كان فى جانب منها الإمام أحمد وقواته والجانب الآخر الأحباش والجنود البرتغاليين بقيادة قائدهم(١).

واستطاع الجنود المسلمون مهاجمة مواقع الأحباش وحلفائهم بقوة لم يكن الأحباش يعملون لها حسابا فى ذلك الوقت وهزم الجيش الحبشى مع قتل قائده وفرار معظم الجند فى الجبال والأحراش (٢).

لكن الأحباش والبرتغاليين كانوا يستعدون فى نفس الوقت لمعارك أخرى مع قوات الإمام أحمد بعد أن وصلت إليهم إمدادات أخرى بكميات كبيرة، فقد واصل البرتغاليون عن طريق أساطيلهم فى الهند إرسال مزيد من المعدات الحربية التى كان لها الأثر فى إنهاء هذه الحرب بصورة مغايرة لما كان يحدث طوال هذه السنوات من القتال والهزيمة للأحباش(٣).

ولأول مرة فى تاريخ هذه الحرب استطاع الجيش الحبشى أن يحرز انتصارا صغيرا ومؤقتا على قوات الإمام أحمد. ولكنه كان ذا دلالة خطيرة على بدء هذا التحول الذى سيكون له أثره فيما بعد، إذ أن قوات الإمام أحمد اشتبكت فى معركة صغيرة مع الأحباش على مقربة من بحيرة تانا. ولكنها هزمت نتيجة لقوة النيران التى قابلها الأحباش والتى كانت ذات تأثير فعال مما أدى إلى قتل عدد كبير من رجالها فى وقت قصير.

لكن هذه الهزيمة لم تكن بالهزيمة التى تؤثر تأثيرا كبيرا على جيوش الإمام أحمد (٤).

غير أن هذا الانتصار شجع بعد بضعة أشهر البرتغاليين والأحباش وذلك فى فبراير سنة ١٥٣٤ على مهاجمة القوة الرئيسية فى جيوش الإمام أحمد . وكانت تلك القوة مكونة من عشرة آلاف جندى. وقد استعد لها الأحباش بالأسلحة الحديثة والدروع المصنوعة من الصلب التى تقى من الرصاص وزيادة على ذلك كانت روحهم المعنوية عالية بسبب انتصارهم السابق(٥).

1- Ibid. p. 225 .

2-Jones and Monroa : op. cit.p. 85 .

3- Boxtan : op. cit., p. 31 ; Beckingham : op. cit., p. 96 .

٤- زاهر رياض : الإسلام فى أثيوبيا ، ص٢٢٦ .

٥- حمدى السيد سالم: مرجع سابق، ص٤٠٠ .

وكان أن نشبت بينهم المعركة واستطاعت القوة البرتغالية ومعها مجموعة جيدة التدريب من القناصة البرتغاليين والتى كانت تجيد التصويب على الأفراد واختراق خطوط الجيوش الإسلامية من الوسط والتغلب عليها .

كما زاد الطين بلة أن فصيلة من الجنود البرتغاليين بقيادة قائد يسمى (بدرو ليونى) استطاعت الوصول إلى موقع الإمام أحمد نفسه وأطلقوا عليه النار من بنادقهم دفعة واحدة فجرح جرحا مميتا، ولما أيقن الإمام أحمد حرج موقفه وخطورة إصابته تراجع إلى الخلف حتى يستجمع قواه التى بدأت تخور، ولكن القائد البرتغالى تنبه إلى ذلك ولاحقه من ورائه وظل يطلق عليه النار حتى تأكد من موته (١).

ويجدر بنا هنا أن نشير إلى أن هذه المجموعة من الجنود البرتغاليين دربت تدريبا جيدا لمثل هذا العمل على اعتبار أنهم فدائيون مخصصون لإصطياد الإمام أحمد من وسط المعركة خاصة وأنه دائما يكون فى المقدمة من جيوشه خلال المعركة، وفعلا تم لهم ما أرادوا واستطاعوا قتله(٢).

وهكذا كان لمقتل الإمام أحمد على هذا النحو أثره الكبير فى هزيمة قواته وفرارها لأول مرة فى تاريخها وفى سجلها الحربى عندما عرفت أن قائدها قد انتقل إلى رحمة الله ، أخذت هذه القوات بذهول المفاجأة وولت الأدبار دون ما رابط أو تنظيم يعيد لها قوتها وحسن استعدادها .

وهكذا أخذت نشوة الانتصار الملك الحبشى وأخذ فى مطاردة فلول جيوش المسلمين الهاربين أمامه وذلك بعد طول عذاب بعد أن تمزق جيشه ومات أبوه مهزوما مقهورا، وبعد أن كادت بلاده تضيع إلى الأبد وينتهى أمر مملكته، وأصبحت بالتالى الجيوش الحبشية على استعداد لاستعادة معنوياتها وقوتها وعدتها وبلادها التى فقدتها(٣).

كما ترتب على تلك الهزيمة الساحقة أن بدأت فلول الجيوش الصومالية الهاربة فى التقهقر والأحباش والبرتغاليون من ورائهم يتبعونهم فى قوة المنتصر المنتقم بعد طول عذاب(٤).

1- Cornwallis Harris : op. cit., p. 237 .

٢- أمين شاكر : مرجع سابق، ص٨٢ .

3- Boxtan : op. cit., p. 31 ; Nyrdock : Africa its Peoples . p. 184 .

4- Junad: op. cit., p. 88 ; Jones and Monroa : op. cit., p. 85 .

أما الجنود الأتراك الذين كانوا يحاربون فى صفوف قوات الإمام فلم يستطيعوا الصمود فى ميدان القتال أمام جحافل الأحباش وإزاء التفوق الساحق الذى أبدوه بعد مقتل الإمام ، ويجب أن نشير إلى أن هؤلاء الأتراك قد وصلوا متأخرين ومتعبين فى بداية المعركة فلم يستطيعوا القيام بدورهم فى المعركة كاملا[1].

وبفضل هذا النصر الإيجابى الكبير الذى حققه البرتغاليون للأحباش والذى مكنهم من النصر بعد الهزيمة وتمكينهم من استعادة بلادهم ، بل مكنهم من الإبقاء على المسيحية فى بلادهم، إزدادت العلاقات الحبشية البرتغالية توثقا وقوة[2].

كما فقد الثائرون بموت الإمام أحمد قلبهم النابض فدارت عليهم الهزيمة وقتل منهم عدد كبير أثناء فرارهم إلى بلادهم التى جاءوا منها . وفر عدد كبير منهم إلى الساحل الشرقى يحملون معهم زوجة الإمام أحمد الثانية وأولاده الصغار إذ أن الكبار كانوا قد قتلوا أثناء الجهاد[3].

كما حملوا معهم زوجات وأولاد القواد السابقين مثل زوجة القائد سعيد ابن محمد والذى سقط شهيدا بجانب الإمام أحمد في المعركة واختفوا بهم حيث لم تعد بلاد الحبشة كلها تسمع عنهم خبرا واحدا بعد ذلك[4].

وهكذا ظهر كثير من النتائج التى برزت من هذا الانتصار ومنها توثيق العلاقات بين الأحباش والبرتغاليين ، وبالتالى ازداد نشاط البعثات التبشيرية للجزويت فأصبحت لهم المكانة الأولى فى الكنيسة الحبشية ، كما تمكن الأحباش بدورهم من إحكام سيطرتهم على البلاد التى كانت قد خضعت للمسلمين. كما نجحوا أيضا فى السيطرة مرة أخرى على الإمارات الإسلامية الصغيرة فى الشمال [5].

أما البرتغاليون فقد تحققت لهم السيطرة البحرية الكاملة على ساحل شرق أفريقيا كله ومدخل البحر الأحمر[6].

1- Trimingham : op. cit., p. 89 ; Cammerer: op. cit., p. 36 .

2- Ludelphus : op. cit., p. 225 .

أنظر أيضا : حسن محمد جوهر : مرجع سابق، ص٦٤ .

٣- زاهر رياض : الإسلام فى أثيوبيا ، ص٢٢٧ . انظر أيضا : عبد المجيد عابدين : مرجع سابق، ص١٩٤ .

٤- محمد صبرى: مصر فى أفريقيا الشرقية، ص٢٤ .

5- Beckingham : Some recorde of Ethiopia 1593-1640, p. 2 .

٦- بولس سعد : الحبشة، ص٨٦ .

ب- عودة الإمارات الإسلامية تحت نفوذ الحبشة

وهكذا تأتى النهاية الخالدة لكفاح الإمام أحمد وبطولته الرائعة ، كما كان لانتصار الأحباش بمساعدة البرتغاليين أثر كبير فى ضياع هذه الانتصارات كلها وقصص البطولة التى حدثت لأول مرة من شعب الصومال ضد الأحباش سواء فى الزمن القديم أو الحديث [1].

كما كان نتيجة لهذه الهزيمة الساحقة على يد الأحباش أن انكسرت شوكة المسلمين فى الصومال وأصبحت البلاد الحبشية فى مأمن من التهديد بالغزو مرة أخرى[2].

وهكذا فإنه بوفاة الإمام أحمد بن ابراهيم وهزيمة جيوش المسلمين بدأ نفوذ المسلمين الواسع يتقلص من الحبشة . وكان لتعاون الملك كلاوديوس (١٥٤٠-١٥٥٩) مع البرتغاليين الأثر الكبير- كما رأينا فى الجزء السابق فى هزيمة المسلمين- لكن فى نفس الوقت لم يكن ضياع سلطة المسلمين السياسية من البلاد التى فتحوها معناه بالتالى ضياع النفوذ الروحى للعقيدة الإسلامية إذ أنها كانت هى الأبقى أثرا بعد ذلك[3].

ومن الملفت للنظر فى هذه النتائج أن نجم القوات الحبشية بدأ فى التألق فورا، وأخذت قوات الإمام أحمد بن ابراهيم فى الانهيار . وكان هذا الانهيار أسرع بكثير من انهيار القوات الحبشية التى ظلت صامدة لمدة طويلة رغم هزائمها المتكررة وفقد ملكها وقوادها[4].

والمؤكد فى ذلك أنه بعد الهزيمة مباشرة انقض الملك الحبشى وقواته على الفلول الباقية من هذه القوات الهاربة وقتل منهم أعدادا كبيرة كما قتل قائدهم سعيد بن محمد والذى بقى حيا من قواد الإمام أحمد الذين استشهدوا معه فى المعركة . كما تبع ذلك الانقضاض على القوى والمدن الإسلامية وحرقها وترك الدمار والخراب يعبران عن شهوة الانتقام[5].

والسؤال الملح الذى يثار الآن هو : هل الجيوش الإسلامية قد تجمعت بعد ذلك فى وجه الجيوش الحبشية بعد هزيمتها لأول مرة ومقتل قائدها الإمام أحمد وعاودت الحرب مثلما كان يفعل الجنود الأحباش طوال هذه الحرب؟[6].

1- Trimingham : op. cit., p. 89 .

2- Murduck; Africa , its peoples and their culture story p. 184 .

٣- محمد المعتصم سيد: دول اسلامية فى شرق أفريقيا ، ص٣٨ .

٤- زاهر رياض: الاسلام فى أثيوبيا، ص٢٢٥ .

5- Colin Leguim : Africa , a hand book to the contental p. 80 .

٦- زاهر رياض : الاسلام فى أثيوبيا، ص٢٦٠ .

فى الحقيقة أن الجيوش الصومالية بموت الإمام أحمد فقدت أعصابها كما أن القواد الذين بقوا على قيد الحياة فقدوا السيطرة على أنفسهم وقواتهم وتفرقوا مع مجموعات من جيشهم إلى المناطق التى جاءوا منها.

وبما أن البرتغاليين كانوا السبب فى هزيمة الإمام أحمد وجيوشه ، وبعد أن كانت جيوشه منتصرة طوال فترة المعارك كلها على الأحباش وعلى البرتغاليين عند وصولهم أول مرة إلى أراضى الحبشة واشتراكهم فى القتال، ولذلك اعترف الإمبراطور والجيش الحبشى بعد ذلك بهذا الجميل الذى أنقذ بلادهم من الضياع ، فكانت الصورة بعد ذلك معبرة عن زيادة النفوذ البرتغالى فى الحبشة وما استتبع ذلك من علاقات قوية فى مختلف نواحى التعاون نتيجة لذلك(١).

كما كانت إحدى النتائج التى ترتبت على ذلك مباشرة ، وبعد استقرار الأوضاع ، ما كان من أمر الجنود البرتغاليين الذين فضلوا البقاء فى الحبشة بعد إكرام الشعب الحبشى لهم. وطلب ملك الحبشة منهم البقاء لحمايته وبناء ما دمرته الحرب، إذ كان كثير منهم أصحاب حرف تفتقر إليها الحبشة كالصناعة وفروعها ، وسرعان ما تزوج هؤلاء الجنود من السيدات الحبشيات وكونوا أسر وذابوا وسط الشعب الحبشى وأصبحوا منهم بمرور الوقت(٢).

هكذا كانت تطورات الموقف بالنسبة للأحباش وحلفائهم البرتغاليين.

ولكن ماذا بالنسبة للأتراك حلفاء الإمام أحمد وذلك بعد مقتله وانهيار جيوشه وفرارها عائدة إلى بلادها بعد فقد قائدها ؟

وفى هذه الحالة عند استعراضنا للظروف التى جدت بعد ذلك اجتمعت لنا الصورة تماما، وأصبحت الأمور تجرى فى مجرى واحد هو سيطرة الأحباش على بلادهم مع ازديادهم قوة مع سيطرة البرتغاليين على المحيط الهندى وسواحل أفريقيا الشرقية كلها حتى الهند.

فى الحقيقة أن الأتراك بهزيمة الإمام أحمد الحليف القوى لهم لم يكن نفوذهم السابق فى الصومال والحبشة وساحل البحر الأحمر كله قد انتهى ومع أن المحيط الهندى كان تحت سيطرة البرتغاليين بعد هزيمة الأسطول العثمانى؛ فإن النفوذ العثمانى بقى على السواحل الشرقية للبحر الأحمر وسواحله المصرية.

١- نفس المرجع ، ص٢٦٥ .

2- Jones and Monroa : op. cit., p. 85 .

كذلك هناك حقيقة أخرى ظهرت واضحة وهى أن البرتغاليين لم يكن النصر قد خلص لهم نهائيا ، أو خلصت لهم أثيوبيا كلها، بل إن الحوادث التى جاءت بعد ذلك قد أرغمت هؤلاء على إعادة حساباتهم ومواقفهم وأرغمتهم على الخروج من الحبشة مثل الأتراك[1].

كما خلصت الحبشة بعد ذلك لأهلها من جديد بعد حدوث صراع بينهم وبين البرتغاليين الذين تحولوا من جيش إنقاذ إلى جيش احتلال ، كما يحدث غالبًا ، وقد احتج الأحباش على ازدياد نفوذهم هناك ورفضوا تلك الصورة المتزايدة من السيطرة والنفوذ[2].

هكذا انجلى الموقف أن الأتراك والبرتغاليين أخذ كل منهم يبحث عن ميدان جديد خارج الحبشة للصراع بينهما.

الأمير نور بن مجاهد ومحاولة استمرار الجهاد:

ذكرنا سابقا أن قوات الإمام أحمد بهزيمتها وقتل قائدها تفرقت كل منها إلى المنطقة التى جاءت منها لا كجيوش مقاتلة ولكن كأفراد هاربين عائدين إلى أسرهم وذويهم بعد أن انتهى ما جمعهم على القتال بموت قائدهم.

ولكن هناك سؤال آخر يثار مثل الأسئلة التى سبق لنا أن أثيرت وأجيب عليها، وهذا السؤال هو : هل ماتت روح النضال وروح الثورة التى زرعها الإمام أحمد فى الشعب الصومالى خلال المدة الأخيرة التى أحيا فيها كفاحه ونضاله من أجل بلاده... ومن أجل نشر الإسلام ؟[3].

الحوادث التالية تثبت أن روح هذا الكفاح كانت مستمرة بعد موت الإمام أحمد فيما خلفه من ذريته ، كما كانت مستمرة فى أجداده وثوراتهم المتعاقبة المعروفة فى تاريخ الصومال حتى العصر الحديث حينما نال الصومال استقلاله وأصبح دولة مستقلة ذات سيادة[4].

والإجابة على هذا السؤال لأول وهلة هى كلمة لا، لأن هذا الكفاح أصيب بنكسة ولو أنها قاتلة، إلا أنها لم تقض على هذا الكفاح فى صدور المسلمين فقد أثبتت الحوادث التالية ذلك

١- زاهر رياض : الإسلام فى أثيوبيا ، ص٢٤٥ .

٢- زاهر رياض : كنيسة الاسكندرية فى أفريقيا، ص١١٣ .

٣- زاهر رياض : الإسلام فى أثيوبيا، ص٢٦٧ .

4- Colin leguim : op. cit., p. 81 .

عندما أعاد الملك الحبشى كلاوديوس سيطرته على الإمارات الإسلامية كاملة وبقبضة حديدية وأصبحت بالتالى كلمته هى العليا (١).

ولكن يقابل هذا على الجانب الآخر روح الثورة التى استمرت بعد الإمام أحمد متمثلة فى كفاح أرملته وكفاح ابن أخته الأمير نور الدين بن مجاهد والذى استطاع قيادة الثورة وقتل الملك الحبشى كلاوديوس فى المعارك التى اشتبك فيها معه وانتصر عليه، وأعاد إلى أذهان الصوماليين أمجاد خاله الإمام أحمد (٢).

وتفاصيل ذلك الكفاح أنه بعد وفاة الإمام أحمد وتفرق قواته، انتفضت هرر مرة أخرى والتف الناس حول أرملته للأخذ بالثأر واجتمعت القوات بقيادة كل من القواد عمرو دين- على الجراد ابن الإمام أحمد، وغزت أمارة دوارو مرة أخرى (٣)، وذلك أملاً فى مواصلة الكفاح وهزيمة الأحباش لكونهم هزموا وأسر زعماء الثورة وقوادها وانتهت بطولتهم(٤).

ورغم هذا لم يهدأ المسلمون، فقد بدأت محاولة بقيادة الأمير نور الدين ابن مجاهد ابن أخت الإمام أحمد والذى انتخب إماما فى سنة ٩٥٩هـ / ١٥٥١-١٥٥٣م) ولحبه فى الجهاد وتيمنا بشجاعته وتدينه أسموه صاحب الفتح الثانى نسبة إلى خاله الإمام صاحب الفتح الأول لبلاد الحبشة .

وكذلك كان يقابل ذلك الإيمان والحماس للجهاد أن أوان الجهاد الأعظم الذى صاحب الإمام أحمد قد انتهى ولم يعد الأحباش يخشون أحداً ، فغزوا هرر وضربوا مدنها وقراها(٥).

وكان الأمير نور الدين هذا من أمهر القواد وأكثرهم شجاعة بعد خاله الإمام أحمد ، واستجمع قواه مرة أخرى وشن هجوما خطط له بمهارة لأنها فرصته الوحيدة واستطاع هزيمة الجيش الحبشى وقتل الملك كلاوديوس سنة ١٥٥٩م(٦).

1- Trimingham : op. cit., p. 90 .

2- Murdock: op. cit., p. 185 .

٣- محمد المعتصم سيد : دول إسلامية فى شرق أفريقيا، ص٣٩ .

٤- حسن أحمد محمود: انتشار الاسلام والثقافة العربية فى أفريقيا، ص٤٦٨ .

٥- نفس المرجع، ص٤٦٩ .

6- Trimingham : op. cit., p. 91 .

وبالرغم من هذا الانتصار الضخم ، فالنتيجة المؤكدة أنه كان انتصاراً مؤقتًا لأن الحبشة بجيوشها وإمكانياتها كانت أعظم من أن تتأثر بصحوة الموت التى لازمت هرر على يد الأمير نور الدين وانتصاره [١].

وفى نفس الوقت كان يقابل إمكانيات الأحباش الضخمة على جانب الصراع الآخر، أن الأحوال الداخلية فى أمارة هرر كانت من الضعف والوهن لدرجة كبيرة بعد أن أخذا يدبان فى هيكلها بعد ذلك الصراع المرير وما يستلزمه من أموال ورجال قتلوا فى تلك الحرب القاسية[٢].

ومما زاد الطين بله أنه فى نفس الوقت شرعت قبائل الجالا التى تعيش فى الجنوب فى غزو الأراضى وتدمير ما عليها، واستمرت حالة الإضطراب هذه حتى تولية الأمير نور الدين الذى عمل جاهدا على تحسين أحوال الشعب بقدر المستطاع وأخذ سيرة الإمام أحمد مثالا يحتذى به فى الحكم[٣].

وهكذا ، حاول الأمير نور الدين بكل ما وسعه الجهد أن يرث الإمام أحمد وأن يخلفه فى جهاده العظيم، ولكن ذهاب القائد الروحى أودى بالحماس الذى كان يدفع المسلمين إلى القتال فهزم الأمير نور الدين وفر لاجئا إلى حاكم مصوع الباشا التركى. وإذا كان الأحباش قد انتصروا ونجحوا فى المحافظة على استقلالهم، إلا أنهم فقدوا ملكهم الشجاع الذى سقط فى المعركة قتيلا [٤].

وزيادة على ذلك فإن الحبشة زيادة على موت ملكها خرجت هى الأخرى منهوكة القوى إلى حد بعيد وسرعان ما وقعت فريسة للاضطراب الداخلى[٥] وكذلك لايجب أن ننسى أن هذه الحروب كلها التى أشرت إليها سابقا كان من أثرها زيادة على التدمير والاضطرابات الداخلية

١- راشد البراوى: الصومال الكبير حقيقة وهدف، ص٢٢ .

٢- محمد المعتصم سيد: دول إسلامية فى شرق أفريقيا ، ص٣٨ .

٣- حمدى السيد سالم : مرجع سابق، ص٤٠٠ .

٤- زاهر رياض : تاريخ أثيوبيا ، ص٩٧ .

٥- راشد البراوى: الحبشة بين الإقطاع والعصر الحديث، ص٥٥ .

أن أدت بصورة كبيرة إلى انتشار الدين الإسلامى بين صفوف كثيرة من الأحباش المسيحيين والقبائل الوثنية(١).

النتائج التى ترتبت على جهاد الإمام أحمد :

وهكذا فإن هذه الحرب كانت الأولى من نوعها وكذلك النتائج التى ترتبت عليها سواء كانت دينية أو اقتصادية أو سياسية أو اجتماعية ، إذ أنها تختلف اختلاف كليا عن تلك الحروب التى نشبت بينهما قبل ذلك ، ولو أن الحرب السابقة كانت أطول منها فى فترة الزمن التى استمرت فيها، ولكن نتائجها كانت محدودة المدى.

والحقيقة فى قصر مدة الحروب هذه إلى أن حق الدين ، وهو جد الإمام أحمد ، قد حارب الأحباش قبل ذلك لمدة خمسين سنة ولكنه لم يستطيع خلال هذه المدة الطويلة أن يبسط سيادته على أكثر من مقاطعة شوا الشرقية بعيدا عن سلطة أمراء أوفات وسلطة الملك كما أن الحرب بينه وبين جيوش الإمبراطور كانت سجالا لقى فيها الفريقان النصر والهزائم مرات عديدة(٢).

وهكذا انتهى هذا الكفاح المجيد بالهزيمة للمجاهد الإمام والقضاء على ابن أخته الأمير نور الدين والذى حاول مواصلة هذا الكفاح واتخذ سيرة الإمام له هاديا .

ولكنه بعد أن استطاع الانتصار على الجيوش الحبشية وقتل ملكها كلاوديوس والانتقام لمقتل الإمام، لم يستطع متابعة الكفاح بسبب ازدياد قوة الأحباش فتغلبوا عليه بعد ذلك وقضوا عليه نهائيا .

ونتج عن القضاء على ثورة الأمير نور الدين أن أصبحت مهمة خلفاء الإمام أحمد بعد ذلك هى المحافظة فقط على حدود الإمارات الإسلامية من الأحباش المتربصين بها العداء وحمايتها والعمل على الإبقاء على نفوذهم فيها مع الخضوع لملك الحبشة وتركز كفاحهم فى المناطق الداخلية وذلك لتحسين الأحوال الاجتماعية والاقتصادية لشعوبهم .

كما أن هؤلاء الأمراء حاولوا بكل طاقاتهم حماية الساحل الشرقى من الأتراك الذين أرادوا إنتهاز الضعف هذه وبسط سيطرتهم عليه خاصة وأنه مقابل لساحل اليمن الغربى وبه مراكز استراتيجية هامة تتحكم فى مدخل المحيط الهندى والبحر الأحمر.

١- حسن أحمد محمود : مرجع سابق، ص٤٦٧ .

٢- زاهر رياض : الاسلام فى أثيوبيا، ص٢٠٩ .

كما أن الذى زاد من أطماعهم أنهم على أيام الإمام أحمد كانوا قد وضعوا أيديهم على موانئ مصوع ، سواكن ، بربره، وما وراءها من أراض [1].

وقد نجح الأمراء العرب فعلا فى تنفيذ سياستهم التى رسموها وهى الاحتفاظ بسلطة العرب على الإمارات الإسلامية طوال القرون الثلاثة التالية أى حتى القرن التاسع عشر ، وكانت هذه القرون الثلاثة تمثل كفاحا ما بين قوى منهارة تتمثل فى الإمارات الإسلامية ومنافسين أقوياء يتمثلون فى الأحباش وحلفائهم من الأوربيين ومع ذلك استطاع العرب الاحتفاظ بسلطانهم حتى هذا التاريخ[2].

ولكن الجدير بالاهتمام والملاحظة أن هذا الخضوع للإمارات الإسلامية فى الحبشة لم يكن ليقضى على الإسلام هناك بل ظل على انتصاره فى أكثر من ناحية وخاصة بالنسبة لأقاليم الحبشة الداخلية ولم يقتصر انتشاره على العرب بل اعتنقه كثيرون من قبائل الجالا والوثنيين[3].

والأهم من هذا أن الصوماليين باحتفاظهم بسلطانهم رغم الخضوع للملك الحبشى دعموا قوتهم وإمكانياتهم العسكرية، مما جعل الحبشة وملوكها يعمدون إلى السلم خوفا من الثورا والحروب وبالتالى لم يفكر الأحباش فى الاعتداء على هذه الامارات[4].

كما يجب أن نضيف أن الأحباش لم يحاولوا إخضاع هذه الأمارات الخضوع المطلق، بل ظلت تحت حكمهم مع الاحتفاظ بالاستقلال الداخلى ، كما تركوا لهم المجال لمزيد من الانتشار لمزاولة التجارة ، وهو ما ساعدهم بالتالى على نقل حضارتهم وتحويل القبائل الوثنية إلى الإسلام[5].

هكذا فإنه إذا كانت حركة الإمام أحمد لم تحقق أهدافها بالقضاء على مملكة الحبشة نهائيا، فإنها أثبتت أن الدولة الحبشية كانت واهية الأساس بنظمها الإقطاعية القديمة ونظامها السياسى والإدارى المختل وتخلفها الشديد فى مختلف أوجه الحضارة[6].

١- محمد المعتصم سيد: مهدى الصومال بطل الثورة ضد الاستعمار، ص١٧ .

٢- راشد البراوى: الحبشة بين الاقطاع والعصر الحديث ، ص٧٥ .

٣- راشد البراوى: الصومال الكبير حقيقة وهدف ، ص٢٣ .

٤- زاهر رياض: الإسلام، ص٢٢٤ .

5- Junad : op. cit., p. 50 .

٦- توماس ارنولد : الدعوة إلى الإسلام، ص١٠٣ .

كما أثبتت تلك الحركة أنه من المستطاع أن يتمكن سكان السهول من فتح هذه الهضبة إذا اتحدت صفوفهم وألفت بين قلوبهم أهداف سابقة، كما أثبت هذا الجهاد ومدى ما يدل عليه من عمق الشعور الإسلامى فى نفوس المسلمين وتمسكهم بالإسلام إلى أبعد الحدود ، فقد دأبوا على الجهاد وأصروا عليه طيلة هذه الأعوام والقرون [١].

وهناك نتيجة عظيمة أخرى لهذه الحروب ألا وهى قيام ما يشبه الوحدة بين شعوب شرق أفريقيا من المسلمين[٢] وهى الوحدة التى استندت إلى تماثل الديانة والثقافة والمصالح والأهداف والكفاح ضد المستعمر الأوربى الواحد[٣].

ازدياد نفوذ البرتغاليين فى الحبشة وشرق أفريقيا :

بعد أن هزمت جيوش الإمام أحمد بفضل المساعدة المسلحة من البرتغاليين للأحباش – كما عرفنا فى السابق– كانت النتيجة الطبيعية كرد فعل محتم أن يحظى هؤلاء الحلفاء أصحاب الفضل فى الانتصار بمكانة كبيرة لدى الشعب والملك الحبشى إذ أنه بعد ذلك الانتصار ظهر هذا الأثر سريعا فى البلاد [٤].

ظهر هذا النفوذ فى صورة ازدياد الحظوة والمكانة التى لقيها الجنود البرتغاليون الذين استقروا بين الشعب الحبشى وتزوجوا منه وذابوا فيه بعد ذلك[٥].

كذلك كان من نتائج هذا التحالف أن أخذ الأحباش المسيحيون الذين أرغموا على الانضمام إلى صفوف المسلمين فى إظهار مسيحيتهم الأولى ، كما أخذ الرهبان ورجال الدين الذين كانوا قد ارغموا على الفرار أو الاختفاء فى الأديرة فى الظهور واستعادة نشاطهم وحياتهم العادية[٦].

١– حسن محمود : مرجع سابق، ص٤٦٨ .

2- Trimingham : Islam in East Africa . p. 65 .

٣– راشد البراوى: الصومال الكبير حقيقة وهدف، ص٢٢ .

4- Trimingham : op. cit., p. 66 .

٥– زاهر رياض : الإسلام فى أثيوبيا ، ص١٢٧ .

٦– محمود الشرقاوى: أثيوبيا ، ص٣٣ .

كما بدأت مظاهر أخرى لإزدياد هذا النفوذ وهى أن الملك الحبشى رأى أن يقابل حسن بلاء البرتغاليين معه ومع شعبه فى حروبه ضد المسلمين بالصورة التى يريدونها، وهى تحويل شعب الحبشة إلى المذهب الكاثوليكى.

لذلك أرسلت إليه البرتغال بعثة كاثوليكية وصلت سنة ١٥٥٥ أى بعد انتصاره بسنتين برئاسة رود ريجز البرتغالى ومعه مبشران من الآباء اليسوعيين يحملان رسالة من حاكم الهند وطلبا منه أن ينضم الإمبراطور وشعبه إلى الكنيسة الغربية[١].

وهكذا استقرت الأمور للبرتغاليين فى الحبشة، ولكن هذا الاستقرار لم يكن إلا إلى حين مؤقت ، إذ أن الامبراطور تنبه إلى ازدياد نفوذهم وبدأت خطورتهم على سلطته وعلى شعبه ، مثلما أدرك الإمام أحمد خطر سيطرة الأتراك عليه بمساعداتهم من قبل، كما أن البرتغاليين زادوا على ذلك فى محاولتهم إثارة الفتنة فى البلاد.

وكان البرتغاليون قد ساعدوا قبائل الشفتا والتى عادت إلى الظهور عابثة بالأهالى الذين أنهكتهم الحروب القاسية ولكل ثائر على الملك الحبشى[٢].

وهكذا وصلت الأمور إلى درجة كبيرة من سوء العلاقات بين الملك ورجال البعثات ، إذ أن مساعدة رجال هذه البعثات لعصابات الشفتا وصل إلى حد أن دعا الملك الحبشى المطران الكاثوليكى إلى مقره وأمره بلهجة قاسية أن يوقف نشاطه ويغادر البلاد بالرغم مما كان يسبغه عليه من قبل من حماية ورعاية ، الأمر الذى كان موضع انتقاد رجال الدين الأحباش[٣].

فضلا عن ذلك فإن المطران الكاثوليكى اعتقد أن الملك الحبشى لن يستطيع رفض طلباته مما أدى فى نفس الوقت إلى أن طلب منه بالتضامن مع القائد البرتغالى فى المحيط الهندى إقطاعات تبلغ مقدار ثلث أراضى الحبشة كلها مع طلب دخول جميع أهلها فى المذهب الكاثوليكى.

وكانت النتيجة الطبيعية لذلك أن الملك رفض التدخل فى أموره الخاصة، ورفض المطالب

١- زاهر رياض : أبحاث من أثيوبيا، ص٢٢٥ .

٢- محمود الشرقاوى: أثيوبيا ، ص٢٢٥ .

٣- زاهر رياض : أبحاث من أثيوبيا، ص٢٢٦ .

الدينية والخاصة بالأراضى، وأمره بمغادرة البلاد وأوقفت جميع الأنشطة التى قام بها البرتغاليون فى بلاد الحبشة[١].

وجاء قرار الطرد من الملك للبرتغاليين من الحبشة فى الوقت المناسب قبل انهيار بلاده على أيديهم إذ إنه فى ذلك الوقت نشأ صدام عنيف بين مسيحيى الحبشة حول الإنضمام للكنيسة الغربية، فأعلن بعض القادة صراحة أن من الخير لهم أن يخضعوا للحاكم المسلم، لا أن ينصاعوا للبرتغاليين للتخلص من معتقداتهم وكنيستهم[٢].

لهذا رأى أنه حسما لهذا النزاع وخوفا على الوحدة الوطنية رفض مطالب المطران البرتغالى وطرده[٣].

وهكذا تخلص الملك من التدخل البرتغالى ووضع حدا لنفوذهم وأخذ فى نفس الوقت يعمل على إصلاح ما دمرته الحرب ،فأعاد بناء الكنائس التى دمرت، وأمر بنسخ الكتب التى أحرقت من قبل [٤].

وفى أواخر عهد الملك كلاوديوس كانت معظم القرى والمدن التى دمرت قد أعيد بناؤها وتعميرها[٥].

وبعد أن تم للأحباش القضاء على النفوذ البرتغالى أعادوا تعمير مدنهم وكنائسهم التى دمرت وخربت، ثم أخذوا يوطدون سلطانهم على الإمارات الإسلامية أكثر فأكثر[٦].

وسرعان ما توطدت سلطاتهم على جميع البلاد، وبعد أن أصبحت جبهتهم الداخلية تدعو للإطمئنان ، أخذوا ينظرون بحذر إلى تصرفات الأتراك العثمانيين والبرتغاليين ومدى ما يضمرون للبلاد من مكائد وفتن وحروب.

١- أحمد الحفنى القنائى : الجواهر الحسان فى تاريخ الحبشان، ص١٧ .

٢- عبد الرحمن زكى: الاسلام والمسلمون فى شرق أفريقيا، ص٤٩ .

٣- محمود الشرقاوى : أثيوبيا، ص٣٣ .

٤- زاهر رياض : تاريخ أثيوبيا، ص٦٨ .

5- Mergery Perham : op. cit., p. 43 ; Jones and Monroa : op. cit., p. 85 .

٦- دنيس بولم : الحضارات الافريقية . ترجمة : على شاهين، ص٤٤ .

الخاتمـة

فى نهاية هذا البحث يجدر بنا أن نشير إلى عدة نتائج مهمة استطعت استخلاصها من هذا الجهد الذى بذل وهى:

١- توصلنا إلى كيفية وصول المسلمين إلى أراضى الحبشة، وكيف استقروا هناك واختلطوا بالشعب المسيحى. وكيف استطاعوا بعد جهد كبير أن يكونوا لأنفسهم مركزا ممتازا عن طريق التجارة والزراعة فى المناطق الساحلية .

كما توصلنا إلى حقيقة مهمة وهى صراعهم فى سبيل البقاء والإبقاء على إماراتهم الصغيرة والتى تمكنوا من إقامتها. كذلك أشهر المعارك فى الحروب التى دارت بينهم وبين ملوك الأحباش ونتائجها حتى أوائل القرن السادس عشر وظهور الإمام أحمد بن إبراهيم على مسرح الأحداث.

٢- كذلك توصلنا إلى نتيجة لها أهمية كبيرة وهى إلقاء الضوء على نشأة الإمام أحمد بن ابراهيم والظروف التى ظهر فيها والعوامل التى أثرت فيه. وعرفنا كيف أنه نشأ من أجل إخوانه فى الدين ورغبته فى نشر الإسلام.

كما رأينا كيف أن نشأته العسكرية بجانب تدينه خلقت منه شخصا متدينا وفارسا شجاعا محبا لدينه وإخوته فى الإسلام كارها للظلم بكل مظاهره محاربا له لآخر حياته .

٣- كما أن نتيجة أخرى تظهر لنا بوضوح ألا وهى أن الإمام أحمد بعد أن كان فارسا مغمورا استطاع بجهده وإخلاصه القضاء على سلطان هرر لفساده وتم له إصلاح أحوال البلاد والناس مما أدى إلى تعلقهم به وحبهم له . كما أنه استطاع بفضلها غزو الحبشة لمدة إثنى عشر عاما متواصلة وهذا لم يحدث قبل أو بعد ذلك التاريخ .

٤- بإلقاء الضوء على حروب الإمام تكشفت لنا عبقريته العسكرية الفذه ؛ إذ أنه حارب طوال إثنى عشر عاما جيش يفوقه فى العدد والعدة وانتصر عليه باستمرار دون هزيمة واحدة طوال تلك المدة وذلك بفضل استعداده العسكرى وقدرته الخارقة على مواجهة الصعاب ورسم الخطط للنصر فى المعارك مع بث الثقة فى نفوس قواده وجنوده.

٥- لأول مرة فى تاريخ الحبشة منذ القدم يستطيع مسلم من عامة الشعب ومن سكان

السهول الخاضعين لملوك الحبشة أن يسيطر سيطرة كاملة علي نحو ثلثي أراضى الحبشة ويطارد ملكها بعد هزيمة جيوشه الضخمة العدد والسلاح.

كما فر الملك هائما على وجهه ، وحيدا ذليلا، إلا من نفر قليل من أفراد أسرته الذين بقوا على قيد الحياة حتى موته فى سنة ١٥٤٠ ميلاديه متحسرا على فقده لبلاده وشعبه وملكه.

٦- كما أن إصلاحات الإمام أحمد الداخلية للشعب المسلم والمسيحى على السواء كانت من النتائج الواضحة لهذا البحث إذ أنه عمل على استتباب الأمن وتشجيع الزراعة والتجارة والصناعة على نشر الإسلام والتعليم، مع تقوية الجيش وتزويده بالسلاح والتدريب باستمرار حتى يحتفظ بلياقته العسكرية كاملة.

٧- هكذا يتضح لنا بما لايدع مجالا للشك أن الإمام أحمد لم يكن قائداً عسكرياً فحسب بل كان مصلحا اجتماعيا بمعنى الكلمة إذ أنه لم ينس فى غمار تلك المعارك المتواصلة أن يوحد المسلمين خلفه لكى يمدوه بما يحتاجه من الرجال والسلاح والمؤن والعتاد.

٨- كما كان لإصلاحت الإمام أحمد هذه ، والتى قام بها فى جميع النواحى ، أثر كبير فى صلابة هذه الجبهة خلفه لمدة إثنى عشر عاما وهى المدة التى استغرقتها تلك الحرب، ثم استمرت نتائجها بعد ذلك تغمر الصومال وبلاد الحبشة كلها.

كما تعدت آثارها تلك البلاد إلى شرق أفريقيا وخاصة فى نشر الإسلام والتعليم حتى أصبحت هرر مركزا ممتازا للتعليم الدينى لشرق أفريقيا كله .

٩- انتصارات الإمام أحمد هذه لم تأخذ فى الزوال إلا بسبب ظروف معينة خارجة عن إرادته حولت نصره إلى هزيمة مدمرة لكل ما بناه طوال تلك الفترة من الكفاح وتلك العوامل هى : مرض الإمام أحمد الشديد، موت قواده واحدا وراء الآخر، موت زوجته وأولاده، إنهاك الجيوش الإسلامية من كثرة المعارك التى خاضتها.

١٠- كما أنه كان لسوء العلاقات فى الفترة الأخيرة بين الإمام أحمد والأتراك أثر كبير على توقف إمداده بالأسلحة والتى كانت فى نفس الوقت تصل إلى الأحباش من البرتغاليين، وبذلك ضاع تفوقه عليهم.

١١- كذلك فإن اشتراك البرتغاليين فى القتال إلى جانب الأحباش وهزيمتهم فى أول حملة لهم جعلهم يستعدون أكثر فى المرة الثانية بعد أن شعروا بالخطر من الإمام أحمد وحلفائه الأتراك واستطاعوا بعد ذلك الدخول فى المعارك بعدد أكبر من الجنود والسلاح.

كما أنهم خصصوا فرقة خاصة من الفدائيين لاصطياد الإمام أحمد من بين جنوده وتكالبهم عليه لقتله عندما عرفوا أنه أصيب فى مقتل وإجهازهم عليه وفرار الجيش الإسلامى عائدا إلى بلاده بعد مقتل القائد والزعيم الروحى.

١٢- كما كانت لهذه الهزيمة المدمرة نتائج كبيرة ألا وهى أنه بعد موت الإمام أحمد ابن ابراهيم عادت الإمارات الإسلامية إلى سابق عهدها من سيطرة الأحباش عليها، كما أنه لم يفت الأحباش الانتقام من المسلمين بتشديد قبتضهم عليهم إنتقاما لهزائمهم السابقة.

١٣- ازدياد نفوذ البرتغاليين فى الحبشة بعد قتل الإمام أحمد لأنهم أصحاب الفضل فى ذلك وتخوف الملك الحبشى كلاوديوس منهم والصراع بينهم حول تحويل الحبشة إلى الكنيسة الغربية وتغلب كلاوديوس عليهم وطردهم نهائيا .

١٤- الصراع بين المسلمين والأحباش لم ينته بموت الإمام أحمد إذ استمر الجهاد بقيادة الأمير نور الدين بن مجاهد ابن أخت الإمام أحمد والذى استطاع هزيمة كلاوديوس وقتله وبذلك ثأر لمقتل الإمام على يديه، لكنه هزم فى النهاية لأن الظروف كلها كانت ضده.

وهكذا أرجو بعد كل تلك النتائج أن أكون قد استطعت إلقاء الضوء على تلك الفترة من التاريخ الصومالى والحبشى والتى كانت من أشهر أدوار التاريخ فى كلا البلدين كما ذكر كثير من المؤرخين.

وفى الحقيقة فإنه لم يحدث قبل ذلك التاريخ أو بعده هذا الغزو الشامل لبلاد الحبشة كلها إلا عندما جاء الايطاليون فى القرن العشرين واستطاعوا دخول الحبشة بأسلحتهم الحديثة رغم مقاومة الأحباش لهم بأسلحتهم البدائية.

واستطرادا لما سبق فإن هذا الصراع الذى نشأ منذ مئات السنين لازال مستمرا حتى الآن وإن اختلفت صوره باختلاف الظروف والتطورات التاريخية التى يمر بها كل من الشعب الصومالى والحبشى حتى وقتنا الحاضر.

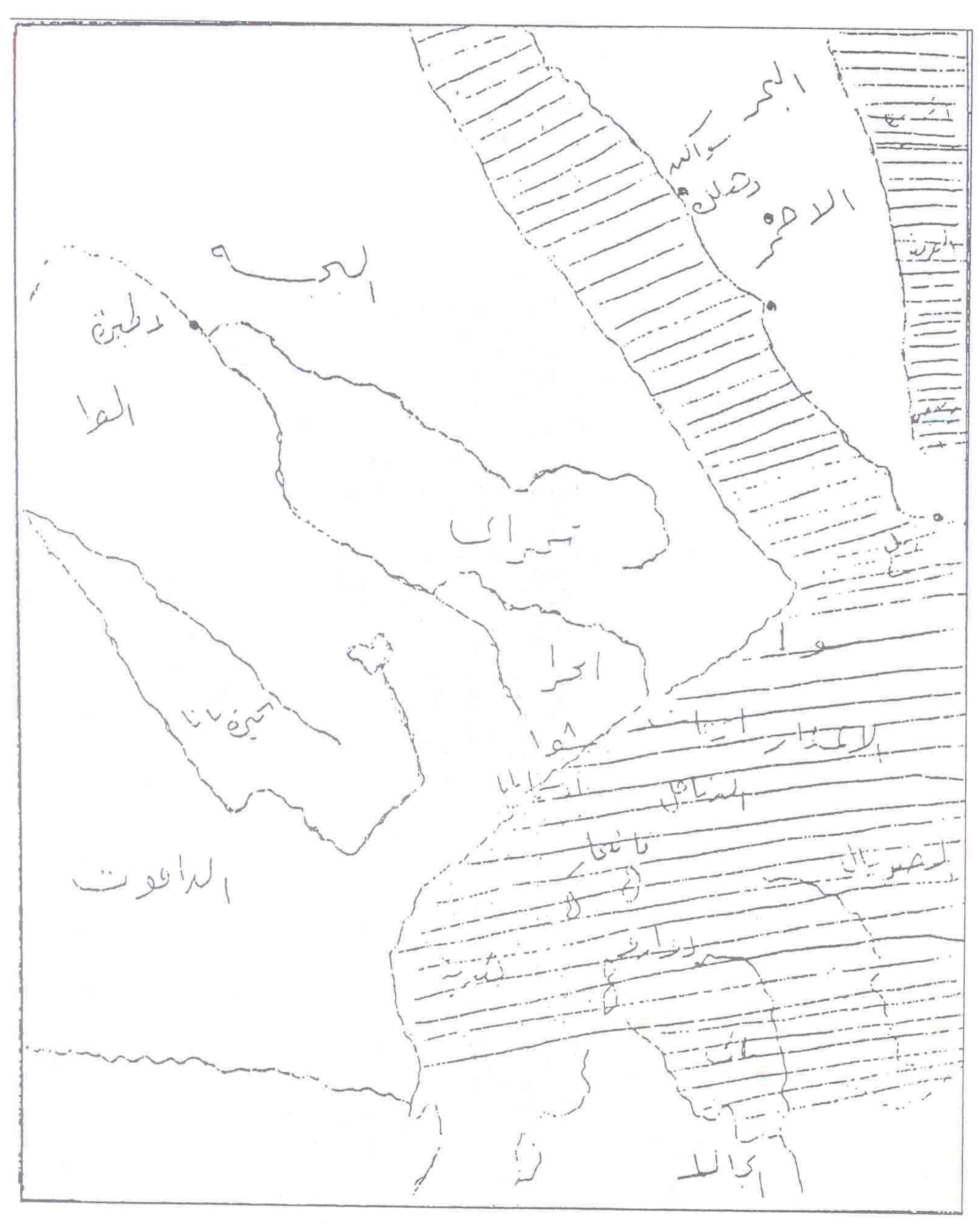
لقد اتخذ هذا الصراع بين الصومال والحبشة شكلاً جديداً فى سبعينيات القرن العشرين حول إقليم ارتيريا الذى تسكنه غالبية من المسلمين. ثم صارت ارتيريا دولة مستقلة، ودخل الصومال دوامة الصراع الداخلى الجهنمية ، وانتهزت الحبشة الفرصة لتدفع بقواتها إلى أراضى الصومال التى صارت مرتعاً للفتن الداخلية، والتدخل الحبشى والتلاعب الدولى الذى تقوده الولايات المتحدة الأمريكية.

وهكذا فإن التاريخ لاتنقطع حوادثه وإنما هو امتداد لأزمنة سابقة تصل بنا إلى العصر الحديث حيث نجد المشاكل القديمة بين الشعوب ما زالت قائمة بينها تسيطر على مقدراتها وظروفها تحاول كل منها الظفر على الأخرى.

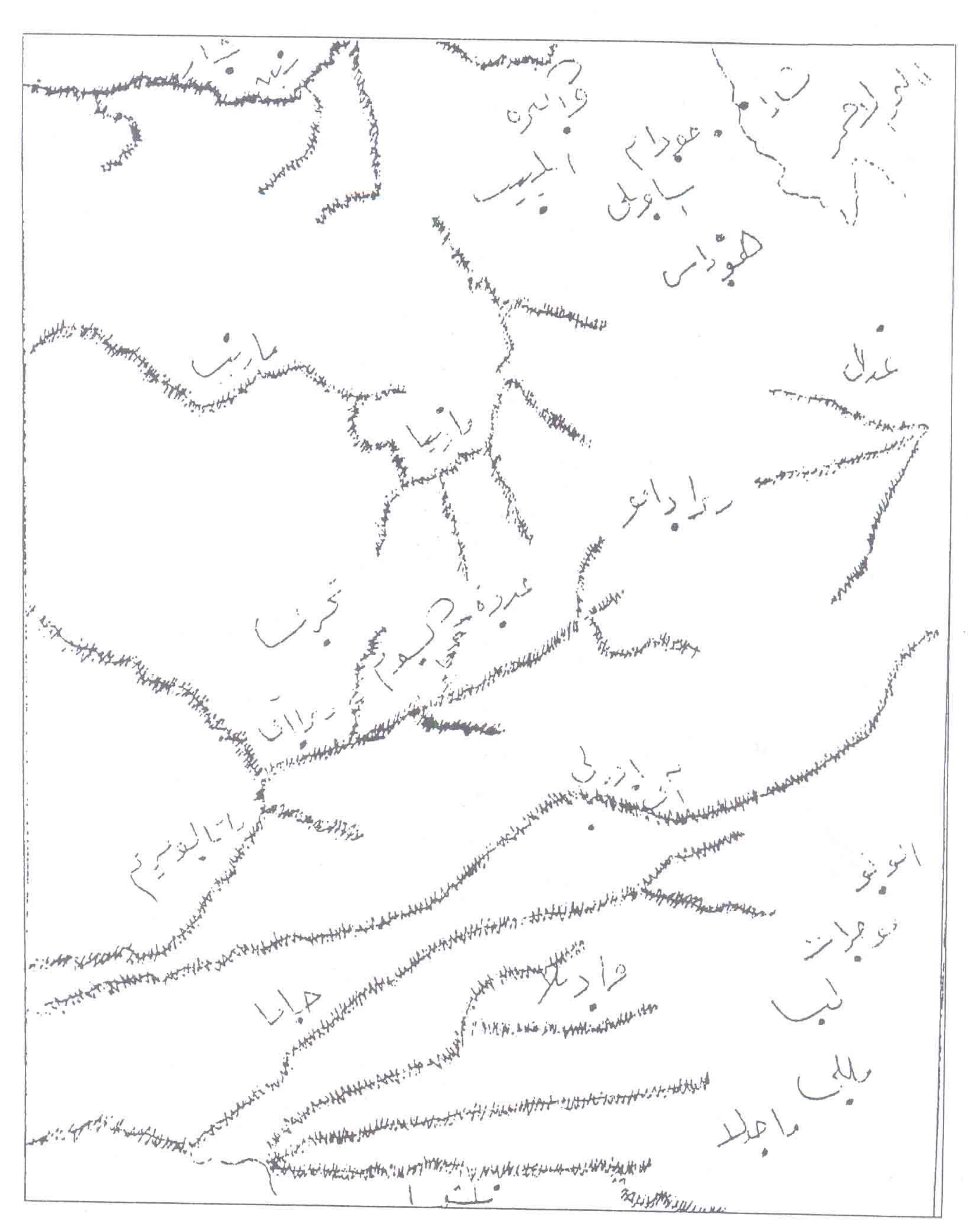
وفى ختام كلماتى هذه أرجو أن يكون الله قد وفقنى بقدر ما وسعنى الجهد فى ذلك البحث ولايسعنى إلا أن أقدم إلى أستاذى الفاضل الدكتور أحمد دراج الذى كان صاحب الفضل فى خروج هذه الدراسة بهذا الشكل رحمه الله وتغمده برضاه داعياً الله سبحانه وتعالى أن يوفقنا جميعا لخدمة أمتنا الإسلامية.

والله ولى التوفيق

د. إبراهيم محمد حسن



الإمارات الإسلامية فى عهد الملك الحبشى عمدا صهيون



خريطة الحبشة فى سنة ١٥٢٠م

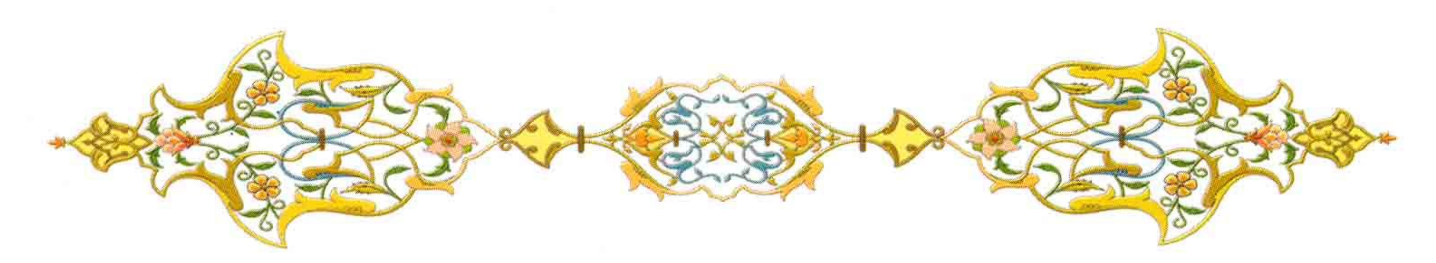


دكتور / إبراهيم محمد حسن

المسلمون فى الحبشة

القرن العاشر الهجرى / السادس عشر الميلادى







للدراسات والبحوث الإنسانية والإجتماعية
FOR HUMAN AND SOCIAL STUDIES